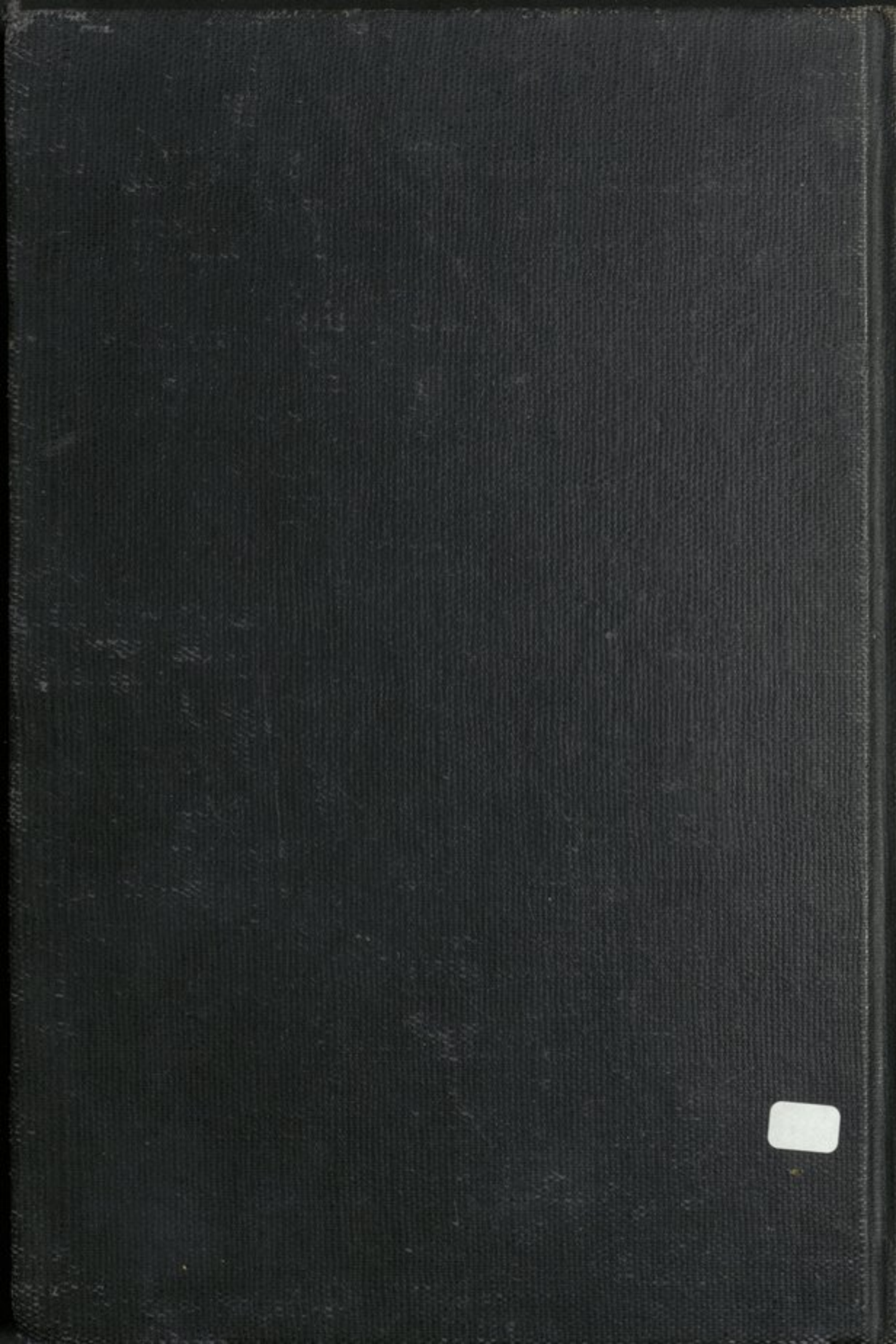
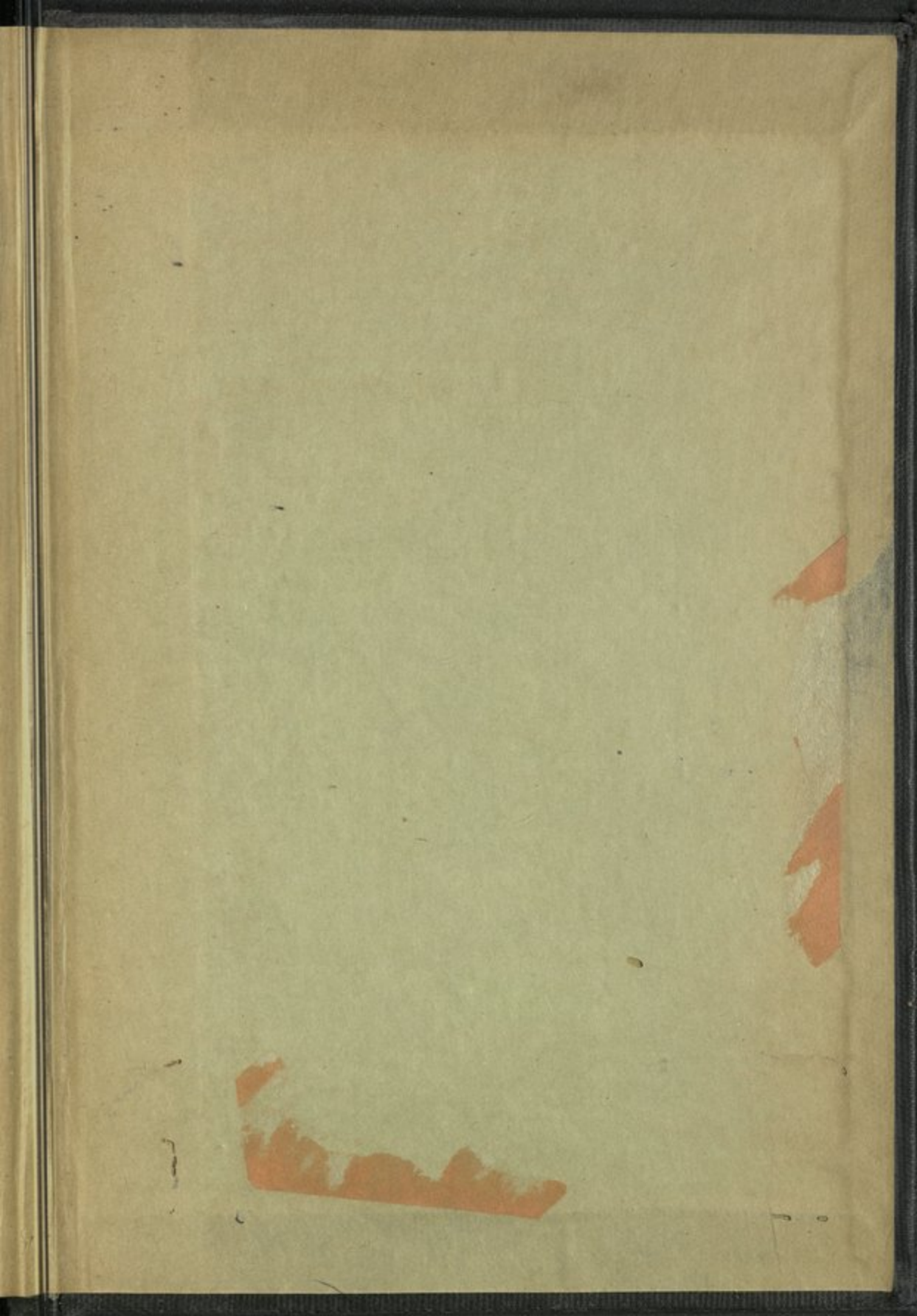






370.1:B93kA

بقطر، أمير.

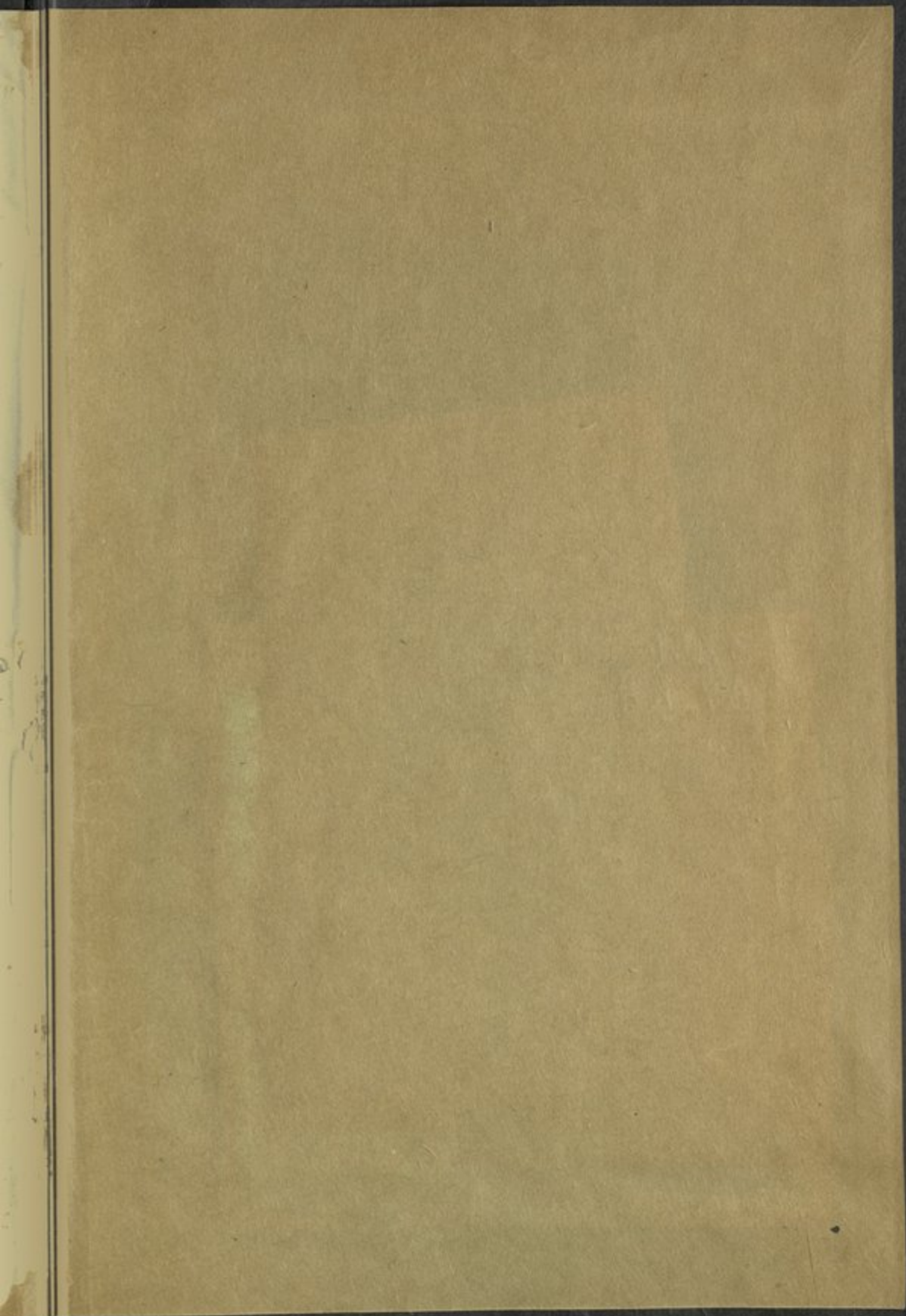
كيف نتعلم للعيش.

370.1

B93kA

~~1958~~

~~1958~~



370.1
B93kA

كيف نتعلم لنعيش

تأليف

أمير قطر

استاذ في التربية M. A. من جامعة كولومبيا في نيويورك
وناظر التعم الثانوى بالجامعة الاميركية بمصر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الاولى

68700

طبع بمطبعة المقتطف بالقاهرة

سنة ١٩٣٠



Cat. Oct. 1949



اهداء الكتاب

الى ذلك الفتى الطموح ، الذى يواصل ليله بنهاره ،
وينفق ريعان صباه فى الدرس والتحصيل ، أملا فى
بلوغ الآمانى

الى تلك الفتاة النابهة ، التى تقضى عنفوان العمر بين
اليراع والقرطاس ، لتشب زوجا ، صالحا ، وأما رءومها ،
وعضوا حيا عاملا ، فى المجتمع الانسانى

الى ذلك الأب المسكين ، الذى ينفق ماله ، ويضئ
جسمه ، ويقلق باله ، ليرى ابنه فى مهنة شريفة ، أو تجارة
راجحة ، أو صناعة نافعة ، تدر عليه الخير والرفاهة ، أو
منصب يمتطى به متن المعالى

الى تلك الام الحنون ، التى تسهر الليالى فى تكوين
بنها ، حتى تراهم فى ميدان العمل ظافرين ، وتربية بناتها .
ليخرجن من معترك الحياة منتصرات

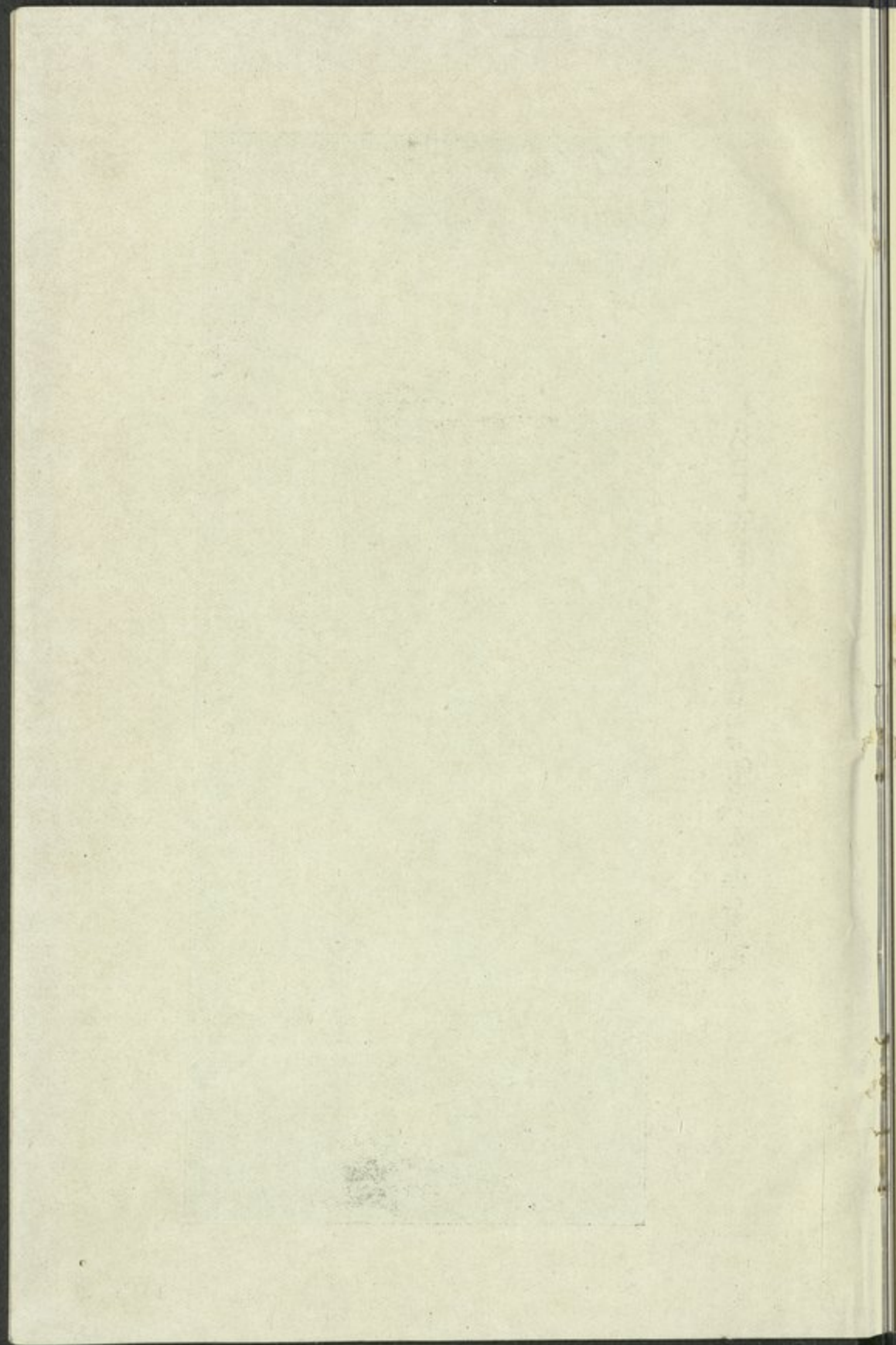
الى المهيمين على شؤون التربية والتعليم ، من وزراء
وممثلى الأمة . شيوخا ونوابا . ومراقبين ومفتشين ،
ونظارا ومعلمين ممن يسعون وراء الحقائق . وينشدون خير
الطرق والمسالك خدمة لطلاب العلم ، واعدادهم حياة عملية
سعيدة فى سبيل الوطن

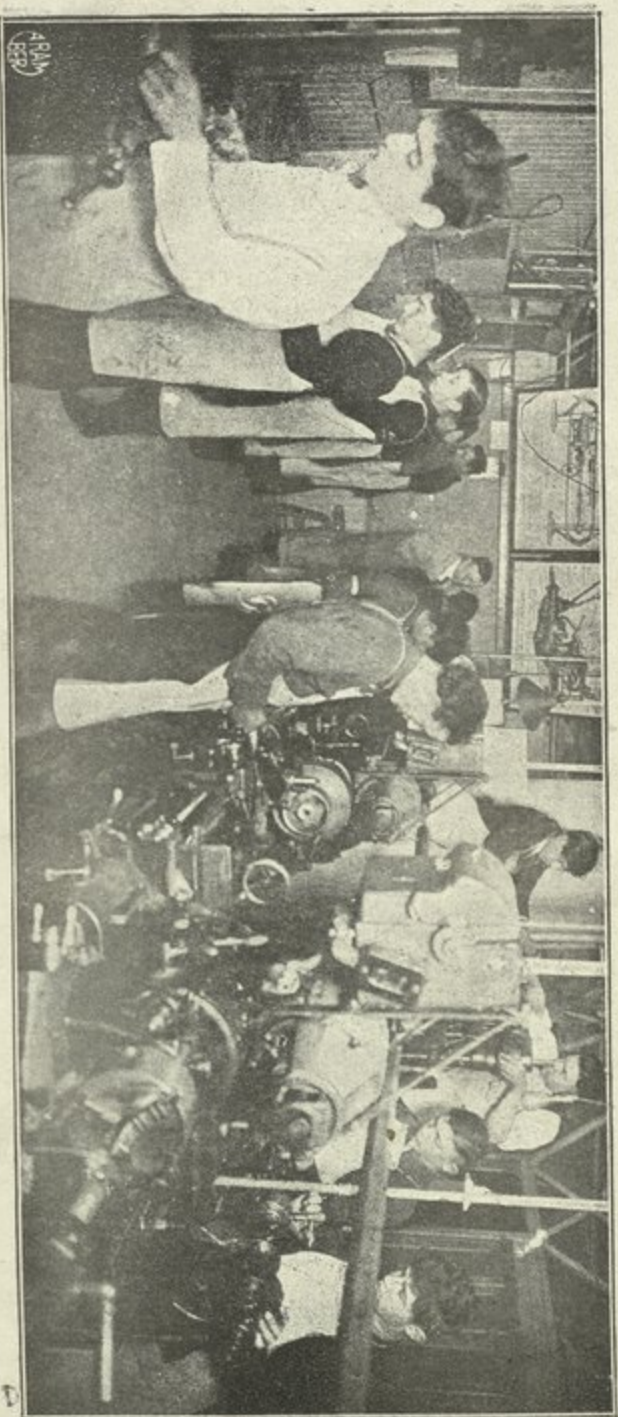
ed. meaning, 28, 32

School + Society, 48

doing, 28f, 44

Learning by doing, 28 f, 44





طلبة إحدى المدارس الثانوية يعملون الميكانيكا عملياً بجانب الصفحات الأخلاقية التي يديرونها
 فيهم العمل اليدوي وكما يتضح مما فعلناه في أما كن عديدة من هذا الكتاب

الى قراء هذا الكتاب

لا يكفي أن يكون الطعام شهياً ، بل ينبغي فوق ذلك أن يكون مغذياً ، شاملاً للعناصر الأساسية التي تتطلبها الجسم ، عظماً ولحمياً ودمياً . ولا يكفي أن يكون اللباس جميلاً ، جذاباً أنيقاً ، بل ينبغي فوق ذلك أن تتوافر فيه شروط الوقاية ، وحفظ الجسم من عوادي الجو وتقلباته ، وملاءمته للأقليم وتقلب الفصول . وكذلك التربية تقوم بوظيفتين أساسيتين ، الزينة والحياة العملية . ومن ينكر أهمية الثياب في الزينة ؟ ومن ينكر الزينة في الثياب ؟ ومن ذا الذي لا ينشد الجمال والكياسة في الملبس ؟ وما نفع الثوب الذي يزين صاحبه ويتركه عارياً ؟ والتربية تخلع على صاحبها ثوب الظرف ، والرفقة ، والتمدين ، وحلاوة التعبير ، والسير والوقوف ، والجلوس ، ومعاملة الغير ، وكذلك فهي تصقل صاحبها وتهذبه ، كما تصقل يد الصانع الآلىء وتجميلها فوظيفة التربية هنا الزينة والزخرف ، وهي لازمة للإنسان لزوم الزينة للملابس .

غير أن وظيفتها الأخرى عملية ، وهي اعداد صاحبها لدخول ميدان الحياة ظافراً منتصراً ، يعمل ويربح ، ويكد ويرثق ، وينتصب ويكسب ، ويأكل خبزه بعرق جبينه ، ويرغد عيشه ، وينعم باله ، ويعمل كعضو عامل في المجتمع الانساني .

ومن ذا الذى يقتصر على التربية للزينة؟ ومن ذا الذى يقتصر تربيته
على العمل المحض؟

أعرف انجليزياً تلقى العلم فى أعظم مدارس إنجلترا، وأظنه قضى زمن
التعليم الثانوى فى «هرو» أو «ايتن» (وهما من أرقى مدارس إنجلترا نظاماً
ودقة، وأعظمها شهرة، وأشدّها استقرارية، ومعظم طلبتهما من أبناء
الامراء والاشراف) ثم تلقى تربيته العالية فى جامعة كمبردج ونال بين
الاطراف العلمية التى وجد فيها، درجة عظيمة من العقل، والتهديب،
والثقيف، حتى كاد يكون كاملاً أو كما يقول الانجليز "all rounder"
فاذا تحدث اليك فى «الصالون» سحرك ببيانته، وذلاقة لسانه،
وتدفق من فمه بحر زاهر من شعر وثر، مقتبساً من شكسبير، وملتون
وشكسبير ودكنز، واديسون وستيل، وخب لبك تمكنه من اللاتينية
والاغريقية

واذا نزل فى حلبة «التنس» قفز كالظبي، وتحفّز للكرة فلا تفلت
منه الا باعجوبة

واذا نزل الى ساحة الرقص، تأبط ذراع أجمل فتاة، وانساب بين
الراقصين على نغمات الموسيقى بخفة ورشاقة وسبك، تدعو للأعجاب به
والتحجب اليه

ولكن... ولكن هذا الشاب اللطيف، الظريف، ناعم الملمس،

المهذب، المثقف، المصقول، المحبب الى لاعبي التنس، وهواة الرقص،
طويل الباع في الادب والشعر... لا يدخل في العمل ميدانا، الا ويخرج
مطأطأ الرأس، ولا يطرق باباً للرزق الا ويجده مقفلاً، ولا يوظف اليوم
حتى يفصل غداً، ولا يزاول تجارة، الا ويقدم دفاتره خاسراً، ولولا أن
أباه غنى، ولولا أنه يعيش عائلة عليه، لاستجدى الأكف في الشوارع،
وعجز عن شراء أدوات التنس، وبذلة الرقص، وعاش بائساً محتقراً
فهل تريد أن تكون تربيتك للزينة؟

وهل تريد أن يتخرج ابنك من المدارس فيجد أبواب الرزق مغلقة
امامه، ويقنع بحسن هندامه، وطلاقة لسانه، وحلاوة قعوده وقيامه،
وعودته وترحاله؟

وأعرف آخرًا، استرالى الجنسية، لا يقل نصيبه من التربية عن نصيب
صاحبنا الانجليزى. ولكن لم يحظ من نتيجة تربيته الا بما يؤهله للقيام
بالعمل الذى يعمله. فهو متين فى مهنته، ولكنه فظ من اجلاف استراليا،
بارد فى اجابته، جاف فى قوله، جامد فى حركته وسكونه، وفى نطقه
وسكونه، سمج فى معاملاته. وكلما زاد تعمقا فى علمه. وتبحرا فى بحوثه،
زاد خشونة فى طباعه، وتصلبا فى آدابه، ونسجت عليه الأيام برؤد السخف
والقبح وقلة الذوق

لقد نال صاحبنا هذا من التربية « والثقافة » قسطاً وفيراً، وزالت من
دمه آخر نقطة من صفات الأجرام التى اتصف بها أجداده، ونال مركزاً

« عملياً » في الحياة لأبأس به ، ولكنه لم « يهذب » ولم يصقل ولم ينل من
الظرف ، والتثقيف ، والكياسة ، والذوق ، والخفة ، والرق ، وغيرها من
النعوت والصفات التي تكسب صاحبها الرتبة المار ذكرها
فهل تريد أن تكون تربيتك عملية وحسب ؟

وهل تريد أن يخرج ابنك من المدارس فيجعله عملاً يرزق منه ، ولكن
ينقصه الظرف ، والذوق ، وحسن المعاملة ، والتهديب والصقل ؟
كلنا يعرف من المصريين والمصريات أشباه صاحبنا الانجليزي . وكلنا
يعرف من المصريين والمصريات أشباه صاحبنا الاسترالي . فنظرة
واحدة الى خريجي مدارسنا ، ترينا ، في كل ناحية من نواحي الأعمال ،
ذلك الرجل الذي يتقن « الظرف » لا غير ، وذلك الآخر الذي يتقن مهنته
لا غير

ونسمع في الايام الاخيرة كلمة « ثقافة » تلوكها الالسن ، وتردها الصحف
والمجلات والكتب ومنشورات وزارة المعارف . وكثيراً ما ترددت اللجان ،
التي عقدتها الوزارة لتعديل المناهج ، في حذف بعض المواد الدراسية من
المقررات ، خوف انهيار الثقافة وجنحت الى ابقاء معظم هذه المواد ، حباً في
نشر الثقافة .

فهل الثقافة التي تنشدها الدوائر المتعددة في بلادنا من (العينة) الاولى
أم من الثانية ؟

وإذا لم تتوافر في مدارسنا احدي الوظيفتين اللتين تقوم بهما التربية

فهل من الواجب النظر في اصلاحها ؟
وإذا لم تتوافر أى الوظيفتين ، أفلا يجدر بنا أن نسرع الى هذا
الاصلاح الخطي ؟

أن مناهج الدراسة تشاد مبادئها على أسس فلسفية وآراء علمية، قد قتلها
الغرييون بحثاً وتمحيصاً، نظرياً وعملياً. والغرض من وضع هذا الكتاب ،
شرح هذه المبادئ والآراء أولاً ، وتحليل معاهدنا العلمية فى ضوء هذه
المبادئ وتلك الآراء ثانياً

وجل ما أتمناه أن يطلع على كتابي كل من يعنى بمسائل التعليم ومستقبل
الناشئين والناشئات، لا لتتخذ آراء الكتاب حجة فى التربية ، أو نموذجاً
ينسج على منواله بغير مناقشة أو دليل ، بل ليتسع المجال للجدل ، فالتجربة ،
فالاصلاح



مدخل الكتاب

لما كانت الشعوب الجديدة بطبيعة تكوينها اقل تمسكا باهداب الماضي
التليد من الشعوب القديمة ، كان لا بد لأميركا — وهي اصغر ممالك العالم عمراً
في التاريخ ، ان تكون سباقة الى عمل الابحاث والتجارب في مناهج التعليم ،
وطرق التدريس ، وأغراض التربية عامة . وقد ساعد أميركا على القيام بمهمتها
الخطيرة موقعها الجغرافي ، وكثرة مصادر الثروة فيها ، واتساع نطاقها ، وكبر
مساحتها ، وسخاء أهلها وميلهم للتبرع بمئات الملايين من الجنيهات لمشروعات
التعليم ، ونزعة السكان الطبيعية الى الطموح والرقى ، مجدين مسرعين ، تلك
النزعة الطبيعية التي حدث باجدادهم ان يثوروا ضد نظم أوروبا القديمة ، وجور
حكامها ووجود تقاليدها

لاتزال أوروبا تعبد الماضي وتقدسّه ، ولنا أن تلمس لها العذر، فإن من
أشقّ الأمور على شعب ان ينسى مجده الماضي ، وتاريخه المتصل بحياته
الحاضرة — ومن المعلوم أن سلسلة الماضي أخذت تنفكك حلقاتها في أوروبا
بعد الحرب العظمى بعد أن كانت متينة مستحكمة ، غير أن اول ما يشاهده
السائح في أميركا بغير تردد أو اجهاد ، أن سكانها أكثر تفكيراً في الحاضر
والمستقبل منهم في الماضي ، وقد كان لهم في النهضة الحديثة والثورة الصناعية
أكبر مشجع على خرق حجب الظلام وتلمس الحقائق اينما وجدت . لذلك
اذا قلنا اليوم أن أميركا مصنع كبير للتجارب العلمية الفنية في التربية . جاز لنا

القول أنها أيضاً مصنع واسع النطاق في الفلسفة وعلم النفس وعلوم الاجتماع والعلوم الطبيعية والصناعية والفنية

وما دامت هذه التجارب قائمة ، والعالم في تغير مستمر ، ومدنيتنا في تغير متواصل ، فمن المحتم ان تخرج لنا مصانع أميركا تتألمج هذه التجارب تباعاً . ولا غرابة اذاً ، اذا هبطت علينا من سماءها آراء جديدة ، ونظريات جديدة ، ونماذج لمدارس جديدة ، ومناهج جديدة وطرق جديدة . وهذه المانيا وروسيا وأواسط أوروبا وانجلترا والبلدان الشمالية في أوروبا اخذت تؤمن بالتعاليم الجديدة التي وضعت في بوتقة التجارب فجاءت النتيجة ايجابية ، ولا بدع اذا قرأنا يومياً المؤلفات التي ترد تباعاً عن نظم المدارس الحديثة في أوروبا ان أوروبا القديمة كانت تخشى الاخذ بالنظريات الحديثة التي على دعائمها انشئت المدارس الجديدة ، وكانت تخاف ان تندثر معالم الثقافة القديمة ، فتندثر معها المدنية الأوروبية . غير ان أوروبا الحديثة اخذت تنهض من سباتها ، حتى ايقنت اخيراً ان هذه المدنية لا بد ان تزول اذا لم تتغير بتغير الزمن واليوم تتحد أوروبا واميركا في قلب نظم التعليم القديمة ، بعد ان وقف كبار رجال التعليم فيهما على الحقيقة ، ووضع لهم الطريق . واخذ القائمون بشؤون طرق التعليم في كل مملكة من الممالك الأوروبية يرسمون خطة الدراسة رسماً يتمشى أولاً مع الطرق الحديثة وفلسفة التربية الجديدة ، ثم يلائم ثانياً حالة البلاد وحاجتها . وليس ثمة أدل على انتشار الروح الجديدة في التعليم في أوروبا من الكتب والمجلات والمؤتمرات واللجان التي تتكون وتنعقد في معظم انحاءها

ومن الغريب اننا نرى انجلترا مهد التقاليد ، وعنوان القديم ، ورمز الماضي العتيق . من الممالك قد ضربت بسهم وافر في ميدان التربية الحديثة ، حتى انك لا تقرأ عدداً من اعداد مجلة التيمس الاسبوعية ، (الملحق الخاص بالتعليم) الا وتجد ثورة على النظم القديمة ، واخباراً عديدة تنبئ عن تحول معاهد العلم هناك

وقد اطلعت اخيراً على مجلة انجليزية حديثة اسمها العصر الحديث او مجلة التربية الجديدة فألفيتها جامعة لآراء اكابر اساتذة التعليم في اميركا وعلى رأسهم اساتذة جامعة كلومبيا في نيويورك امثال ديوى وكلماترك ، ومنرو ورسل ، ورج ، وثورندايك ، وغيرهم من الفطاحل العاملين المجددين الذين كتبنا عنهم كثيراً في مجلتنا التربية الحديثة وفي غيرها من الصحف والمجلات وقد لفت نظري جملة جاءت في افتتاحية تلك المجلة الانجليزية تنقلها تأييداً لقولنا ، وهي : —

لأمل في احرازنا النصر في ميدان التربية ما لم نجرد

الماردين الشقيقين العاتيين من أسنانهما ، وما هذان

الماردان الا مارد المناهج ومارد الامتحانات .

ومن الغريب أن تصدر هذه العبارة من بلاد الانجليز التي اشتهرت بتمسكها بنظم الامتحانات الجامدة ، وتعلقها بمناهج موضوعية منذ مئات السنين ، على أن هذا ليس بالصوت الوحيد الصارخ في وجه المناهج والامتحانات بل سيجد القارئ في غير هذا المكان من هذا المؤلف مظاهر

متعددة تأييداً لمجلة العصر الحديث . التي نقبس منها أيضاً ما يأتي : —
 « على الرغم من الخطى التي قطعناها في طريق التربية في خلال الخمسة
 والعشرين عاماً . فانا أخفقنا في وضع منهج يتمشى مع مدينتنا الحاضرة
 والاحوال المتغيرة من حياتنا الحديثة . يوجد في العالم اليوم ملايين من الشبيبة
 الذين لا يزالون يثنون مما ورثوه عن اجدادهم من نظم وطرق عتيقة في
 التربية ولا يزالون يستظرون القواعد المملة والدروس المكثسة من بقايا
 الاحقاب الغابرة . ومن اكوام المعارف المتراكمة التي لا تفسح للتفكير
 مجالاً . أن مدارسنا الانجليزية لا لوم عليها لأنها « تعلم » طلبتها طبق
 « الخطة المرسومة » في مناهجها — بما في ذلك التربية البدنية . غير أن المدارس
 الناهضة في أميركا وغيرها أخذت تعترف بحقوق الاطفال فأنشأت لهم مناهج
 وطرقاً تتفق مع الحرية الفكرية والنمو العقلي
 وان انجلترا لا تزال تجهل المشكلة العويصة التي تقف حجرة عثرة في
 سبيل التعليم — ألا وهي مشكلة المناهج . أن المعلمين في انجلترا لا يعلمون
 لأن أن هناك مشكلاً ، يدعى مشكل المناهج والخطط المدرسية ، لأن قيود
 التقاليد وأغلال الماضي قد ضيقت عليهم المسالك . ولأن أستار القديم قد
 حجبت عن ابصارهم النور . فأصبحوا عمياناً لا يبصرون . تقضى التقاليد أن يلم
 الطالب ببعض « المعلومات » ويستظهر « حقائق » معلومة . وفي حكم هذه
 التقاليد لا يعد المرء متعلماً ، مذهباً ، مثقفاً ، مالم يدخر طاقة من هذه الحقائق
 وتلك المعلومات الموضوعية . المرسومة ، المقررة . وفي حكم هذه التقاليد

يجب أن «تعلم» ما تعلمه اجدادنا وآباؤنا قبلنا، ونعرف ما عرفوا. ويجب فوق ذلك أن نبرهن على ادخارنا هذه المعرفة وذلك العلم عند ما يطلب منا ذلك. (وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان)

ومتى تسنى لنا ان نبرهن على ذلك، أصبح لدينا جواز passport نبرزه للدلالة على اننا متعلمون. ان التعليم في انجلترا اليوم وبعض ممالك اوروبا لا يزال قومياً محضاً في حين انه يجب أن تتسع دائرته فيصبح أممياً دولياً، لان عقول الناس وتفكيراتهم اتسع أفقها فخرجت عن دائرة القومية، حتى مست أطراف المعمورة. ولا يزال التعليم في هذه البلاد مخالفاً لمبادئ علم النفس unpsychological رغم كوننا نعيش في عصر زهت فيه مبادئ هذا العلم، وظهرت فيه مستكشفات الباهرة وتنتائج تجاربه العلمية المدهشة. ولا يزال التعليم في هذه البلاد مخالفاً للتواعد العلمية unscientific رغم كوننا نعيش في عصر العلم Science

وما العيب في مناهجنا اذا؟ تقتصر على ذكر ثلاثة عيوب:—

اولا—انها لا تتفق مع الحضارة الحديثة، لانها أصبحت قديمة الزى out of date نظراً لاتساع دائرة المعارف في كل علم وفن، وقد أصبحت الحقائق التي يجدر بالطالب معرفتها اليوم، غيرها منذ ستين عاماً، بل غيرها منذ عشرة أعوام. واذا فرض أنه من المرغوب فيه أن يدخر المرء طاقة من المعلومات والمعارف القديمة والجديدة، فإن هذا مالا تحتمله الذاكرة، ولا يسمح به الوقت، لان الحقائق والمعلومات تتراكم بعضها فوق بعض وتردد

يوماً فيوماً بسرعة البرق .

فلمْ نَجْزِعْ وندهش إذا قيل لنا أن في سنة ٢٠٠٠ بعد المسيح لا يتحتم أن يعرف الرجل المتعلم شيئاً عن حرب كذا ، أو عن خلجان ورؤوس أوروبا ؟ ألا يستطيع أن يجد المعلومات أو الاحصاءات التي يريد ، في دقيقة واحدة إذا رجع إليها وبحث عنها ؟ فلم إذاً يتعب ذهنه وينهك ذاكرته في حفظها واستظهارها بغير جدوى ؟ أليس يكاف أن يستطيع الرجل سنة ٢٠٠٠ بعد الميلاد أن يقود طيارته ، ويحترق حدود ممالك العالم ، ويتحدث مع سكانها بلغتين من لغاتها الحديثة ، ويستثمر عقله وتفكيره في حل المعضلات التي تصادفه ، ويشترك في الشؤون العامة بحرية وبغير محاباة أو تحيزاً ، وبذلك يصبح عضواً نافعاً في بلاده والمجتمع الانساني بأسره ؟

ثانياً — انها لا تتفق مع مبادئ علم النفس ، ولا تنطبق على القواعد العلمية . والسبب في ذلك أنها تحاول أن تعامل جميع طبقات الاطفال معاملة واحدة وتفرض ان استعداداتهم ومواهبهم وكفاياتهم واحدة سواء بسواء ، فتقرر على التلاميذ المختلفي الاسنان ، معلومات « عقلية وعقلية جداً » . وبذلك تجهل الفروق الفردية ولا تحسب لها حساباً . وهي تجعل أيضاً الرغبة (١) الغريزية interest — تلك الرغبة ، وذلك الشغف ، الذي يدفع الطفل من تلقاء نفسه أن يأتي عملاً من الاعمال . وربما كان الاستاذ دكرولى (٢) (من بروكسل) اكبر اساتذة أوروبا الذين شادوا نظرية الرغبة ، (المهاج مبنى

(١) انظر معنى هذا المبدأ في الكلام عن فلسفة ديوى (٢) Dr. Decroly

على أساس) وهو يعد من رجالها القلائل الذين عنوا بعقلية الطالب وتنقيته في رسم الخطط المدرسية، فكان لتأثيره شأن يذكر في وزارة المعارف البلجيكية ولا ننسى هنا دكتور باترك جديسن^(١) الذي عني بدرس البيئة بدلا من درس الكتب الدراسية عند وضع المناهج.

ثالثاً — ان مواد الدراسة فيها كثيرة لدرجة لا تحتمل فمن منا ينسى عدد الدروس اليومية ودق الاجراس عند تغير الحصص ودخول المعلم يعقبه الآخر؟ أن معلمينا وكبار المربين فينا يكتفون بحشو أدمغة اطفالنا بكميات من الحساب والجغرافيا والقواعد اللغوية .. و .. بغير ادنى تقدير لآثاره عقولهم وفائدة تفكيرهم . ولا يهم هؤلاء أمر نمو الطفل العقلي، وشبابه رجلا عاملا حراً كفؤاً على القيام بأعماله، قادراً على العيش سعيداً مستقلاً. وهل يبلغ طفل شأو ذلك الرجل الذي وصفناه طالما كان يومه المدرسي مثقلاً jammed « بالتقاليد » و « المعارف » التي يريدها والدو الطلبة ؟

ان هذا الصوت الصارخ من بلاد الانجليز يصح ان يتخذ منبهاً لنا نحن المصريين، الذين اقتبسنا نظم التعليم الانجليزية والافرنسية، ثم نمنا نوماً عميقاً، ظناً منا أن هذه النظم ستخلد وستبقى كما وضعت، ولا ندري أن عوامل التجديد تهدمها شيئاً فشيئاً كما تهدم غيرها من النظم الاجتماعية ان الطريقة التي نسير عليها قد أطفأت الشعلة المتقدة في أذهان الاطفال وقتلت في التلاميذ ملكة التفكير . يقول ديوى أن الطالب الذي يوجد في

بيئة مدرسة « صناعية » ، لا يمكن أن يستجمع قواه الغريزية ويسكبها في أعماله اليومية ، ولا يمكنه أن يظهر ميوله أو يغير عن مشاعره ، بل تنحصر كل جهوده في ارضاء معاميه ، مع حفظ قليل من هذه الجهود العقلية سداً لحاجاته الداخلية . ان مدارسنا على ما هي عليه تعمل على تقسيم الانتباه في التلميذ الى قسمين ، قسم يوجه للدرس توجيهاً صناعياً قهرياً ، وقسم يوجه الى حاجة التلميذ الغريزية . ويؤول هذا التقسيم في الانتباه والجهد الى كراهية في نفس الطفل للتعليم والمدرسة . اننا نضع حداً قوياً فاصلاً بين مواد الدراسة بكيفية تجعلها أولاً منفصلة عن الحياة ، وثانياً مجزأة ، فلا ينظر الطالب الى الحياة كأنها كتلة واحدة ، بل وحدات متفرقة

وقد فطنت المدارس الحديثة لهذا الخطأ البين فجعلت مواد الدروس مجموعات متقاربة وحداتها . مثال ذلك أن التلميذ بموجب النظام القديم يدرس الحرارة والصوت والضوء ثم الكهرباء ثم المغنطيس ثم الميكانيكا الخ ، كلها منفصلة الواحدة عن الاخرى . أما النظام الجديد المتبع الآن في اميركا وفي كثير من ممالك أوروبا فيقضى أن تدمج هذه كلها في موضوع واحد وكتاب واحد ، ويطلق على المادة التي تدرس حينئذ اسم « علوم عامة » General Science فيبدأ الطالب في أول الكتاب أو الموضوع ان يعرف شيئاً عن الهواء الذي يحيط به ، والعناصر التي يتكوّن منها . كذلك الماء . ثم يتدرج منها الى النبات وبعض الحيوان وما تحتاجه الى الحرارة والضوء ، ثم يقف على تأثير الكهرباء في عصرنا الحاضر . وهكذا يجد العلوم الطبيعية كلها كتلة واحدة

كما يراها في الحياة . وهذا لا يمنع طبعاً من التخصص في احداها بعد نهاية التعليم الثانوى

ربما لا يدرك بعض المعلمين أن للموسيقى والرياضة البدنية والفنون الجميلة وعشرات غيرها من الأشياء التي لا تغنى بها المدارس القديمة ، أهمية لا تقل شأنًا عن كثير من المواد التي تثقل بها أذهان تلاميذنا ، أن لم تكن تقيض عنها . أيهما أُنفع للنبت في حياتها ، مطولات الحساب وتفاصيل الوقائع الحربية التاريخية ، أم طهى الطعام ودرس قوانين التغذية ، والتوقيع على آلة موسيقية ؟ وأيهما أُنفع للصبي قضايا المنطق أو صناعة السيارات ، أو مبادئ النجارة أو الحدادة ؟

كتب رئيس جامعة وسكونسن في اميركا يقول إن المهاج يجب أن يشاد على أساس الاسئلة الآتية وامثالها وهى : —

ماذا ينبغى أن اعرف عن وظائف جسم الانسان ؟ وكيف أحافظ على سلامته ؟ ماذا ينبغى أن اعرف عن طبيعة عقلى وعملياته ؟ ماذا ينبغى على ان أعرف لا كون ناخباً ، ونائباً ، وزوجاً ، ووالداً ، وموظفاً ، وصاحب مصنع أو مصرف ؟ ما هى المسائل الهامة التي ينتظر العالم في عصرنا الحاضر ؟ ما هى الدروس التي يجب أن ألتقها والتي بها أعد نفسى للمهنة التي أريد أتخاذها في حياتى ؟ ما سبب الأحزان في العالم ؟ هل هى نتيجة أعمال الغرور ، أم سياسة المجموع وخطته ؟ هل تؤدى الدروس الرياضية الى تقوية العقل ؟ واذا كان علماء النفس ينكرون ذلك بتاتاً ، بعد تجارب عملية ، فلم لا تقتصر على درس

الكيمياء الرياضية التي لها قيمة عملية في الحياة ؟ هل من الحكمة أن يسير جميع الطلبة في المدارس الثانوية على الأخص على منهج واحد ؟ ألا يميل بعض الطلبة الى بعض المواد ، ويميل الآخرون لأخرى ؟ وإذا كان علم النفس يبين لنا جلياً أن الأطفال يختلف بعضهم عن بعض في ميولهم ، فلم لا تبني المناهج على هذا الاعتبار ؟ ألا ينصرف ميل بعض الطلبة الى الفنون الجميلة ، من تمثيل ، ورقص ، وغناء ، وموسيقى ، ورسم ؟ فلم لا تفسح مكاناً لهذه الفنون في مناهجنا لمن يريد ؟ اليس الحياة متنوعة فلم لا تتنوع الدراسة ؟ ألا يؤول هذا التنوع الى ولوج ابواب الاعمال والفنون والصناعات ، ألا يؤدي نظام المناهج القديمة المصبوغة كلها بصبغة واحدة الى الاكثار من ذوى الياقات (١) البيضاء ؟

(١) عبارة تطلق في بلاد الغرب على المشتغلين بالاعمال الكتابية الذين يلبسون القمصان والياقات البيضاء والملابس الجميلة ، على تقيض العمال الذين يرتدون ملابس العمل الزرقاء ، الملوثة بالقحم والزيت

الفصل الأول

تحول (تطور) المنهاج

في المدارس الحديثة (١)

لأستاذنا الكبير هارولد راج (Harold Rugg) من كبار رجال التعليم في أميركا واحد
أساتذة التربية في جامعة كولومبيا مباحث جليلة في هذا الموضوع . فأذا كنت متشبعاً بأحدث الآراء
في هذا البحث . فأنتى أعزو ما أكتبه إليه أولاً . وإلى ما خبرته عملياً في معاهد أميركا ثانياً .

المنهاج القديم

إذا قلنا المنهاج القديم فأننا نقصد المنهاج كما كان في أميركا وأوروبا قبل
سنة ١٩٠٠ أو كالمنهاج الذى نشأه اليوم في بلادنا المصرية وبعض ممالك
أوروبا التى لا تزال متأخرة في هذا المضمار . وقد كان المنهج في ذلك الحين
يشمل القراءة والكتابة والجغرافيا والتاريخ والطبيعة والجبر والكيمياء
والهندسة الخ ... وكان هم المدارس والمعالمين منحصراً في ترتيب عدة معلومات
ومدارك ومعارف ترتيباً يشبه ملخصات دوائر المعارف ، واستيعاب هذه المعلومات
والحقائق واستظهارها في بعض الاحيان . وكان هذا جل ما ترمى إليه التربية
في ذلك الحين . وهذا النظام في التعليم يعزى الى ثلاثة اجيال طويلة كانت
تعمل فيها الثورة الاقتصادية في اوروبا ، الغنية بحديدتها ورتبتها وموقعها
الجغرافي الخطير ومركزها التجاري ، عديم النظر

(١) انظر : راجع الى كتابه "The Development of the Curriculum" (١٩٠٩)

غير ان شمس القرن العشرين ما كادت تبرز من خدرها ، حتى أخذ مستوى الحياة ، بين ٥٠٠ مليون نفس أوروبى واميركى ، على جانبي البحر الاطلسى ، يرتفع بسرعة مدهشة . وأخذت الطرق العلمية فى مقاييس الاشياء ، وطرق التفكير ، تنتشر ويتسع نطاقها . فتغيرت آراء المدارس فى التعليم . وتبع ذلك انقلاب عظيم فى مناهج الدراسة . ولم تأت سنة ١٩١٥ حتى تضاعفت التجارب العلمية فى التعليم . والمدارس التجريبية التى تلامم مدينة متحركة dynamic دائمة التغير . وليست ثابتة static كما كانت مدينت القرون الماضية

والتفق عليه الآن ان نواة المدرسة الحديثة قد ظهرت فى عالم الوجود سنة ١٨٩٦ حينما أنشأ الاستاذ الكبير دكتور ديوى معهداً تجريبياً . أطلق عليه بجدارة اسم مدرسة المعمل laboratory school . وقد جاءت نتيجة هذه المدرسة المبتكرة الوحيدة باهرة . فقد نسج المنهاج بمقتضاها من برد حاجات الطالب ولحمة الاعمال ووسائل النشاط والحركة التى تعينه على التعليم بواسطة العمل . ولا تزال فكرة المنهاج التجريبية قائمة الى اليوم . وتزداد قوة ونشاطاً واتساعاً فى اميركا وأوروبا . واذا اردنا ان نضرب مثالا لهذه المنهاج التجريبية ، لذكرنا المائتا وروسيا والنمسا والمجر وشيكوسلوفاكيا وبعض انحاء انجلترا وسكوتلندا ، وربما كانت مدرسة لنكولن التابعة لجامعة كلومبيا (كلية المعلمين) ابداع مثال لهذه المدارس . فمدرسة لنكولن الثانوية لا تتقيد بمنهاج موضوع ثابت بل يتقلب عليها عدة مناهج يضعها اساتذتها ورئيسها (وهو

أحد اساتذة التعليم في كلية المعلمين) وضعاً يلائم ذلك العمل الكبير. ولاغرو إذا اطلق على منهاج هذه المدرسة اسم المنهاج ذي الاوراق المنفكة loose-leaf curriculum اشارة الى تمزيق اوراق المنهاج التي يظهر معمل التجارب عدم صلاحيتها ووضع اوراق سواها ذات ثقب تدخل وتخرج بسهولة من كراسة تشبه الكراسات التي يستخدمها الطلبة في اميركا وأوروبا كما سنرى في موضع آخر من الكتاب

وإذا تتبعنا طبيعة التغيرات التي طرأت على المناهج ، وجب علينا درس الهجمات الثلاث التي اصابت منهاج القرن التاسع عشر ، وخططه الدراسية التقليدية القديمة . أما الهجمة الاولى فقد قضت على نظم الانتقال من فرقة الى فرقة ، ونظم امتحانات الدخول التي كانت كلها جامدة غير موافقة لسنى الطلبة ، ولمراعاة ما يقتضيه الحال لكل طالب على اختلاف نفسيته ووسطه . غير ان هذه الهجمة لم تطعن فلسفة التربية في ذلك الحين في الصميم . وغاية ما في الامر انها اصلحت شيئاً من نظام الادارة المدرسية التي كانت تهتم بالقشور والسطحيات ، دون اللب والجوهر . ولم يكن حظ جميع المدارس من هذا الاصلاح البسيط سواء ، لأن الذين كونوا جيوش الهجوم كانوا من اساتذة الكليات في اميركا ، وكان غرضهم متجهاً الى تسهيل طرق الدخول الى الكليات بتغيير امتحاناتها وتنظيم السنوات المدرسية تنظيماً يساعد على تسهيل هذه الطرق

وهنا نسير بالقارىء الى المعركة الثانية ، وقد كانت هجمتها اشد وأكثـ

فعلا من سابقتها . ومن أكبر رجالها (١) ثورندايك وجاد وفريمان ، الذين استنبطوا بعد سنة ١٩٠٠ الطريقة العلمية وفن البحث عن الحقائق بطريق التجربة والاحصاء . ولم يشتغل هؤلاء في مدارس تجريبية الانداراً ، ولكنهم حصروا أعمالهم في معامل علمية أو فصول دراسية خاصة . ومنذ ذلك الحين برزت في عالم التربية عبارات جديدة لم يسمع بها من قبل ، كالاختبارات التي تستعمل لمقياس التعليم ، والتجارب والاحصاءات وبطاقات (٢) الفوقان الخ . وظهرت مطبوعات ونشرات كثيرة عن ذكاء الاطفال وفن التعليم وطرق تعليم المواد المختلفة والمنافع الاجتماعية للمواد التي يتكون منها المنهاج الخ . . ومع الاعتراف بأهمية هاتين الهجمتين فإن فلسفة التعليم لم تتأثر كثيراً بهما لان رجال التربية كانوا يعتقدون الى ما بعد الهجمة الثانية ان من لوازم التربية حفظ الاشياء المقررة في المناهج

٢- اما الهجمة الثالثة ، او المعركة الاخيرة ، فهي الآراء والمبادئ التي أدلى بها ديوى وكلبارك ومريم ، والتي على اساسها قامت المدارس الحديثة وهذه الآراء تؤكد وجوب الاهتمام بشخصية المتعلم ، وحرية ، ونشاطه ، وتكوين عوامل الرغبة فيه ، وتقوية ملكتي الابتكار والمسؤولية في نفسه . ولو شئنا ملأنا صفحات الكتاب باسماء المدارس والمعاهد التي شادها اصحابها على أسس هذه الفلسفة ، والتي شاهد فيها التلاميذ حياة مدرسية جديدة ،

Score Cards (٢) Thorndike, Judd, Freeman (١)

هي شطر من الحياة العامة ، كما سيتضح من وصف بعض هذه المدارس في غير هذا المكان

وإذا راجعنا التغيرات التي طرأت على المنهاج ، حتى بلغ الحالة التي هو عليها الآن ، لوجدناها تتناول الاشياء الآتية :—

اولاً — تغيير في المرمى او الغرض من التربية — فلقد كان غرض التربية في القرن التاسع عشر مجرد ثقافة عامة ، وكان المفهوم ان هذه الثقافة ، تدرك بمعجزة لا تعرفها الا السماء ، او القوة العلوية ، فهي تستطيع ان تقوى الطالب عقلياً وتعدده لاجتياز سبل الحياة ومعتك الاعمال وحل المضاعب التي تعترضه في سبيله ، من اقتصاده ، وسياسية ، ومالية ، الى غير ذلك . أما القرن العشرين فقد قضى على هذه الفكرة المبهمة ، ودلت تجارب علمائه على وجوب تحديد هذه الاغراض ، وقد حصروها في سبع مواد ، شرحناها بتفصيل في كتابنا « الدنيا في اميركا »

غير أن مجمل هذه الاغراض سينحصر في تعليم الناشئة ما يحتاجون في الحياة ، سواء أ كانت هذه الحياة اقتصادية ، أم خلقية ، أم صحية ، أم سياسية أم أى شئ آخر ، مع مراعاة مواهب التلميذ وميوله واستعداداته ، والوسط الذي يعيش فيه

ثانياً — تغيير في الاشخاص ، المسؤولين عن المناهج . كان الرئيس الاكبر وحاشيته ، في القرن الماضي ، هم المنوط بهم وضع المناهج وتقريرها ، أما اليوم

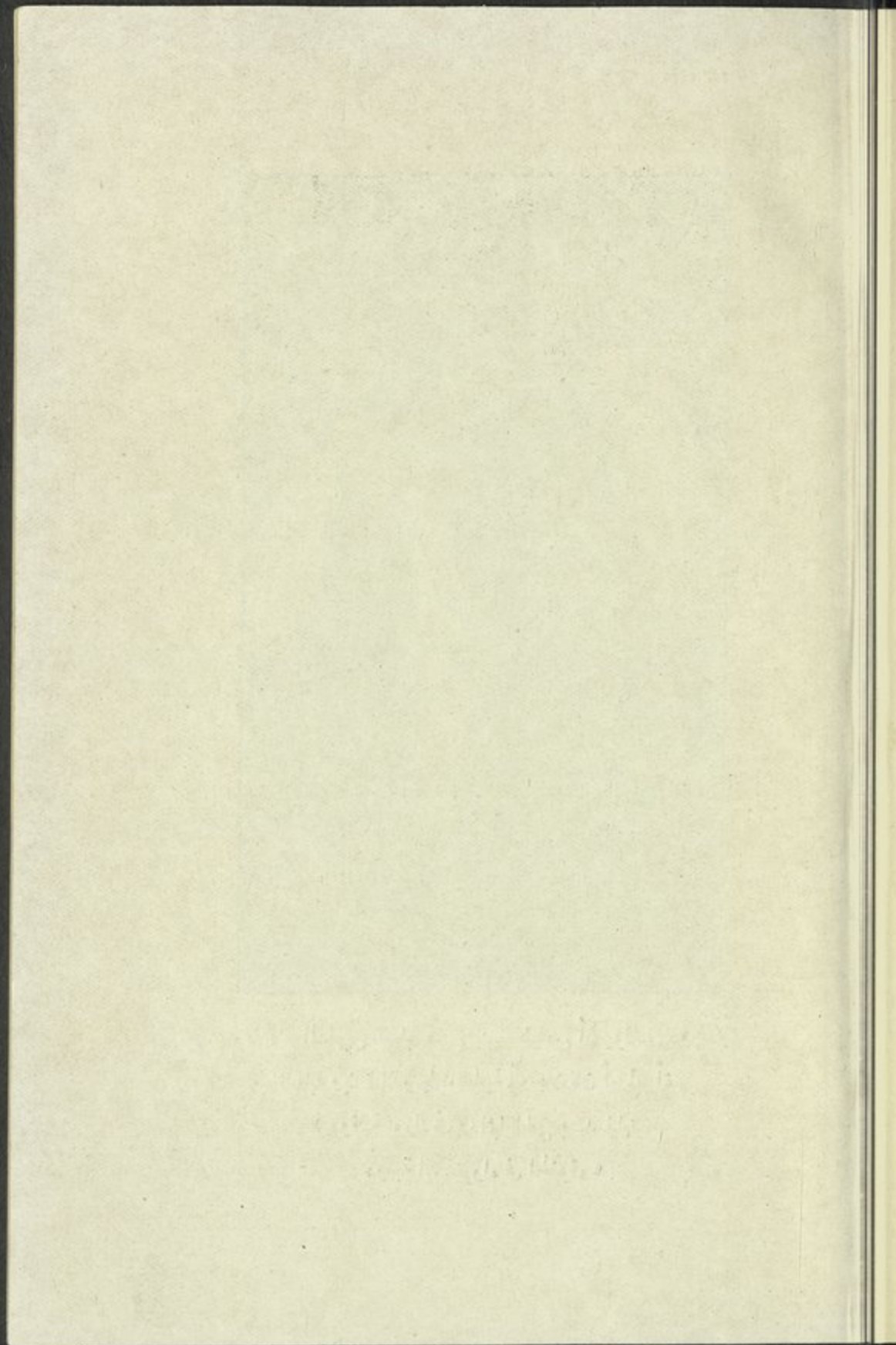
فيشترك في وضعها المعلم ، والناظر ، والمفكرون ، والفنانون ، واصحاب الاعمال الكبرى ، والمهن الراقية ، وعلماء النفس والفلسفة والاجتماع والتجارب والمقاييس العقلية والعملية ، وجميع الذين يامون بطبيعة الطفل ، والفروق الفردية بين التلاميذ ، وكل من يستطيع أن يسدى النصيحة ، ويدلى بالمقترحات التي تعين رجال التعليم على اختيار المواد التي تخلق من الطفل رجلاً ، وتشعل فيه نار الغيرة واليقظة والنشاط ، وتوقظ في نفسه الشعور الكامن ، والميل الخفي ، والمواهب الدفينة ، في كل ناحية من نواحي الحياة

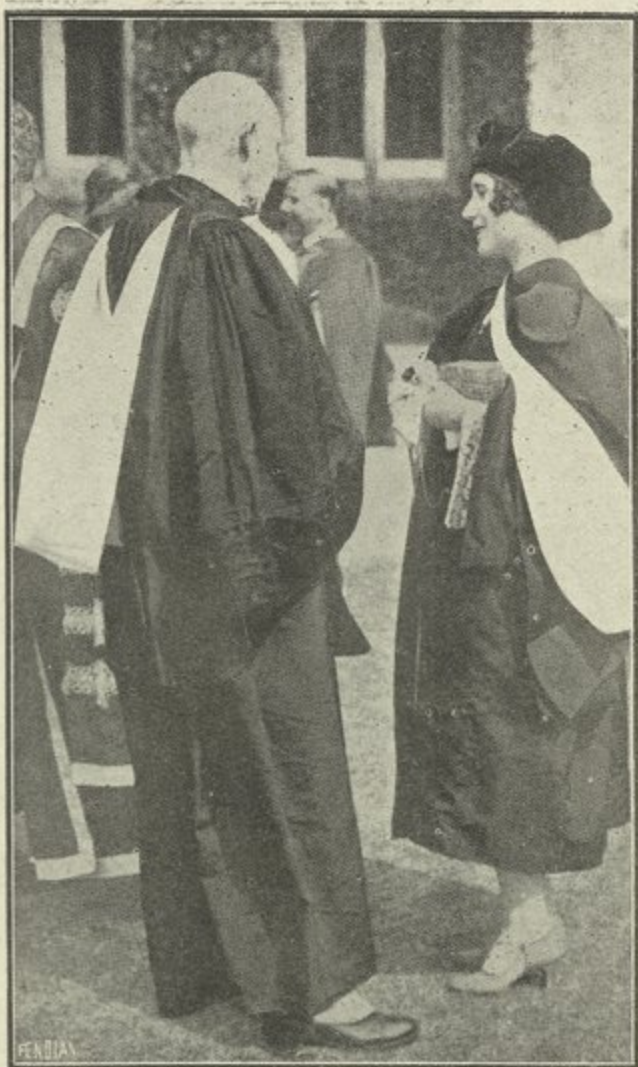
ثالثاً — تغيير في الطريقة . لم تعد طريقة الشرح والحفظ والتسميع تجدى نقماً . أن محتويات المناهج اليومية توضع في ايدي الطلبة ، فيطبقونها على مبادئ الحياة العملية ، ويفحصونها في المعامل المدرسية ، أو الخارجية . ولم تعد معامل الطبيعة والكيمياء ، والنبات والحيوان ، في المدارس تجدى نقماً وحدها ، لان المصانع والآلات البخارية والكهربائية ، والمتاحف ودور الآثار والحقول الزراعية والجبال والبحار والانهار ودور الحكومة والمصالح والمصارف ومراكز البوليس والمكاتب العامة والمدرسية ، والاندية الرياضية والادبية والفنية والزراعية والاقتصادية والصناعية — كلها اصبحت مدارس لا بد منها في تكميل دراسة المناهج

رابعاً — تغيير في المحتويات . كانت مناهج المدرسة القديمة في عالم ، والحياة في عالم آخر . أما محتويات المدرسة الحديثة فشطر من الحياة ، وعامل اكبر لسد حاجات المجتمع . فالسيارة التي قلبت نظام المواصلات ، اصبحت

من أهم الدروس التي يتلقاها التلاميذ، كذلك اللاسلكي، والموسيقى، والمحافظة على سلامة الجسم والعقل، ومعاشرة الناس، وتمارين الأيدي على الأشغال اليدوية والصناعات المعروفة، كالنجارة والطباعة والحدادة، ودرس أحوال البشر في الأجيال الغابرة والحاضرة، وتاريخ الصناعة الخ الخ. وليس معنى هذا أن يدرس كل طالب كل شيء، إن واجب المدرسة الأول هو درس مبول الطفل واستكشاف مواهبه، ثم مساعدته على اختيار خمس أو ست مواد دراسية، ومادة أو مادتين يدويتين

فأما — تغيير في تنظيم المناهج. إذا درسنا النظام الحديث في تقسيم المواد التي تتكون منها المناهج اليوم، وجدنا أن هذه المواد تتألف من مجموعات، متقاربة وحداتها، مرتبط بعضها ببعض. فالتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والتربية الوطنية الخ، كلها تؤلف مجموعة واحدة تدعى مجموعة العلوم الاجتماعية. وهذا بخلاف النظام القديم الذي كان يجعل التاريخ في معزل من التربية الوطنية، والجغرافيا في معزل من الاقتصاد والطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان الخ. كلها مجموعة واحدة، تقرأ في كتاب أو سلسلة كتب واحدة، وكلها متصلة بعضها ببعض، وتكون وحدة كاملة تسد حاجة الطالب في القرن العشرين، وتعلمه كيف ينظر إلى هذه كلها بعين واحدة - أضف إلى ذلك أن هذه المجموعات قد حذفت المطولات المملة الكثيرة التي كان يدرسها الطالب في المدرسة القديمة، وعلقت أهمية على أشياء كانت لا تعنى بها معاهد التعليم القديمة. فكثير من نظريات الجبر والهندسة والحساب قد





ولا تمنع المدارس العملية من يريد التخصص أن يواصل دروسه
 العالية وينال الدرجات العلمية ، رجلاً كان أو امرأة
 « دوقية يورك في رداها العلمي بعد نيلها
 درجة الدكتوراه في الحقوق »

قضى عليها . وكثير من تواريخ الحروب وتفاصيلها قد حذفت وحل محلها تاريخ الصناعة والتعليم والمدنية . واكتفى بتدريس الحساب في المدارس الابتدائية دون الثانوية، وعوض الكثيرون من الطلبة من درس بعض المواد لعدم حاجتهم او ميلهم اليها . ففي المانيا قد يختار الطالب الكمنجه بدل الجبر أو العوم والسباحة بدلا من الهندسة . ولم لا؟

هذا ولا يمنع من يريد التخصص أن يواصل درس مادة من المواد بتفصيل ، ولكن ما الذي يدفع رجال التعليم أن يكلفوا جميع الطلبة على السواء أن يشربوا كلهم من كأس واحد مزاجه واحد؟

الفصل الثاني

فلسفة المناهج

معنى التعلم

نقول ان هذا الطالب تعلم كذا، فما معنى ذلك؟ معناه ان المتعلم قد يكسب لنفسه طريقاً جديداً يسلكه، وكيف يعرف ان المتعلم كسب طريقاً جديداً يسلكه؟ وجواب ذلك: متى استطاع واراد ان يسلك هذا الطريق في الوقت المناسب، والفرصة المناسبة. مثلاً اذا قلنا ان علياً تعلم الامانة. فعنى هذا القول أن فرصة قد حانت لعلی، كان فيها يستطيع ان يستولى على مال غيره، ولكنه لم يفعل. بل ارجع المال الى صاحبه

كيف نتعلم

اذا كان هذا معنى التعلم. فلنسأل انفسنا الآن هذا السؤال: كيف نتعلم؟ أو بتعبير آخر: كيف نضع المناهج بشرط ان نصل الى النتيجة التي نريدها؟ لنرجع الآن الى فلسفة الاستاذ دكتور وليم كلباترك، الذي تأثر كثيراً بفلسفة معلمه الكبير ديوى، وخطب وكتب والتقى دروساً عالية على اكابر رجال التعليم في اوروبا واميركا والشرق الاقصى، فكان لتعليمه اقوى اثر في بناء المناهج الجديدة المشادة على اسس التربية الحديثة وفلسفتها. يذكر الاستاذ خطوات خمس نصل الى نهايتها الى ذروة التعلم المنشود، وهى:

اولاً — المرن والتدريب. لا يمكن أن نتعلم شيئاً ما لم نتدرب على عمله.

وكما أننا لا نتقن عملاً، ولا نبليح الخلق الكافي فيه ما لم تمرن على عمل التمرين الكافي، كذلك لا يمكننا أن نربي عاطفة أو فضيلة أو فكرة حسنة في نفوسنا، ما لم نأت أعمالاً تستوجب هذه العاطفة، أو هذه الفضيلة، أو هذه الفكرة. ومهما كان المسلك الذي نريد أن نسلكه، حسيماً كان أم معنوياً، فإن المران لا بد منه، إذا أردنا أن يكون هذا المسلك جزءاً منا، أي إذا أردنا أن نتعلم إذاً يجب أن يشمل المنهاج المران على أعمال حسيه، وفضائل وافكار، حتى يتعلمها الطالب كلها بواسطة هذا المران، ولنضرب مثلاً لعمل حسي ولا آخر معنوي. إذا أردت أن تعلم طفلاً الخط أو التهجئة فانك تكلفه التدريب على هذه في خلال الحصص الدراسية، وقد تطلب منه البقاء بعد انصراف اخوانه ساعة أو أكثر حتى يكتسب الخلق المطلوب في كل منهما. ولكن هبك تريد أن تعلمه الصبر أو الامانة أو الرجولة، فهل يفيد مجرد مطالعة أو استظهار ما جاء في كتب الفلاسفة والعلماء؟ وهل يصبح الطفل اميناً بمجرد استظهار آيات مقدسة أو فقرات من كتب الاخلاق؟ وهل إذا عجز عن بلوغ امنية من هذه يكاف البقاء بعد انصراف الآخرين حتى يتعلم الامانة والصبر، كما تعلم الخط بالطريقة عينها؟ وهل يجديه تقياً ان يعين له واجب منزلي في فضيلة الصبر، ويسهر عليه الليالي فيتعوده فيصبح صبوراً؟ وهل في مقدورنا ان نقوى فيه هذه الفضيلة بأعطائه دروساً خصوصية، ونعين له معلماً خاصاً في المنزل؟ الجواب سلبى بالطبع

لنعد الى المبدأ الاصلى، وهو أننا نتعلم بالمران والعمل، لا بشيء آخر.

اذن نعلم الطفل أو الطالب الصبر بواسطة عمل شيء، وتكرار هذا العمل .
 مثال ذلك ان نهى له مصنعا في المدرسة ، وملعباً للكرة ، وخلاية للنحل ،
 وحقلًا لزراعة الزهور والاشجار وتربية الطيور والحيوانات الداجنة، ومعملًا
 للالبان وآخر لصناعة الاثاث أو الاحذية أو الخزف ، ونادياً للتصوير أو
 اللاسلكي أو الكهرباء أو السيارات أو الموسيقى الخ الخ . لنهى له كل هذه
 أو واحدة منها أو أكثر ، ولنوقن انه علاوة على تعلم النقر على البيانو أو
 التوقيع على العود ، أو تربية الفراخ ، أو صناعة الاحذية ، أو تفصيل الثياب
 أو زرع الرياحين والازهار ، أو لعب الكرة ، فانه لابد ان يتعلم الامانة
 والصبر والاشتراك مع الغير ، والصدق وتحمل المشاق وغيرها من الفضائل
 بعضها او كلها . لنفسح المجال لكل (صبي وصبية) حتى يتعلم كل منهما بواسطة
 العمل . فان نظرية مذاكرة الاشياء وحفظها لتعلم الفضائل ، نظرية قديمة
 اتضح بطلانها . لنترك هذه المذاكرة للكبار الذين يريدون التفلسف .
 ولنكثر من العمل في المدارس الابتدائية والثانوية ونقل من الدروس النظرية
 مايلي — الرغبة والعزيمة . اذا اردنا ان نتعلم شيئاً وجب علينا ان نوجه
 عزميتنا الى ذلك الشيء . وقد دلت المشاهدات على انه كلما صحت العزيمة على
 تحصيل شيء سارع ذلك الشيء الينا وامتزج بنفوسنا . وكلما نجحنا في اداء
 عمل ، وقفنا به بكيفية مرضية ، عزمنا على اعادة الكرة عليه . وعملناه مرة أخرى .
 وكلما فشلنا في اداء عمل ، وسبب لنا الاخفاق فيه كدراً ومضايقة ، ضعف فينا
 العزم ، وامتنعنا عن اتيانه مرة أخرى . ولا حاجة بنا الى القول ان الرغبة أصل

العزيمة . ومن هنا نعلم ان مناهجنا ينبغي ان تتخذ الرغبة أساساً لها . والمناهج القديمة التي نراها في كثير من مدارس العالم وخصوصاً مدارسنا المصرية لا تؤكد الرغبة ولا تساعد الطالب على تشديد العزيمة . المناهج الحديثة تنظر الى الاستظهار والوقوف على بعض المعلومات والحقائق ، نظرات ثانوية صغيرة . ولكنها تنظر الى العادة والخطوة والمبدأ والمثل الاعلى والاعجاب وسائر الفضائل التي نريد غرسها في نفوس البنين والبنات ، نظرة اولية كبيرة

ثانياً — الترابط والتداعي . من المبادئ المعروفة في علم النفس اننا اذا شاهدنا او سمعنا شيئين في آن واحد ، فان مشاهدة الواحد في المستقبل يذكرنا بالآخر . فاذا تصادف ان نزل عليك ضيف في الساعة التي علمت فيها انك ربحت مبلغ الف جنيه من ورقة يانصيب ، فأنت تذكر في المستقبل هذا الربح كلما رأيت هذا الضيف ، فتعود الى ذاكرتك هذه الذكرة الحسنة . واذا تصادف زيارة صديق لك في الساعة التي حلت بك فيها كارثة ، تعود الى ذاكرتك ذكريات محزنة ، كلما قابلت هذا الصديق في حياتك وعلى هذا المبدأ ، اذا شاهد التلميذ قطعة من الحديد المثبتة من طرفيها تنكسر بعد تسخينها تسخيناً كافياً ، فهم مبدأ التمدد والانكماش . وكلما سمع أو قرأ هذا المبدأ ، ذكر هذه التجربة البسيطة . وطبيعة المرء ان يحب الشخص او الشيء اللذين يعيدان الى ذهنه ذكر حادثة سارة ، ويكره الاشخاص او الحوادث او الاشياء المرتبطة بواقعة غير سارة . ونذكر من هذه الخطوة ان مناهجنا ينبغي ان توضع بكيفية تجعل للترابط مكاناً هاماً

رابعاً — تعدد الاشياء التي نتعلمها . ان المعارف لا تأتي فرادى . فاذا اردنا ان نتعلم شيئاً فلا بد لنا — رضينا أم لم نرض — ان نتعلم معه شيئاً آخر . ولا بد ان يكون لهذه الخطوة بعض الاتصال بالخطوة السالفة . وقد ضرب لنا كلبارك مثالا في قوله ، ان التلميذ الذي اذا كر قصيدة شعرية لاستظهارها ، يتعلم اثناء المذاكرة وبعد الاستظهار خططا ومبادئ أخرى كثيرة ، حسنة أو قيحة . ذلك لأن هذه المبادئ والخطط كانت بالطبع أثراً لمذاكرة واستظهار تلك القصيدة ، والشعر نفسه ، والمعلم وادارته ، والمدرسة ، ومستقبله ومسائل عقلية ، وغير عقلية معاً . واذا شئنا عدنا هذه الامثلة وذكرنا الاشياء المتفرعة التي يتعلمها الطالب عادة وهو يرسم خريطة جغرافية أو يكتب موضوعاً انشائياً أو يوقع لحناً موسيقياً أو يصنع تابوتاً من الخشب . ولما كانت الخطوتان الثالثة والرابعة على جانب عظيم من الاهمية ، وجب أن تكون المناهج والواجبات المدرسية موضوعة بكيفية تأخذ فيها هذه المبادئ المتعددة مجراها . فإذا سدت على الطالب المسالك ، وازدحمت المناهج وخلت من التنويع ، وضغطت على تفكير التلميذ ، ساءت المبادئ وعرقلت الخطط التي يتعلمها عادة جنباً الى جنب الحساب والرسم والخط والجغرافيا

كيف يصلح التعلم حياتنا

إذا كان التعلم لا يصلح من حياتنا اليومية ، فلا خير فيه . ان المرء يتعلم على الدوام ما دام على قيد الحياة . فهو يتعلم في المدرسة ويتعلم خارجها ، وكل منهما يعمل على تحسين معيشتنا واصلاح حياتنا . والتعليم خارج المدرسة يأتي عادة

بأحدى طريقتين: أما بطريق الترابط (association) الذي يحثناه، وأما بالحيلة عند ما تشتد الحاجة، والمثل المشهور (الحاجة تفتق الحيلة) يشرح لنا هذه الفكرة. يصادف المرء في حياته صعوبات ومسائل، لا بد له من التغلب عليها وحلها، كلها أو بعضها، والا فشل في عمله. وقد تكون هذه الصعوبة ميكانيكية كركوب دراجة، أو بناء حائط أو عبور نهر، وقد تكون عقلية كحل مشكل رياضي أو سياسي أو اجتماعي، وقد تكون وسطاً بينهما

وأهمية هذه الفكرة هي أن الإنسان، أو الطالب، إذا أراد أن يتعلم شيئاً، يفرض وجود مشروع يجب عليه انجازه، أو مشكلاً أو صعوبة أو مسألة عليه حلها. وهذا النوع من التعليم أساس الفكرة الجديدة في وضع المناهج. ولناخذ مثلاً عملياً يشرح لنا هذه النقطة، ولنقتبس هذا المثال من الاستاذ كلبا ترك: —

لنفرض أن مرضعاً أو أمّاً كانت تطعم طفلها بملقعة بضعة أيام أو أسابيع. ولنفرض أن الطفل شرع في استعمال الملقعة للأكل، بغير مساعدة المرضع أو الأم. ولنتبع الخطى التي سار عليها الطفل قبل أن يتعلم الأكل بهذه الملقعة (هذه الخطى منطقية ان لم تكن زمنية): —

(١) يأخذ الطفل على عاتقه أطعام نفسه

(٢) يصادف الطفل صعوبة، ومشكلاً — مسألة جديدة — تنقلب الملقعة بالطعام الذي فيها قبل أن تصل إلى فمه لانه بحسب تعبير علماء النفس «لم يكون

الردود^(١) اللازمة . ولا يستطيع الطفل أن ينجح في إيصال الطعام إلى فمه سالماً ، ما لم تتكون هذه الردود

(٣) يعمد الكرة وتريه أمه خطأ ، فيلاحظ كيف تأكل هي بالملقعة ثم يحاول هو أن يأكل مقلداً إياها ، منتبهاً الى الملقعة والطعام وإلى يده وهو يبحث عن « الرد » response المطلوب

(٤) ولنفرض أخيراً أنه نجح في إيجاد الرد أو الطريقة المطلوبة لنيل بغيته ، ومتى وجدها فأنها تصبح ملكاً له (طوع يديه) فيستعملها عند الحاجة (٥) يجد الطفل أن الصعوبة أو العقبة التي صادفها في رقم ٢ قد زالت ، ومنذ هذه اللحظة يأكل بالملقعة بنفسه

من هذا المثال الواقعي البسيط يتضح لنا جلياً معنى التعلم وأهميته . ومنه نعرف كيف ولماذا يكون التعلم جزءاً من الاختبار في الحياة . يتعلم الطفل المواد الدراسية بإرشاد المعلم ، ولكن من العبث أن يتعلم هذه المواد ، إذا

(١) من المبادئ الأولية في علم النفس ان الانسان يكون عادات وخططاً بالكيفية الآتية : إذا كنت عطشان وشاهدت ماء فانك تهرع الى الماء للشرب فيطلق على الماء اسم المنبه أو الدافع stimulus وعلى الشرب اسم response (الرد أو الاجابة) . وهكذا نجد الأكل والجري والكتابة وركوب الدراجات والرقص واتقان كل عمل يتكون فينا بهذه الكيفية التي تتكون بها كل العادات ، ولذلك يقال ان الانسان حزمة من المنبهات والردود عليها ، ويعبر عنها بالانجليزية كالاتي Man is a bundle of stimuli and response او باختصار هذه العبارة Man is a bundle of S.——R. bonds

حاول المعلم « ادخال الملعقة » في فمه . ومن العيب أن يتعلم اذا لم تكن هذه المواد شطراً من اختبارات واقعية وجزءاً من الحياة.

وجدير بنا بعد هذا التحليل ان نذكر بعض الآراء المستمدة من المثال السالف ، حتى تنجلي لنا حقيقة المناهج والكيفية التي يجب أن تعالج وتستعمل بها

(١) نرى من المثال الذي ضربناه كيف ان كل خطوة عملية الى الأمام في حياة التلميذ تتطلب منه ان يتعلم شيئاً حتى يتقدم . فالطفل في مثالنا لم يستطع ان يحمل الملعقة بالطعام الى فمه ، قبل ان يخطو خطوة الى الامام بواسطة التعلم

(٢) نرى في الحالة التي ذكرناها في رقم ٢ (الاعلى) ان الطفل كان في حاجة حقيقية للتعلم ، وكان التعلم أمراً لازماً له ، لأن العقبة أو المشكلة التي لاقاها ، لم يستطع التغلب عليها بغير هذا التعلم

(٣) من هذا المثال المحسوس تفهم معنى « المذاكرة » و « الدرس » و « التعلم » ومعنى « المواد الدراسية » و « المنهاج » . فعنى المذاكرة والدرس هو المجهود الذي يبذله التلميذ في ايجاد الطريق الذي يجب أن يسلكه حتى ينال أمنيته . والمواد الدراسية هي الأشياء التي وجه التلميذ انتباهه اليها أثناء هذا المجهود . ومعنى التعلم ايجاد الطريق فعلاً ، وتملكه . فالتهجى والحساب والجغرافيا والتاريخ وسائر مواد الدراسة ، متى أراد الطالب أن « يتعلمها » ، وجب اعتبارها طريقاً يريد أن يسلكه ويتملكه

(٤) ان المحك الذي يبين لنا صلاحية المنهاج من عدمه، هو الأثر الذي يتركه المنهاج في نفس الطلبة. فاذا استطاع الطفل مثلاً أن يحمل الملعقة بالطعام الى فمه كان ذلك «المنهاج» صالحاً للسير بمقتضاه، والأول واجب البحث عن عيوبه لا صلاحها (٥) نرى ان الدور الذي لعبته الأم هو عين الدور الذي يلعبه المعلم. وماذا فعلت الأم؟ لاحظت الأم أولاً الزمن الذي أصبح فيه ابنها ميالاً وقادراً على الشروع في الاكل بالملعقة، وانتهزت فرصة هذا الميل وتلك المقدرة لتشجيعه على القيام بهذه المهمة، وربما أتت بعض الحركات التي ساعدت الطفل على الشروع في عمله

والامر الثاني الذي حتم على الام، بحكم وظيفتها، القيام به، هو تمهيد السبل، وتهيئة الظروف التي تساعد الطفل على النجاح، كاختيار الملعقة المناسبة حجماً وشكلاً وطولاً ومعدناً، والطعام المناسب طعماً وميوعة (وربما لوناً) وسخونة وكمية، الخ الخ

والامر الثالث الذي قامت به الام بحكم وظيفتها أيضاً أنها لاحظت خطوات الطفل وسهلت له طرق التعلم بتوجيه التفاته الى الحركات المناسبة وتهنئته كلما أتى حركة ناجحة، وطلبت منه تكرارها (كما يقال للمغنى أعد) ولومه أحياناً الخ الخ. وهذه لعمري وظيفة المعلم في المنهاج الحديث

(٦) نرى أيضاً في مثالنا العلاقة بين اختبار الطفل (experience) وتعلمه. فالملعقة التي استعملها الطفل جزء من اختباراته. فقد شاهد أمه تستعملها قبله، وقد كانت هذه المشاهدة دافعاً له أولاً، ونموذجاً يتبعه ثانياً.

ان الأم لم تلقنه ذلك تلقيناً، بل تركته يحاول أن يتعلم تحت إرشادها، وبذلك تكون الشخصية في الطفل كما نرى في الفقرة التالية

(٧) من هذا الاختبار الجنسي، أو الاختبار الذي ينشأ عن البيئة. يخطو الطفل خطوة بخطوة الى الأمام. تجاه مستقبله. والمهنة التي يمارسها عند اكتماله. وكلما خطا خطوة زاد اعتماداً على ذاته، وقل اعتماده على الغير (المعلم) وتضاعفت شخصيته ووثوقه بنفسه وتحمله المسؤولية، وكلما كبرت الشخصية وتضاعفت المسؤولية، اتسعت دائرة اختبارات وكثرت المسائل التي يفرض عليه حلها في حياته اليومية. وهذه كلها وظيفة المناهج. فهي بمعانيها ومحتوياتها يجب أن تنشأ في أحضان الاختبارات والبيئات وتعين الطفل أو الطالب على السيادة على الحياة

وهناك أمر هام جداً يجب على رجال التعليم ادراكه وهو ان العالم الذي نعيش فيه يفيض بالمسائل والمعضلات والريب والشكوك. وما الفشل والنجاح والخوف والطمأنينة، والشك واليقين، واليأس والرجاء، والقلق والسكون وغيرها من المسائل، الوعة منها والسهلة، سوى احوال ووقائع نواجهها على الدوام، ونفكر ملياً فيها، ونبذل الجهد في تجنبها أو الوصول اليها. وقد نستطيع بهذا التفكير العميق وذلك الجهد المتواصل أن نحول مجرى الامور من الفشل الى النجاح، ومن الخوف الى الطمأنينة، ومن الشك الى اليقين ومن اليأس الى الرجاء، ومن القلق الى السكون، ومن الوعر الى السهل ولما كان الغرض من التعلم كما قلنا سائلاً تحسين الحياة والعمل على اسعادها

وجب على المعلمين أن يتخذوا العدة في مناهجهم وطرق تعليمهم ونظمهم ، حتى يتعلم الطالب كيف يخرج من المأزق ، وكيف ينتقل من الشك الى اليقين ومن اليأس الى الرجاء ، ولو أن هذا الانتقال نسبي لكفى ، لان بلوغ السعادة واليقين والرجاء بأنهم معانيها وأكمل صورها محال في محال . والكمال في الحياة موت ووجود . ومتى علمنا ذلك واصلنا السير تجاه هذا الكمال الذي يشبه السراب . فاذا ألقينا امرأً واقفاً عند حد معلوم ، ظناً منه أنه بلغ الكمال علمنا انه مجنون أو مغرور أو ميت

لنعلم الطالب ان مجال الاختراع والاستكشاف لا حد لاتساعه وان الجهد المتواصل والتفكير والدرس كلها تسير معنا كالظل الى ان نوارى التراب . فاذا وقفنا وقفت ، ومقنا ونحن احياء واذا علمنا فوق ذلك كله ان العالم في تغير وفي تغير مستمر سريع كالبرق ، أيقنا بعظيم مسئوليتنا نحن المعلمين وصعوبة مهنتنا وواجبنا

وهنا نقبس العبارات الآتية تنويراً للذهان : —

قال دكتور فريدريك ويردج في مقال موضوعه « التطور والتعليم »
نشعر بطبيعتنا اننا لا نصلح تماماً لبعض الاوساط التي نعيش فيها ، ولا نستطيع ان نكيف أنفسنا فيها كما يجب وقد أوجدت فينا الطبيعة الرغبة لتكيف أنفسنا حتى نكون أكثر صلاحية لهذه الاوساط ، ولكنها لم تبين لنا الطريق لبلوغ هذه الغاية بل تركتنا نجد في إيجادها . وقد يكون هذا غريباً ولكن

هذا حقيقة هو موقفنا ازاء الطبيعة ، ومع اننا نعتمد في وجودنا على الطبيعة ،
ألا أن هذا الوجود يقف على جدنا وبحثنا . ينبغي ان تستكشف قوى
الطبيعة أولاً ثم نستعملها . وبتعبير آخر يجب ان نذهب للمدرسة — تطلب العلم
يبحث على المرء ان يبحث عن نوع العالم الذي يعيش فيه ما دام هذا العالم
سبب وجوده . ولا يتسنى للمرء ان يحيا الحياة التي يريد ، ما لم يتغلب على
الطبيعة ، ولا يتسنى له ان يتغلب عليها بغير ان يتعلم كيف يفعل ذلك ، ومعنى
هذا انه يجب عليه ان يذهب الى المدرسة ويبحث بابتائه الى المدرسة جيلاً بعد جيل
ان التطور (بحسب نظرية داروين واتباعه) قد منحنا حياة ، غير ان
التربية قد منحتنا نوع الحياة التي تميزنا كبشر ، وما نريد ان نشير اليه
في هذا المعنى اننا لم نصل الى ما نحن عليه بفضل القوى الطبيعية وفعلها بل
باستكشاف هذه القوى واستخدامها ، ولم نصل الى ما نحن عليه بفعل التطور
بل بتأثير التربية . واذا قلنا ان التطور طبعى ، يجب ان نقول ان الطبيعة اصطناعية

وبينما التربية فن فهي ليست من الكماليات بل من الضروريات ، وليست
هي زينة أو حلة ، بل نظام . وهي النظام الذي بمقتضاه نحفظ بما استكشفناه
من الطبيعة عاماً بعد عام ، ونجعل العلم قائماً مستمراً
المدارس هي أغرب الاشياء في هذا العالم . انها احتجاجات ضد الطبيعة ،
فالمدارس ترفض أن تدع الطبيعة تفعل ما تشاء لانها لا تتوسم فيها (الطبيعة)
الكفاية للعناية بالجنس البشرى . وقال دكتور وليم رسل مدير كلية المعلمين
في نيويورك ما يأتى : —

نظام التعليم في أي بلد كان لا تقوم له قائمة ما لم يسد حاجات الجماعة التي يعمل فيها، وما لم يأت بالغاية التي تنشدها هذه الجماعة . ففي نظام القبائل في العصور المظلمة ، كان افراد القبيلة يتوسلون بالطرق والوسائل التي يتسنى بواسطتها لبنيتهم وبناتهم ان يشبوا رجالا ونساء قادرين على تكيف انفسهم تكيفاً تاماً حتى يصبحوا صالحين للبيئة التي تعيش فيها القبيلة

وقد ابتدعت روسيا منذ مائة عام نظاماً للتعليم ، بواسطته خرجت في نوعين من المدارس فيه ، طائفتين من الناس ، وهما طائفة الزعماء ، وطائفة الأتباع . وقد جاء خريجو هذين النوعين من معاهد التعليم كما شاءت روسيا وشاء القابضون على زمام الحكم فيها

وتدل التغيرات الحديثة في النظم التعليمية في روسيا البلشفية، وإيطاليا، وبلغاريا، ان التغيير في المبادئ والأغراض القومية ، يتبعه تغيير في النظم المدرسية . ولا ينحصر هذا التغيير في المواد الدراسية التي يتلقاها التلاميذ ، بل يشمل طرق التعليم وروحه وسياسته . وبالأخص ان كل مظهر من مظاهر التربية يجب ان يتكيف تكيفاً يناسب المبدأ القومي وسياسته

وهذا للأسف ما نراه في نظم التعليم في كثير من البلدان ويجدر بنا ان نذكر هنا شيئاً عن المركزية وتأثيرها في هذه النظم : —

وجد في اوروبا تقسيم لنظام الادارة في التعليم ما لا يتسنى للمرء ان يفهمه أو يجد له مبرراً . ففي كتب الدراسة والكراسات والقوانين الادارية للتعليم نجد اشارة الى ادارة المدارس الداخلية externa وادارة المدارس الخارجية

interna. فالادارة الداخلية تبحث في مواد الدراسة، وطريقة التعليم، واعداد المعلمين، وحياة المدرسة وروحها وخطتها. أما الادارة الخارجية فتشرف على حضور الطلبة، والعناية بأما كتبهم، وبنظافة المباني المدرسية ولياقتها للعمل، والمحافظة على صحة التلاميذ، وتوفير المرتبات للمعلمين، واعداد الاجهزة والأثاثات اللازمة

فالطباشير الذي يكتب به الطلبة^(١) والمعلمون من اعمال الادارة الخارجية وما يكتب بهذا الطباشير من اعمال الادارة الداخلية، والنظارات التي توزع على الاطفال الذين يحتاجون اليها، من اعمال الادارة الخارجية. ولكن ما يقرأه الطفل من اعمال الادارة الداخلية. خروج الطلبة الى الحقول والحدائق لدرس النبات من اختصاص الادارة الداخلية، وحمل الوقود للتدفئة بواسطة الخدم (الفراشين) من اختصاص الادارة الخارجية. فالناحية المادية من التعلم « خارجية » والناحية الروحية والعقلية « داخلية »

وهذا التقسيم معمول به في اوربا الى درجة عظيمة، حتى ان لكل قسم من هذين القسمين موظفيه، والوحدات الحكومية التي تشرف على أحد القسمين غير التي تشرف على الآخر ونجد في فرنسا وانجلترا مثيلين واضحين لهذا التقسيم. ففي فرنسا تشرف

(١) في اميركا يستعمل الطلبة الطباشير على الدوام لان السبورات معلقة على جدران حجرات الدراسة كلها طولا وعرضا، بعكس ما هو في مصر فان الطباشير والسبورة من اختصاص المعلمين

باريس على « الداخلية » وتشرف السلطات المحلية (كمجالس المديريات مثلاً) على « الخارجية » ولو أن أشرف هذه السلطات المحلية ينقص تدريجاً عاماً بمد عام . ووزير المعارف العمومية في فرنسا له الكلمة العليا في تقرير الكتب ووضع المناهج . وتصدر الأوامر من مكتبه بقوة القانون . وأعداد المعلمين ، وجميع رجال التعليم ، وتعيينهم وترقيتهم ، من اختصاص الوزير دون سواه . وحتى الأوامر التأديبية والأعمال الخاصة بالخفلات المدرسية الاجتماعية تصدر ممهورة بتوقيعه

أما المديريات أو الأقاليم (les departements) والمراكز (les communes) فلها سلطة تشييد المباني المدرسية ، وتعيين الخدم ، ومراقبة حضور الطلبة وغيابهم ، واختيار الأطباء والمدرسين ، وأعداد المنازل والأحياء لسكنى المعلمين ، وتجميل الملاعب والبنائات المدرسية على اختلاف أنواعها . فالسلطة المحلية إذاً لا تقرر المواد التي يتلقاها المتعلمون ، ، ولكنها تمهد لهم الوسائل المادية التي يتسنى لهم بواسطتها أن يتعلموا

ويتضح مما سبق أن نظام التعليم في فرنسا مركزي لدرجة عظيمة (highly centralized) ، ولكن يظهر جلياً أيضاً أن هذا النظام مركزي من ناحية ولا مركزي (decentralized) من ناحية أخرى

أما في إنجلترا فنجد العكس تماماً تقريباً . فهناك تشرف القرية أو المركز أو الأقليم على إدارة التعليم الداخليه (interna) ، بواسطة لجنة التعليم أو مجلسه في إحدى هذه الوحدات الثلاث . فلا سلطة لأي كان في لندن أن يملأ مواد

التعليم على هذه المجالس المحلية ، ولا أن يقترح تعيين المعلمين أو طرق التعليم .
فهذه كلها من أعمال المجالس ، وكثيراً ما تترك هذه المجالس الحرية للوحدات
التي أصغر منها ، لتقرير هذه المسائل بنفسها ، وقد تكون هذه الوحدات
الصغيرة المدرسة عينها . أى أن المدرسة هي التي تقرر المناهج وتعين المدرسين
وترسم خطة التعليم بغير أن تتدخل في اعمالها اية سلطة اخرى

فالإنجليز يؤمن بالحرية ولو أن سكرتير مجلس التعليم في إنجلترا ، الذي
تقابل وظيفته ووزير المعارف خارج إنجلترا ، هو أحد رجال الحكومة .
ويدفع البرلمان الإنجليزى من خزينة الدولة أكثر من نصف نفقات التعليم .
ومجلس التعليم كثير من السلطة في الإشراف على طول السنة الدراسية
وحضور التلاميذ والمباني والأقسام الداخلية والتربية البدنية . أما فيما يتعلق
بالإدارة الداخلية فليس للمجلس الا تقديم الاقتراحات . غير ان هذه
الاقتراحات تكون عادة نتيجة أبحاث علمية دقيقة ، وقد تكون هذه
الأبحاث معترفاً بها من الأخصائيين في التربية في أنحاء العالم . وفي هذه الحالة
تكون موضع عناية وحدات التعليم الصغيرة . وهذا النظام كما يتبين مما
سلف ، نظام لا مركزى ، ومع ذلك فهو غير مركزى من بعض النواحي
ومركزى من ناحية اخرى

ويقول كلباترك متقدماً المناهج وغرض التعليم ما يأتى : —

كان الاعتقاد في الماضي ان معنى أن « تتعلم » ان تقبل كل ما يلقنه المعلم
وتثبته في ذهننا ، لان كل ما تلقنه المدرسة نسلم به . وكان معنى « المذاكرة »

درس « الواجب المعين » ومعنى النجاح الوقوف على مطولات « المقرر »
أما اليوم فقد أصبح معنى هذه العبارات غير ما كان عليه بالأمس
« فالدرس » و « المذاكرة » و « التعلم » كلها تفيد العمل والأقدام الشخصى .
ومعنى هذا ان الطالب يجب أن يعمل شيئاً حتى يتعلم . وليس الطفل عاطلاً
(passive) حتى يقبل كل ما يقال له ويعطى له . كلاً ، بل هو عامل ولا يتعلم
إلا بالعمل . وإذا كان تعريف الذكاء الميل والمقدرة على استعمال معان حاضرة
موجودة ، للحصول على معان أكثر منها ، واستعمال هذه المعانى الجديدة ،
فان الدرس والتعلم يتطلبان هذا النوع من الذكاء . ولما كانت عملية الحياة
مستمرة ، غير منقطعة ، كانت الحاجة الى العمل والتعلم مستمرة أيضاً . ويفهم
من هذا أن فى مدارسنا ينبغى ألا نخاف أن ينسى الطلبة ما يتعلمونه ، لان
الطلبة يتعلمون شيئاً عند ظهور الحاجة الى تعلم هذا الشيء ، وبمعنى آخر انهم
يعملون ويتعلمون فى وقت واحد . يعلقون المعانى فى أذهانهم ، فى الوقت
الذى فيه يكتسبون مهارة وحذقاً فى العمل الذى يقومون به . فالتمرين
والتدريب والاستظهار ومثل هذه الاشياء التى اتصفت بها المدارس العتيقة
لا معنى لها ، لأنها لم تأت للتلميذ سداً لحاجة معلومة . وقد كان هذا
الاستظهار ضرباً من الاستعباد ، لأنه يفرض على الطفل « حفظ » أشياء لا
علاقة لها بعمل يطلب منه أدائه

فالطفل لا يمكن تعليمه الأمانة بمجرد مذاكرة واستظهار وفهم بعض
سطور عن الأمانة . أن الطريقة المنتجة هى إيجاد حالة يعيش فيها الطالب

حتى يختبر الأمانة عملياً . وهكذا إذا تتبعنا الفضائل كلها ، لا نجد طريقة لتثبيتها في عقل الطالب وقلبه بغير أن تخلق له جواً يعيش فيه ويمارس فيه هذه الفضائل . (لذلك تكثر المدارس من الأندية والجماعات والأعمال اليدوية والصناعات والتربية البدنية ، لأن في هذه كلها يتعلم الطلبة الأعجاب والتواضع وحب العمل والتعاون والأمانة والصدق والشرف الخ)

جميع الميادين الحديثة في التعليم تريدنا اعتقاداً على أن التربية نمو مستمر لا يقف عند حد ولا ينتهي الا بانتقال المتعلم من الحياة الدنيا . لقد كان الرأي الشائع ، الذي كان لا يحتمل شكاً ولا يقبل جدالاً ، أن الطفولة أصلح أطوار الحياة للتعليم ، ان لم تكن الطور الوحيد الذي يستطيع المرء فيه أن يتعلم ، غير أن الاستاذ المربي الكبير ، دكتور ثورن دايك أستاذ علم النفس وصاحب أكثر من سبعين مؤلفاً ، برهن بتجارب علمية واسعة النطاق ، وبأدلة وحجج واقعية لا تحتمل مناقشة ، نتيجة مباحث طويلة استغرقت عشرات السنين ، وامتدت الى الوف الناس من جميع الطبقات ، أن التعلم في الكبر أكثر امكاناً مما كان يظن

واتضح ، علاوة على ذلك ، أن المقدرة على التعلم تأخذ في الزيادة والنمو في الطفل إلى أن يبلغ الثانية والعشرين من عمره . وفي هذه السن تصل هذه المقدرة الى قمة السلم ، ثم تستمر كذلك خمس سنوات ، وبعد ذلك تنحط بحساب ١ ٪ (واحد في المئة) في كل عام . وعلى هذا الأساس تكون مقدرة الرجل على التعلم في سن ٣٧ معادلة لمقدرة ابنه الذي في سن العشرين (٢٠ سنة)

ومقدرة الشيخ على التعلم في سن الستين تعادل مقدرة ابنه في سن الرابعة عشر
ولكن يجب ألا ننسى ان هذه المقدرة المشار اليها هي المقدرة
السيكولوجية المجردة . فاذا أضفنا الى هذه المقدرة المجردة ما يمتاز به الكبار
والشيوخ من الدراية الواسعة ، والاختبار الطويل ، والمعارف العديدة ،
والآراء الناضجة الواضحة ، جاز لنا أن نقول ان مقدرة الكبير على التعلم
أكبر منها في الصغير

يظهر ان الناس كانوا يتوهمون في جميع العصور ان مدينة عصرهم ثابتة
غير قابلة للزوال او التغيير . ولا يزال الكثيرون يعتقدون ان مدينتنا باقية
على ما هي عليه اليوم ، الى ما شاء الله ، ولن يطرأ عليها تغيير . وعلى أساس
هذا الوهم وضعنا نظم التعليم ، من تقدير درجات ووضع امتحانات ، وتقرير
مناهج وتعيين دروس ، وتسميع واجبات ومحفوظات ، واستعمال كتب معلومة
الى ما غير ذلك . وقد نجم عن هذا الوهم تناقض في آراء التعليم . وكيف
يكون اصحاب هذه الأوهام متفقيين في آرائهم ، وقد بنوها على أن المدينة
كتلة غير متحركة ، وأن المستقبل كمية ثابتة معلومة ؟ وكيف لا نتنظر تناقضاً
والعالم أمامنا في تغيير مستمر ، ونظريتهم باقية كما كانت ، لا تتحرك ولا تخطو
خطوة واحدة ؟ ان المدينة الثابتة لا مكان لها في عالم الوجود ، ولن تكون
كذلك يوماً ما . فكيف إذا نشيد نظم التعليم ثابتة والعالم الذي نحن فيه متحرك
والمدينة دائماً التغيير ؟ كان الاعتقاد منذ مئة عام ان التربية وسيلة للمحافظة على
الماضي ، غير أن الفكرة السائدة اليوم انها فوق ذلك وسيلة لتحسين المستقبل .

الفصل الثالث

مصير الشاب المصرى

ونظم التعليم الحاضرة

قد يخيّل إلى القارىء لأول وهلة أن الموضوع تشويه المبالغة ، فيقول وما علاقة النظام المدرسى بمصير الشاب ، وما الرابطة بين نوع التعليم ، ومستقبل بنينا وبناتنا ؟ أليس مستقبل الشاب المصرى مقروناً بمنابع الثروة فى البلاد ، وبعدد الوظائف فى المصالح الاميرية والأهلية ، وبعدد الافدنة المنزرعة والقابلة للزراعة ، وبقابلية البلد للحرف والمهن والصناعات وبرءوس الاموال التى يمكن استغلالها فى ادارة المتاجر والبنوك والشركات ، وتوافر المرافق الاقتصادية فى جميع فواحيها ووجوهها وابوابها ؟؟

وقد يقول اولئك الذين يكون الامور جميعها ، مادية وأدبية ، حسية ومعنوية ، الى قوة غير منظورة ، ألا يقف مستقبل الشاب على ما قسمت له الاقدار يوم ولادته ، وعلى ما كتب له الزمان فى جبينه ؟

فى هذا كله ، (ما عدا الاخير) الكثير من الحقيقة . فأن مستقبل الشاب المصرى مرتبط بشيئين رئيسيين . اولهما الوراثة البيولوجية والثانى الوراثة الاجتماعية . ومعنى الوراثة البيولوجية ، هو ما يرثه الشاب من والديه وأجداده واجداد أجداده من الذكاء والغرائز والميول والنزعات الوجدانية . والذكاء كتلة ثابتة فى الطفل ، يولد بها ، وتنمو فيه ، ويتشرب بها جسمه ودمه ولا حول لنا ولا قوة على تغييرها . فأذا ولد الطفل متوقد الذكاء . مشتعل

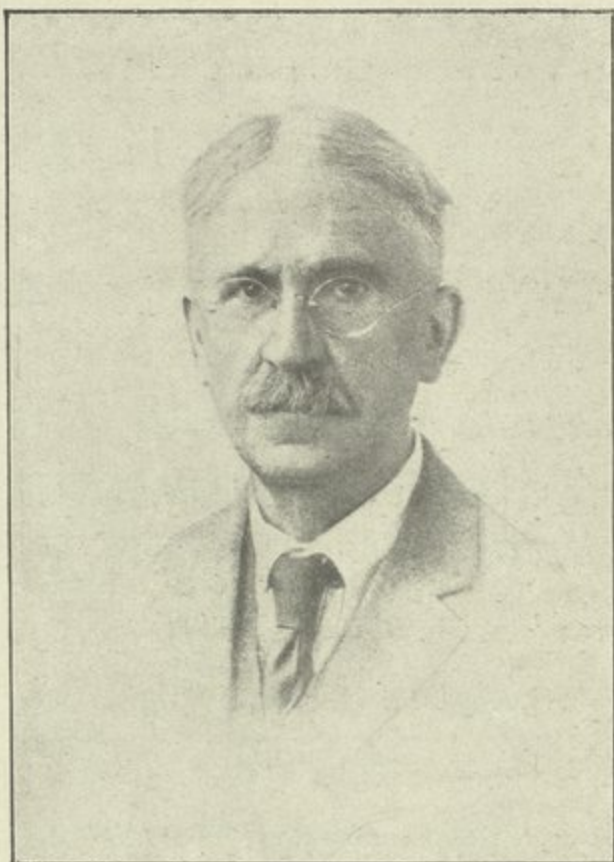
القريحة . حاد الذهن . موفور الكفاية أو وسطاً في هذه كلها . حمد الله على ما ورثته له أسلافه من العنصر الكريم والفرع الطيب . وأذا ولد خامل الذاكرة ، ضعيف الذكاء (أو دميم الطلعة ، ناحل الجسم ، معدوم القوة البدنية) ردد لسان حاله : هذا جناه أبي علي ، فأذا لم يكن له ولد قال ايضاً ، وما جنيت على احد

هذا فيما يختص بالوراثة البيولوجية ، أما الوراثة الاجتماعية فهي ما يؤثر في الطفل من مدرسة وحكومة وقانون وتشريع وأدب ودين ، ومسرح وملهى وسينما واغانى وتماثيل وصور — وبعبارة أخرى هي البيئة أو الوسط ، وهذه لحسن الحظ في مقدورنا ان نغيرها او نعدلها ونصلحها ، وبهذا نكيف هذا النوع من الوراثة في الطفل أو الشاب بما يعينه على شق الطريق نحو مصيره أو مستقبله

وزيادة للإيضاح اقول ان مصير الشاب مرتبط اولاً بداخله ، بطبيعته بالمواد الخام التي يتركب منها جسمه وعقله وتقسه ، ومرتبط ثانياً بخارجه بالبيئة أو الوسط . أما الاولى فهي كتلة عرفت بعجز العقل عن تغييرها ، فلا يمكن الدنومنها لانها كتلة معلومة وأما الثانية ففي يدنا اصلاحها وبذا يصلح مصير الشاب . ولا ينكر أحد أن المدرسة اكبر العوامل التي تستطيع أن تشيد البيئة أو تدك معالمها وتحديث فيها ثورة وانقلاباً .

وقد قال الفيلسوف إراسموس Erasmus مرة : « سلم الى إدارة التعليم وانا اتعهد اليك قلب العالم »

Handwritten text in Arabic script, likely a library stamp or title, centered on the page.



الاستاذ دكتور جون ديوى الذى يعد الآن اكبر
رجال التعليم والفلسفة الذى نسجت على
مبادئه اكبر معاهد العلم واكثرها
تقدماً فى جميع انحاء العالم

وقال العلامة جون ديوي John Dewey في مؤلفه «المبادئ الأخلاقية في التربية» «إذا استثنينا الدولة فإن المدرسة أكبر هيئة في مقدورها تغيير النظام الاجتماعي اليوم»

وقال بسمارك السياسي الألماني الكبير :

«ان الرجل الذي يدير المدرسة ، يقبض على مستقبل الأمة بأسرها ، ويدير دفعة البلاد — كذلك وظيفة وزير المعارف»

ومما يرهن على أن كل سياسة لا بد أن تكييفها المدرسة وتؤثر فيها نظم التعليم ، ان ملوك أوروبا وحكامها الذين كانوا يستأثرون بالسلطة فيها ، قبل انتشار الاحكام السياسية الدستورية ، كانوا يدركون أهمية هذا التأثير ، فكانوا يستخدمون التعليم وسيلة لتنفيذ برامجهم السياسية والحربية ، وكانوا يسخرون المدرسة في سبيل أغراضهم الشخصية ، وما ربهم الذاتية ومطامعهم الأشعية ، مع كراهتهم للتعليم ومقتهم للمدارس فقد جاء في مؤلف

L'Enseignement Supérieur en France لوضعه Liard ان حكومة نابوليون لم تترك شاردة أو واردة ، كبيرة أو صغيرة ، الا ورسمت خطتها للمعلم . حتى أن استاذ القانون مثلاً ، كان يسير على منهاج موضوع ، يرشده الى تدريس مادة كذا في ساعة كذا من يوم كذا ، بغير أن يحيد قيد شعرة وقد وضع نابوليون قانوناً يستظهره طلبة مدارس فرنسا ، سماه اصول الايمان النابوليوني (Catechism de Napoleon) كاصول الايمان الديني الذي

تتعلمه طلبة المدارس الفرنسية) في صورة اسئلة وجوابات ، هذا بعض ما جاء فيه : —

س — ما واجبات المسيحي نحو الحكام خصوصاً نابليون الاول ؟
ج — واجبات المسيحي نحو الحكام خصوصاً امبراطورنا المبجل ،
الحب والاحترام ، والطاعة والامانة ، ودفع الضرائب والخدمة العسكرية
(وهنا بيت القصيد) دفاعاً عن الامبراطور وعرشه المبجل ، كذلك الصلاة
الحارة والدعاء لاطالة حياته

س — ولماذا نحن مدينون بهذه الواجبات
ج — لأن الله أودع في نابليون الأول القوات والمواهب ، في السلم
والحرب ، جعله وكيلاً له ، وخلق على صورته تعالى ، ولأن المسيح بتعاليمه
وأفعاله ، دفع الجزية لأغسطس قيصر ، وقال اعطوا ما لقيصر لقيصر وماله لله
(والغريب أن كبار الساسة والقابضين على زمام السلطة في البلاد في
جميع العصور كثيراً ما يعمد بعضهم الى اتخاذ الدين سلاحاً للدفاع به عن
حقوقهم فيكسبون اصواتهم رنة دينية عند الزوم ، ويطلون اقوالهم بمسحة
دينية كما ينتفون ، ويصبغون منشوراتهم السياسية بصبغة دينية عند الزوم ،
تمويهاً للبسطاء ، وحجاً في استمالة السواد الاعظم الجاهل اليهم)

س — وما قولنا في من يخالف اوامر نابليون ؟

ج — كما قال بولس الرسول : هؤلاء يخالفون الاوامر التي وضعها الله
ولذلك هم جديرون بلعنات الله

وكان قياصرة الروس وامبراطرة الالمان يخشون المدارس ، لأنها تنير عقول الأفراد ، فتحسن حالهم ، ويرتقى مستوى العيش بينهم . فقد كتب وزير روسيا سنة ١٨٢٤ فى منشور له ما يأتى : — العلم نافع فقط اذا كان كملح الطعام ، يؤخذ منه كميات قليلة جداً ، فادازاد التعلم وكثرتنور انقلب الى ضده . ان تعلم القراءة والكتابة للجميع خطر عظيم على الدولة

وكانت المدارس فى عهد غليوم الثانى وصاحب الأيادى البيضاء على الحرب العالمية الكبرى ، تنتشر رغم ألقه ، مع شدة بأسه وعظم سطوته ونفوذه ، ولكنه كان يصرح مراراً أن الديموقراطية فى التعليم مخالفة لأوامر الله ، ومناقضة لمبادئ الدين والمسيحية

حتى فى اميركا ، بلاد الحرية والمساواة ، كان من ييدهم الحل والعقد ، يخافون تحول مصير الأفراد من جراء التعليم المشادة نظمه على المبادئ الصحيحة ، فقد كانت جامعة هارفرد منذ مائة عام فقط ، تنشر أسماء طلبتها الناجحين ، لا بنسبة درجاتهم فى الامتحان ، بل بنسبة ثروة والديهم ومنزلتهم الاجتماعية . ولكنها كانت حينئذ فى عهد الانحطاط . فقد جاء فى تاريخ هذه الجامعة ، التى تعد من الطبقة الاولى بين جامعات العالم اليوم ، ما يأتى :- كان الطالب الذى يخالف أوامر الجامعة ، يؤدب علناً فى احتفال جمع بين الرسميات والمهازل . كان يركع الطالب المذنب على منصة ، وينهال عليه معلم (أو جلاد على الأصح) بالضرب . وفى هذه الفترة المؤلمة ، يقوم رئيس

الجامعة بالصلاة والدعاء لله ، ويداه مرفوعتان فوق رأس المذنب ، كسيف
الجلاد . ويختتم الاحتفال بصلاة أخرى مناسبة للمقام
من يصدق أن أميركا ، أحدث بلاد العالم نظاماً وتعليماً اليوم ، كانت
كذلك بالأمس ؟

ان النهضة الصناعية والاقتصادية والمالية التي أدهشت أميركا بها العالم في
خلال ال ٢٥ سنة المنصرمة ، هي وليدة نظم التعليم الحديثة . لا ينكر أحد
ان جزءاً يذكّر من نجاحها العالمى يعزى الى اتساع نطاقها ومنابع الثروة فيها ،
غير أن كبار ساستها وعلمائها وفلاسفتها ، قد أجمعوا على أن نجاح شبانهم
وشاباتهم ، في معترك الحياة — في الاختراع والاكتشاف ، في حشد الثروة
والتمتع في نعيم العيش ومطاييه — يرجع معظمه ، أن لم يكن كله ، الى نظم
التعليم الملائمة للبيئة والحياة العملية ، وفتح ابواب العلم لكل قادر نابه ، وتمهيد
الغرض للجميع بالمساواة والديموقراطية ، حتى يتاح لكل اميركى أن
يرقى من حالة الفقر والفاقة الى رآسة الجمهورية

الفصل الرابع

التعليم النظرى

لننتقل الآن الى جوهر الموضوع . ما مصير الشاب المصرى فى ظل
النظم الحاضرة فى التعليم ؟ وتوصلا للاجابة عن هذا السؤال ينبغى ان ندرس
المواد التى يستوعبها الطالب فى مدارسنا ، او بعبارة أصح ، نحاول استيعابها ،
ثم نقارنها بمثلها فى مدارس اوروبا واميركا ، مستعينين فى ذلك باحدث الآراء
فى التعليم ، تلك الآراء التى لم تأت بطريق المصادفة بل جاءت بعد تجارب
عملية فى خلال عدة سنوات مضت ، خصوصاً ال ٢٥ سنة الماضية وعلى
الاخص بعد الحرب العظمى التى فتحت الأذهان والبصائر الى مسائل عدة
فى الطب والهندسة والكهرباء والفلسفة الحديثة وعلم الاجتماع والسياسة
الحديثة وعلاقة الامم بعضها ببعض ، وفوق ذلك التربية . ولا بد لى أن أقول
هنا أن اميركا والمانيا والدانمرك والسويد والنرويج (وروسيا اخيراً) كان
لها القدح المعلى والايدى البيضاء فى اتفاق ملايين الجنيهات واستخدام
ملايين الطلبة والمعلمين فى اجراء التجارب العلمية العملية التى بنيت عليها
النظريات الحديثة فى التعليم ، والتى ظهر على أثرها علم النفس التعليمى ^(١) وعلم
الاجتماع التعليمى وفلسفة التعليم ^(٢) وطرق التعليم ، والادارة ، واختبارات الذكاء ،
وارشاد المتعلمين الى المهنة التى ينبغى أن يتخيروها ^(٣) وخص العيوب البدنية

Philosophy of Education (٢) Educational Psychology (١)
vocational guidance (٣)

والعقلية في التلاميذ الشاذين ^(١) أو المجرمين الاحداث ^(٢) أو الاطفال المستعصين ^(٣)

ولا نشك لحظة ان حكومتنا المصرية التي تقوم بأعباء التعليم في البلاد، تنوء تحت اعباء السياسة والجهاد في سبيل الوطن، خصوصاً في الفترة الاخيرة، فترة الانتقال والنمو. وليس من الحكمة ان نوجه اليها عبارات اللوم والتنديد، وهي تخطو خطوات بطيئة نحو الطريق المستقيم في تعليم النشء وتتمس الحقائق في الظامء، وذلك لان النظريات الحديثة في التعليم لم تعم اوروبا كلها وعلى الأخص فرنسا وانجلترا اللتين أخذنا عنهما نظمنا التعليمية، وهما لا تزالان محتفظتين بنظمهما القديمة في التربية، متأخرتين عن المانيا واميركا وروسيا والبلاد الاسكندنافية

ان التعليم في بلادنا كما هو عليه اليوم، لا يبشر بمستقبل باهر لشيبتنا، ولا ينبغي بفأل حسن للاسباب الآتية : —

اولا — لان التعليم في مدارسنا نظري علمي تحت (Academic) ووضعه على هذه الصورة يفرض ان خريجي مدارسنا، أما أن يواصلوا دروسهم الى نهاية المدارس العالية، فيتبوءون مراكزهم في عالم الطب أو الهندسة أو القانون، وأما ان يتوظفوا في مصالح اميرية أو اهلية، يقومون باعمال كتابية. وإذا قيل ان لنا مدارس صناعية وتجارية، أجت ان هذه ايضاً غير

Problem Children. Les enfants difficiles (٢) Abnormal children (١)
Delinquent children (٣)

عملية من جهة ، وغير كافية من جهة أخرى ، كما سيتضح من بحثنا
 أن معنى قولنا أن المدارس ينبغي أن تكون عملية ، هو أن تتخلل
 الأعمال والصناعات الدروس النظرية في مدارسنا الابتدائية والثانوية . معنى
 هذا أن يخرج التلميذ من حصة الجغرافيا إلى ورشة النجارة ، وينتقل آخر
 من حصة الحساب إلى آلات الطباعة ، وغيره من درس اللغة العربية أو
 الإنجليزية إلى مصنع البرادة والحدادة وسبك المعادن ، ومد الأسلاك ،
 وتركيب المصابيح الكهربائية ، وصنع الآثاث ، وتجليد الكتب ، وزرع
 الحدائق وغراسة الأشجار ، وتربية الطيور الداجنة والحيوانات النافعة .
 معنى هذا أن تخرج البنت من حجرة الدراسة المعتادة إلى المطبخ لطهي
 الطعام وصنع الحلوى ، أو تنظيف الغرف وغسل الثياب وترتيب الآثاث
 المنزل ، وصنع الألبان وتفصيل الملابس وخياطتها وكى الثياب ورتقها
 وبهذه الكيفية تظهر لنا مواهب الأطفال منذ نعومة أظفارهم ،
 وتعرف ميولهم واتجاهاتهم ووجوه الضعف والقوة فيهم . وبهذه المثابة أيضاً
 نفقد الصبي الذي لا يميل إلى الرياضة مثلاً ، من محالها ونستعيبها بصناعة يدوية
 تتجه مواهبه الطبيعية إليها . وبهذه الكيفية نحجب إلى الشاب المصرى الأعمال
 اليدوية ونعلمه كيف يحترمها ويحجلها ، فينزل الفتى إلى ميدان الأعمال ، من تفليح
 الأرض وحمل الأثقال واستخدام المطرقة والسندان ، وإصلاح الآلات بغير
 أن يشعر بمهانة في عزته ، أو غش من كرامته — وتشر الفتاة عن ساعديها
 فتطهو الطعام وتخييط الثياب وتغسل الملابس وتكنس الغرف وتقوم بخدمة

منزلها وزوجها وأولادها ، بغير ان تشعر بشيء من العار أو الخجل بل تفاخر
 كالاميركية والاوروبية بعظمة العمل ، وتباهى بشرف العمل التي يتغنى به
 الاميركيون ، والتي لا نعرف له معنى في الشرق . فالمصري مثلاً يترفع ان
 يعمل عملاً يدوياً . ويتهافت على الاعمال الكتابية في المصالح الاميرية
 والأهلية . مهما كانت مرتبتها ضئيلة . جبا في « الياقات البيضاء » . وذلك
 الكاتب البسيط المغرور الذي قد لا يتجاوز دخله الشهري خمسة جنيهات . يتعنف
 أن يحمل بين يديه بطيخة بعد شرائها ، فيستأجر له غلاماً لتوصيلها الى منزله . وفي
 اميركا تغسل امرأة الوزير في كثير من الاحوال ثيابها بيديها ، وكان والد
 الرئيس هاردينج يشتري الخضر من البقال بنفسه . ونجد بنت صاحب الملايين
 هناك لا تتورع ان تشتغل في مطعم كاتبة أو خادمة تحمل الاطباق على يديها
 جبا في الاستقلال الاقتصادي . تجد ستين في المائة من طلبة المانيا واميركا في
 الجامعات والكليات يعولون أنفسهم ، فيعملون نصف الوقت في تنظيف الغرف
 وكي الملابس وقطف الزهور والأتمار وفلاحة الارض . والنصف الآخر
 يخصص للدرس . وفي المانيا تشتغل الفتيات من الأسر المتوسطة خادمت في
 المنازل باسم House daughters أى بنات البيوت ونحن تفاخر أن نعول
 جيشاً من النساء في بيوتنا . ولا نسمح لهن حتى باحتراف مهنة التعليم
 ولا بد أن القارئ يتساءل . كيف يتسنى للطالب ان يقوم بالأعمال
 اليدوية فوق اعماله الاخرى النظرية . والجواب سأذكره في نقطة أخرى

ولكن لا جرم من أن أقول أن المدارس الحديثة اليوم تقلل من المواد النظرية لكي تجمع بين الدروس النظرية والعملية بغير أرهاق .

وحتى تتكون لدينا فكرة صائبة ، عن هذا النوع من المدرسة أضع صورة كروكية لمدرسة حديثة — ولتكن هذه المدرسة أميركية ثانوية — ولتكن من المعاهد التي رأيتها بعيني ودونت ملحوظاتي عنها أثناء وجودي فيها ذهبت يوماً مع خمسين طالباً أجنبياً من جميع ممالك الأرض تقريباً ، يصحبنا أستاذ من كلية المعلمين في جامعة كلومبيا في نيويورك إلى معهد في ولاية فرجينيا . وقد حمل كل منا حقيبة السفر لأننا قصدنا البقاء في ذلك المعهد أسبوعاً كاملاً ، ننام في غرف أعدت لنا خصيصاً ونأكل على موائده ونشاهد نظم التعليم فيه . فماذا شاهدنا هناك ؟

شاهدنا معهداً ، بل قرية نائية عن غيرها من القرى ، وهي قرية جميلة قائمة وسط المزارع والحقول والأشجار . وهي مستقلة استقلالاً اقتصادياً ، أي أنها تعتمد في ما تحتاج إليه من الماء كل والمشرّب وسائر لوازم العيش ، على ما تنبت أراضيتها ، وما يؤديه طلبتها ، ذكوراً وأنثاء ، من الأعمال ، وما يحترفونه من المهن والصناعات . تبلغ مساحة أرض هذا المعهد أو هذه القرية ، ألفاً ومائة فدان ، وعدد بناياته مائة وستين ، وعدد طلبته ثلاثة آلاف ، نصفهم من الذكور والنصف الآخر من الأنثى

والتعلم في هذا المعهد مختلط ، أي أن الذكور يتلقون الدروس جنباً إلى جنب مع الإناث ، غير أن الجنسين ينفصلان في الأعمال اليدوية . والجميع داخلية .

يتناولون طعامهم ، على موائد واحدة ، وتصرف لهم الكتب والأدوات والملابس من المعهد . وكان مؤسس هذا المعهد الكبير بعيد النظر في مبادئ التعليم ، فكانه تنبأ يوم إنشائه منذ ستين عاماً بقلب نظريات التربية . فقد أنكر بتاتاً الحاجة إلى الأكثار من تعليم اللاتينية واليونانية والرياضيات ونادى بوجوب الاهتمام بتربية اليد والرأس والقلب ، أو

the three h's (hand, head & heart)

وقال أن الطالب يحتاج إلى أشغال يدوية لتقوية يده ، ودروس علمية عملية لتقوية رأسه (عقله) ، بشرط أن تكون متصلة بالحياة العملية . ويحتاج أخيراً إلى أخلاق ، لتقوية قلبه وتهذيب نفسه ، وهذه لا تتم بتدريس علم الأخلاق وحسب ، بل يتوصل إليها بالتعاون بين الطلبة والقادة والمثال الحسن ، وحسن المعاملة والسير على مبادئ الأمانة والصدق والذمة وحب الغير ، وخدمة الآخرين في كل حركة من حركات المعهد وسكناته ، بل حركة هذه المدينة العظيمة ، ونظامها ومصايفها ومزارعها ، والعلاقة الشريفة الأخوية بين فتيانها وفتياتها ، معلمياتها ومعلماتها

يطلق على هذا المعهد كما اشرت اسم self-sufficing institution أي يكفي نفسه . وذلك لأن الأرض يزرعها الطلبة انفسهم ، فيصنعون من غلتها خبزاً في مخازن تقوم بإدارتها البنات . والبقر يربيه الطلبة الذكور ، وتذبح صغارها فتقوم البنات بطهي لحومها . والبقول يزرعها الصبيان وتقوم الفتيات بخزنها أو شحنها في العربات المعدنية شحناً فنياً لاستعمالها وقت الحاجة . كذلك الألبان

والجبين والزبدة والقشدة ، يستهلكها سكان المعهد أولاً فأولاً بعد إعدادها في قسمها الخاص

والمعهد لا يحتاج إلى حداد أو نجار أو حلاق ، فينبغي من كل مهنة وحرفة فمنهم النجار ، والبناء والحداد والميكانيكي ، ومهندس الأتومبيلات ، والسمكري ، والكهربائي ، وسباك المعادن ، والترزي ، والخراط ، والطبايع ، والنقاش والمنجد ، ومجموعها خمس عشرة حرفة — هذا عدا ما يتعلمه البنات من طهي وتطريز ، وصناعة القبعات وتفصيل الملابس وتدير المنزل بجميع أنواعه

وحتى تدرك أهمية الأعمال اليدوية ، اذكر أن هذا المعهد الكبير الذي يبلغ عدد بنياته مائة وستين ، لم يبدأ إلا ببنية واحدة شيدها صناع من الخارج . وكل بناء من البنات الباقية شيدها الطلبة تدريجياً ، تبعاً للحاجة . فقد كان الطلبة الذين يدرسون هندسة المباني يضعون تصميم البناء . فيأتي البناءون من الطلبة لتشييده ، ويتلوهم الطلبة المشتغلون بالنجارة لوضع النوافذ والأبواب ، ثم النقاشون ليطلوها بالالوان وهكذا الى تركيب أجهزة النور الكهربائي وغاز الأستصباح وأجهزة التدفئة والأثاث ، كل ذلك من صنع الطلبة

وكانت جميع الأقسام يتعاون بعضها مع البعض الآخر أي أن النجارين مثلاً يعدون الاخشاب التي يحتاج اليها الآخرون . أضف الى هذا كله أن ملابس الطلبة يقوم بتفصيلها وخياطتها الطلبة الذين اختاروا هذه الحرفة ، وأن الطعام

يقوم بطييه البنات ، ويقوم بخدمة المائدة الطلبة بالتناوب . أما كنس الغرف وتنظيفها فيقوم كل طالب بتنظيف غرفته . وغير ذلك ينأط الطلبة أيضاً بنظافته بالتناوب بأجرة قدرها ريال ونصف ريال (٣٠ قرشاً) شهرياً . وقد بلغ مادفعه المعهد لهذا الغرض في السنة التي زرته فيها ١٦٨ ألف ريال (٣٤ ألف جنيه)

كذلك تقوم البنات بغسل الثياب بواسطة آلة تغسل الثياب وتعصرها وتجففها وتكتب إسم صاحبها عليها بمعدل ٢٥٠٠ قطعة مرة واحدة . وتقوم البنات أيضاً بالتناوب بأدارة منزل كبير إداراة عملية . فتمثل إحداهن دور أم وأخرى دور بنت وأخرى دور خادمة . وهكذا تدخل ذلك المنزل النموذج فتجد ملابس تغسل ، وأثاثاً ينظف ويرتب ، وصوراً تعلق ، وأطفالاً يعتنى بها

هذا عدا الجماعات الأدبية والدروس المعتادة ، والأندية الرياضية والموسيقية والزراعية . وقد بقينا أسبوعاً ونحن في حلم من الأحلام اللذيذة . ننام في غرف يقوم بتنظيفها الطلبة ، ونستحم في حمامات يعدها الطلبة ، وننتقل من بناء إلى بناء في سيارات يقودها الطلبة . ونأكل أطعمة من كل لون وصف من طهى الطالبات . وتقوم بخدمتنا أجمل الطالبات وتشنف آذاننا موسيقى الصبيان والبنات

وليس هذا المعهد فريداً في بابه . فقد قضيت أنا وعدد كبير من الطلبة الأجانب خمسة عشر شهراً ، كنا في خلالها نمكث أيام الجمعة خارج الجامعة لزيارة مدارس ، ابتدائية وثانوية ورياض أطفال ومعاهد متعددة الأغراض

والنظامات، وكلها كانت تمثل أمامي مبدءاً واحداً، وهو أن المدرسة هناك هي الحياة اليومية بعينها

فكم كنا ننزل من القطار فنجد عدداً من طلبة المدرسة التي نريد زيارتها بنين وبنات، في إنتظارنا بسياراتهم، يدعوننا إليها. فيقودون السيارات بأيديهم ويأخذوننا إلى مدرستهم. وهناك نجد الطلبة يصلحون السيارات. ويركبون الأسلاك الكهربائية والتليفونية. ويصلحون المقاعد والموائد. ويطلون الجدران. ويحررون الصحيفة المدرسية ويصفون حروفها ويطبعونها بأيديهم ويعقدون الجمعيات الأدبية. ويشتركون في أندية الموسيقى والتصوير والزراعة ويربون الماشية. ويعدون الطعام. هذا علاوة على تأدية دروسهم النظرية. ودخول مكتبة المدرسة للمطالعة. وإستعارة الكتب

ولهذا يقتحم الاميركي الأعمال جميعها، من تنظيف الشوارع ومسح الأحذية وغسل الأطباق، وتقليم الأرض إلى احتراف التجارة والصناعة الراقية غير هباب ولا وجل. أنظر كيف ينجل حامل شهادة الكفاءة في بلادنا المصرية الذي لا تمكنه ظروفه من مواصلة الدرس، أن يعمل عملاً غير التوظيف وارتداء الملابس الافرنكية ذات الياقة البيضاء.

وهذا ما يقوله علماء التربية عن العمل. يجب أن يكون للعقل أيد وللايدي عقول. قال اردmo أن مخترع آلة الغزل أكبر منزلة وأسمى مقاماً وأكثر فضلاً على البشرية من هوميروس وشعره واليازته وعلى هذا المبدء يكون أديسون أفضل من شكسبير، وباستير أعظم من فكتور هوجو

وماركونى أسمى مقاماً من دانتى ، وجيمس واط وأستيفن كل أعظم من ملتون وماركونى ، وفورد أفضل من لونج فلو وأمرسون . ولا أدري اذا شاركنى القارىء فى أن يحتزعى السواقى والطواحين البلدى ، والقلل القناوى ، وغيرهم من الذين لا أعرف اسماءهم اكثر نفعا لمصر من شوقى وحافظ ومطران زار أستاذ اميركى كبير ، كان قد اعتاد إبنة الصغير تلقى الدروس النظرية والعملية فى المدارس الحديثة ، انجلترا . فأدخل نجله فى المدرسة المحلية . لم يمض على نجل الاستاذ الصغير يوم واحد حتى رفض العودة اليها قائلاً أنها مدرسة تسميع It is a reciting school . أليست مدارسنا مدارس تسميع ؟

ومن الغريب أن مدارسنا الفنية لا توفى التربية العملية حقها ، مع أن الغرض من إنشائها لا يتم إلا بهذه التربية . فقد شكا طالب فى مدرسة زراعية منذ مدة من مدرسته ، لأنه يصرف مع بقية طلبة فرقته ثلاثة أيام كل أسبوع مع معلم يسمونه معلم الغيط ، ويحمل ما يفعلونه فى هذا الدرس العملى فى الغيط هو جمع القش . قلت بعد سماع هذه الشكوى ، لا غرابة إذا قصد خريجو مدارس الزراعة عندنا أبواب الوظائف الكتائية يطرقونها بدل تربية المواشى والطيور وصنع الالبان والجبنه والزبدة

ولا غرابة إذا كان معظم طلبة مدارسنا التجارية لا يفكرون فى الاشتغال بالتجارة الحرة إن لم يكن جميعهم . إذاً ما تقع هذه المدارس ؟ إن كلية الطب فى بلادنا تخرج لنا اطباء نافعين . ولماذا ؟ لأن الطلبة فى القصر العينى مرعى خصيب من المرضى والقتلى واللقطاء والجرحى وزبائن العيادة الخارجية

فلم لا تكون مدارسنا الزراعية والتجارية والصناعية عملية ككلية الطب؟
إن مثل هذه المدارس ، كحكاية واقعية يتفكك بها جون ديوى . قال أن أحد
المجالس المحلية في اميركا قرر ان يكون تدريس العوم إجبارياً في مدارسها .
فأظهر المعلمون نفوراً وطلبوا إرجاء هذا الدرس لحين إنشاء بحيرات العوم
حتى يكون الدرس عملياً . ولكن ضاعت احتجاجاتهم أدراج الرياح . وقضى
الأمر وادخل العوم ضمن مناهج الدراسة . ولما جاء يوم الامتحان كان
أحد أعضاء المجلس من لجنة الامتحان الشفهى . فسأل فتاة : مارى . ماذا تفعلين
فيما اذا أقنرت إلى بحر عميق ؟ أجابت مارى على الفور ، أغطس الى القاع
وبعد ثلاثة ايام تطفو جثتى على سطح الماء فيلتقطها أحد الصيادين

برنارد شو كاتب انجليزى فكه ، وهو من المولعين بفكرة التعليم العملى
وقد ذكر مرة تعريفاً للتربية ، قصد به التهمك على التعليم النظري ، فقال : -

Education is what we have left after we have forgotten all that
we have learnt.

أى إن تربية الانسان هى ما تبقى في نفسه أثرها بعد أن نسى كل ما تعلمه .

الفصل الخامس

مبادئ الاقتصاد والاجتماع

(ثانياً) ان الغرض من انشاء المدارس، هو أن يكون لسد التعليم حاجتنا الاقتصادية والاجتماعية، ومدارسنا لا تقوم للأسف لسد هذه الحاجات على الوجه الأتم. أن المدارس وليدة الحياة الاقتصادية والحاجة الاجتماعية، وليست بمنفصلة عنها. وكل مادة نعلمها تلاميذنا ينبغي أن ترمى لغرض معلوم وهدف واضح محدود. وقد حكى أن انجليزياً قصد الى بحيرة للصيد، فجلس طويلاً والصنارة مدلاة في الماء، حتى حضر اليه أحد فتیان الجهة التي كانت البحيرة فيها وقال له: إن هذه البحيرة لا سمك فيها، فأجاب الانجليزى: لا بأس. انا لا أقصد السمك، بل التسلية. ويفهم من هذه الحكاية أن هذا الأبله لم يكن له غرض

إن مناهجنا محشوة بكثير من المواد التي لا تقع لها في الحياة، أو التي يقتصر تفهمها على فقر قليل يعد على الاصابع، ومع ذلك نعلمها لكل طالب ونجعلها فرضاً واجباً لكل انسان. خذ مثلاً الجبر. إن المادة التي لها في حياتنا فائدة عملية، لا تكاد تكون واحداً في الالف مما نعلمه. هذا الجبر تثقل به كاهل الطالب المصرى خمس سنوات كاملة. نعم إن الجبر لا يزال يدرس في اوربوا واميركا! ولكن ليس الى هذا الحد — خمس سنوات، ولا يفرض على كل طالب، ولا يدرس كله.

كذلك الهندسة ، لقد وجد بالبحث أن هذه المادة لا يستفيد منها المهندس إلا ما يحتاج إلى درس شهر واحد ، ومع ذلك أيضاً تدرس خمس سنوات متواليات غير المعلومات الأولية في التعليم الابتدائي . فإذا كان المهندس لا يحتاج من هذه المادة إلا إلى النزر اليسير ، فما ذنب المحامي والطبيب والتاجر والكاتب والموظف وكل الناس ، حتى يقضوا شطراً كبيراً من أعمارهم في درسها ؟ أن أكبر دليل على ضعف هذه المادة وعدم ضرورتها أنها لم تتقدم ولم يزد عليها حرف واحد منذ وضعها علماء اليونان القدماء

يقولون ، أو كانوا يقولون أن الغرض من درس الهندسة مثلاً أو الجبر توسيع العقل . ولقد اتضح بطلان هذه النظرية . ويسمون لها نظرية النقل Theory of Transfer إن حل مسائل الهندسة أو الجبر يوسع عقلك في حل مسائل الهندسة والجبر فقط ، لا في شيء آخر . كذلك لعب الشطرنج ، لا يساعدك إلا على لعب الشطرنج . ولا يصدق أن حل مسائل الهندسة يساعد السياسي على حل المسائل الاجتماعية والمشاكل السياسية

طلب معلم الفلسفة في نيويورك مرة أن يرفع أصبعه من لم يدرس الجبر . فدهشت جداً للعدد الكبير من الطلبة الذين لم يدرسوا الجبر . ولم ندهش ؟ لقد تخير بعضهم لعب الكمنجيه بدلاً من الجبر ، وتخير آخر قيادة الاتومبيلات وتصليحها وتخير ثالث النجارة أو الحدادة أو صناعة الأحذية بدلاً منها . أن الرجل في أميركا قد يكون صحفياً ولكنه يلم بصناعة الأحذية أيضاً . وقد يكون طبيباً ولكنه يستطيع أن يصنع من الواح خشبية مائدة أو

خزانة . وقد يكون محامياً او قاضياً او كاتباً او اديباً ولكنه يستطيع أن يصلح جهاز التليفون أو المصاييح الكهربية إذا أصابها عطب، وقد يستطيع أن يعد طعام المنزل ، أو يخطط ملابسه أو يفصلها

إنى أعرف شخصياً ثلاثة من كبار أساتذة جامعة كلومبيا ممن اشتركوا مع البنائين اشتراكاً فعلياً في تشييد منازلهم ، فكانوا يحملون الأحجار على رؤوسهم، والأخشاب وأدوات البناء ، من أسفل التل إلى قمته. وكان كل منهم يقوم بعملية البناء ونشر الخشب وغير ذلك من الاعمال الشاقة . وقد نشرت الصحف منذ زمن خبراً من هذا القبيل عن بعض وزراء إنجلترا. وشاهدت مرة أحد كبار الاميركيين يصنع خزانة للملابس ، فلما رأيته مندهلاً، قالى ألم أكن نجاراً في المدارس الثانوية ، مشيراً بذلك الى انه اختار النجارة حرفة له وقد ذكرته هذه بحكاية سمعتها من مدرس رياضة مصرى كان قد قضى بضع سنوات في مدرسة صناعية قبل تدريس الرياضة . وهو أن أمه كانت متفنية عدة أسابيع وعند حضورها وجدته على وشك الانتهاء من صنع مكتب خشبي جميل بأدواته ويده . وكان ينتظر أن يتقبل منها التهانى لهذا العمل ، ولكنه فوجئ بصرخة من امه ، كصراخ النساء وعويلهن عند موت عزيز، وذلك للعار الذى لصق به فى نظرها من النزول الى مستوى النجارين

ندرس علم المنطق فى مدارسنا . والغريب اننا لم ندخله إلا فى الزمن الذى أصبح هذا العلم فيه مقضياً عليه . وقد أوشك أن يزول حتى أنه فقد منزلته وندرو وجوده فى اميركا والمانيا اليوم . وذلك لأنه لا يعلمنا أن نكون

منطقيين في أقوالنا وكتاباتنا . ولأنه عديم الفائدة بالمرّة ، ولأنه راكد كالماء العفن في المستنقعات ، لانه منذ تأليفه منذ أكثر من ألفي سنة ، لم يضيف إليه حرف واحد !

أما الحساب فحدث عنه ولا حرج . وربما يتدربني القارىء بقوله : وايضاً الحساب ؟ ذلك العلم المفيد ؟ وما الذى يريد ابقائه بعدئذ ؟ هون عليك ، الحساب مفيد ونافع في الحياة ، ولكن كم تتعدى هذه الفائدة القواعد الاربع الأصلية ؟ وكم من الناس يستعمل عملياته المطولة ، حتى نعلمه لتلاميذنا تسع سنوات متواليات ، اربعاً فيها في الابتدائى وخمساً في الثانوى — تسع سنوات كاملة ؟ ظهر العام المنصرم كتاب ملأت شهرته الآفاق واسمه Consumer &

Arithmetic جاء فيه :

دلت الأبحاث الرسمية التى قام بها عدد من العلماء والأساتذة ، أن أكثر من ٦٠ ٪ من سكان اميركا ، لا تتجاوز أعمالهم الحسابية القواعد الاصلية الاربع (الجمع والطرح والضرب والقسمة) وأن المدارس الابتدائية وبعض المدارس الثانوية ، تريد معلومات الناس فيها عن ٨٥ ٪ . من حاجة الناس فإذا كانت اميركا ، بجلالة قدرها ، وما لها ، ومصارفها ، وبنائاتها الشاهقة الضخمة ، ناطحة السحاب ، وقناطرها وسككها الحديدية ، وأعمالها الهندسية الكبرى ، ودواليب أعمالها المالية المدهشة ، فى شارع Wall Street الذى يبلغ فيه ثمن الياردة المربعة من الارض ٤٥ ألف جنيه إذا كانت اميركا مع كل هذا لا تحتاج الا ١٥ ٪ . مما يعلم فى المدارس من الحساب ، فكيف الحال

معنا نحن المصريين ونحن نعلم مادة الحساب لبنينا وبناتنا تسع سنوات متواليات،
أي أكثر من ضعف ما تعلمه اميركا لطلبها مع ضالة اعمالنا الحسابية ؟

ربما كانت المدارس في فرنسا من أشد مدارس أوروبا تأخراً وأشدّها
تمسكاً بالنظم القديمة . فأذا درسنا حالة التعليم في إنجلترا التي تعد من أكثر
البلاد تمسكاً بماضيها وتقاليدها ، وجدنا أن معاهد العلم قد نالها كثير من التغيير
والإصلاح . وقاموا بقرأة جريدة من الجرائد الانجليزية وخصوصاً ملحق صحيفة
التيمس الأسبوعي الذي يخصص برمته للتعليم ، بغير أن نجد ثورة على النظم
القديمة ومناداة بطلب الإصلاح ، ومقالات شائعة يفهم منها أن مجهودات رجال
التعليم هناك قائمة على قدم وساق في ادخال الآراء الحديثة وتأسيس المدارس
على دعائمها ، سواء أكان فيما يختص بالمناهج أم الدروس العملية أم طرق التدريس
أم مدارس المعلمين أم الامتحانات العمومية أم المباني أم الأثاث أم معاملة
الطلبة أم العلاقة بين المنزل والمدرسة الخ

ولا تنحصر هذه الحركة الواسعة النطاق في إنجلترا ، بل امتدت إلى
سكوتلاندا وايرلندا الحرة وكندا وأستراليا والامبراطورية الهندية وجميع
الممتلكات البريطانية . وأما الآن مقل ممتع عن التعليم في سكوتلاندا
موضوعه إخفاق المدارس الابتدائية في سكوتلاندا وقد كتب بحروف
من نار ، وكل كلمة فيه تنم عن تغفل آراء التعليم الحديثة في نفوس المربين
هناك ، وميلهم الى قلب النظم العتيقة وإن كلفتهم هذه العملية نفقات باهظة

وما قلناه عن إنجلترا والمانيا والنمسا ينطبق على مدارس معظم الممالك
الاوربية خصوصاً ممالك الشمال، كما ينطبق على اليابان وكوريا والصين وجزائر
القليين في آسيا، كما ينطبق على اميركا الشمالية منها والجنوبية

وقد رأينا ان نقل هنا عن مجلة School and Society ما يأتي : —
كتبت الكاتبة الفرنسية ايفون سارسي تقول أنها تشكر السماء لأن
الأطفال الفرنسيين أخذوا يتنسمون نسائم الحرية في المدارس ويتمعون
أنفسهم بالهواء الطلق في رحلاتهم العلمية ، ناسين النظريات والتواريخ المطولة
والامتحانات والمسابقات . وقد ذكرت في مقال نشرته مجلة Lesanna أنها
مغتربة بالحركة التي أخذت تظهر في المدارس الفرنسية ، لأنها علاوة على
الحرية والهواء الطلق التي يتمتع بها الأطفال الفرنسيون اليوم ، ألقت
لجنة لدرس مناهج الدراسة المشحونة وإرهاق الطلبة بمواد متراكمة (١) كثيرة
بغير جدوى . ووصفت شكوى الآباء والأمهات من كثرة الدروس وتعدددها
وتأثيرها في صحة أطفالهم ونشاطهم

وطالما عمت الشكوى من الأجانب الذين يبعثون أبناءهم وبناتهم الى
المدارس الفرنسية ومدارس اللدسيه الى درجة دفعت الصحف الفرنسية إلى
الكتابة باستمرار ضد القوضى في التعليم واكتظاظ المناهج بغير مسوغ .
وقد رسمت صحيفة L'Oeuvre صورة هزلية تحت عنوان « رفقا بالطلاب

(١) وسيفهم القاريء من هذه المقالة ان الشكوى التي يوضح منها الفرنسيون هي عين
ما نوضح منه اليوم في مصر واتنا عند وضع مناهجنا نسجنا على منوال فرنسا

الفرنسي « ، مثلث فيه ولد آ مقيداً بالسلاسل مربوطاً بالاغلال وامامه جرعات كبيرة من العلوم والمعارف يطلب منه تجرع غصصها عنوة وقد تناولت هذه الحركة رجال المهن الراقية ، حتى عقد أشهر الاطباء في فرنسا اجتماعاً ووضعوا تقريراً قالوا فيه انهم بصفتهم اخصائيين في المسائل الصحية ، ينكرون على معاهد التعليم في فرنسا الحياة غير الطبيعية التي يزج الاطفال فيها ، ويقررون أن ساعات المذاكرة والبقاء في غرف الدراسة ، طويلة إلى حد غير معقول ، وان مواد الدراسة أكثر عدداً وكمية . مما يحتمله عقل الطالب وأشد تعقداً ، مما لا يناسب سنهم وأن هذا الارهاق وهذا التقييد لحرية الطالب الفرنسي يحرمه من التريبة البدنية واللعب والراحة ، ويفقده لذة النوم والطعام

وقد أطنبت الكاتبة ايون سارسي في هذا التقرير وأطرت كل حرف من حروفه وكتبت تعليقاً عليه تقول ان تلاميذ المدارس عندنا قد اصابوا بالتخمة وسوء الهضم من جراء المواد المتراكمة ، وفوق ذلك فلهم يغادرون فرق الدراسة بغير ان يتعلموا شيئاً وبغير ان يعلقوا في اذهانهم شيئاً وبغير ان يفهموا شيئاً . وكثيراً ما زردحم تلاميذ مدارسنا في غرفة ضيقة يستمعون لما يلقيه عليهم معلم القاء عاماً ، فهو مخاطب التلاميذ جماعة واحدة ولا يعنى بحاجاتهم الفردية ولا يناقش كلاً على حدة . وفي نهاية اليوم المدرسي الطويل الطويل المتعب يتوجهون إلى منازلهم حيث يجدون أمامهم جدولاً آخر مطولاً من الأعمال التي يناط بهم تأديتها . فمن موضوع انشائي يكتب ، إلى

مسائل رياضية تحل، إلى خرائط جغرافية ترسم، إلى حقائق وأرقام تستظهر. وليس العيب على المعلم فما هو إلا أداة لتنفيذ الأوامر العليا التي تصل إليه من السلطة المركزية، وما عليه إلا أن يصب في عقول طلبته المواد بعد تهيئتها وخزنها

وليس في مقدور المعلم أن يدخل تغييراً أو تعديلاً لأن القوانين التي يكلف السير بموجبها جامدة صلبة لا تتنى بغير كسرهما

وهذه الحالة السيئة التي لا تزال تنوء تحت اعبائها المدارس الفرنسية هي عين الحالة التي أشار إليها الكاتب الانجليزي ارنولد ماثيو (١٨٢٢ — ١٨٨٨) عند زيارته لفرنسا. وقد ذكر ذلك المربي والكاتب أنه في أثناء زيارته للمدارس الفرنسية وجه نظره أحد كبار الموظفين من رجال التعليم مفاخراً إلى أن كل طفل فرنسي يتلقى عين الدرس الذي يتلقاه كل طفل آخر في فرقته في ساعة معينة

إن المدارس التي نحتاج إليها في فرنسا هي المدارس التي أنعم الله عليها بالشمس والهواء والأشجار والملاعب والحياة، إن الجمهورية الفرنسية في حاجة إلى مدارس عملية يلتحق بها الأطفال فيجدون ميدان العمل والنمو والنشاط فسيحاً، حتى يستطيعوا أن يتعلموا التعاون والاعتماد على النفس وحب الأعمال اليدوية واحترامها وذلك بأدخال كل ما هو مشوق ومرغب في التعليم وقد نشرت جريدة الطان Le Temps مقالة لكاتب اقترح فيها أن يضاف إلى لجنة الأطباء، البالغ عدد، أعضائها ٣١ والتي سبقت الإشارة إليها عدد

من والدى الطلبة حتى يكتبوا التقارير الإضافية عن حالة المدارس الفرنسية
وحالة اولادهم فيها

ويواصل المجمع الطبى العلمى الفرنسى حملاته على المناهج فى المدارس
الفرنسية ، ويتتبع رأى العام هذه الحملات بشغف عظيم . ومع وجود آراء
معارضة لهذه الحملات ، فإن الافكار متجهة الى المجمع العلمى الطبى الذى برهن
على عدم ملائمة المناهج للمبادئ الصحية نظراً لكثرة موادها وكثرة عدد
الساعات اليومية التى تتطلبها . وعلى رأس الجمع المشار اليه دكتور ليزاج
(Lesage) الشير الذى انذر بنى جنسه بخطر داء السل الذى يهدد أبناء
الفرنسيين وبناتهم . وقد عززت رأيه مدام كوري (Curie) مستكشفة
الراديو ، وبينت أن طالب الليسيه الذى يشغل من ٨ صباحاً الى ٣ مساءً
فى المدرسة ، مضافاً الى ذلك عدة ساعات فى المنزل لتأدية واجبات اليوم
التالى ، ينهك قواه ويحمل نفسه ما لا تطيق ، ويضر بجسمه ولا يستطيع
أن يهضم من الدروس التى يتلقاها إلا القليل منها . وأضاف الى ذلك الأستاذ
ليزاج عبارة شديدة اللهجة ، مغزاها أن الحصان إذا قضى معظم النهار مسرجاً ،
قليل انه كلف فوق طاقته ، ثم قال « ان الطلبة فى فرنسا يظلون « مسرجين »
معظم النهار . وباعتبارى استاذاً فى جامعة السربون ، أصرح أن شطراً كبيراً
من المواد التى يدرسها أولئك المساكين عديمة الفائدة . وأن الشهادة النهائية
لا قيمة علمية لها تذكر حقيقة ، لأن ثلاثة ارباع المعلومات المطلوبة يصح
حذفها بغير أن يخسر الطلبة شيئاً

ولا تزال اللجان تشكل ، والأساتذة تنتدب ، لدرس الموضوع درساً وافياً ، ولا يمضى زمن طويل حتى تقلب المناهج الفرنسية رأساً على عقب

ولا يقصد بهذا أننا نريد أن نقضى على تعليم هذه الأشياء . كلا . إن الغرض تدريس أبنائنا القدر الذى يحتاجونه فى الحياة ، وتوفير الزمن لغيره من المواد العملية . ولا بأس من التخصص لمن يريد . فمن يرغب من الطلبة أن يتخصص فى الرياضيات العليا أو لغة من اللغات الأجنبية ، القديمة أو الحية ، أو الفلك أو التاريخ أو الجغرافيا ، فلا بأس . ولكن ما الفائدة من تكليف الجميع أن يدرسوا كل شىء بالتطويل بغير جدوى

ومن المضحك أن البعض يدعون أن المرء قد يجد لهذه الأشياء فائدة فى مستقبل حياته ، وهو لا يدرك أن هذا القول خرافة وهذيان . إن هذه الحاجات لا تهبط من السماء ، حتى نحتم على أبناء الأمة درسها وهم فى غنى عنها أو فى حاجة إلى ٢٥ ٪ منها . إن الاختراعات لا تهبط على الإنسان بهذه الكيفية . والمجتمع لا ينمو بهذه الكيفية . والثقافة لا تتجىء بهذا الحشو . إن البعد عن الأشياء العملية أو الانغماس فى الدروس النظرية التى لا ارتباط لها بحياتنا ، يدفع بنا نحن الشرقيين إلى التحليق فى أجواء الخيال ، ونحن بطبيعتنا ميالون إلى الخيال والشعر والفلسفة النظرية ، بعيدون عن العمل والصناعة والحياة ، وقد قال الغازي مصطفى كمال : — إن الغرب يعيش فى الدنيا فى حين

أن الشرق يعيش في الآخرة ، وإن واجبنا كأعضاء ، في الأسرة البشرية أن نعيش في الدنيا مادمنافيا

إن عدداً كبيراً من الطلبة لا ميل بطبيعته إلى الدروس النظرية ، وهذا لا يوجب الدهشة . ومن الخطأ البين أن نحتقر طالباً من هذا النوع أو نزرجه أو نزن أنه غير جدير بالتربية . قد تكون قواه ومواهبه موجهة إلى ناحية أخرى من نواحي الذكاء . يقول بعض العلماء أن الذكاء ثلاثة أنواع ، أدبي ، وميكانيكي ، واجتماعي

ومعنى الذكاء الاجتماعي معاملة الناس ، والاجتماع بهم ، واكتساب ثقتهم ، والحصول على بغية منهم ، واجتذابهم كالمغنطيس . ألا ترى كاتباً نحرياً ، أو اديباً عبقرياً أو عالماً لا ينظر له ، بالغاً من الذكاء العقلي مبلغاً لا يتوافر في سواه ، ولكنه يتحرك في خبل ، وينطق في لكمة ، إذا ما جمعت المصادفات بقوم في محفل ؟

ولانا تول فرنسا حكاية لطيفة ، بهذا المغزى ، يصور لنا فيها شاباً مذهباً ، نال الدرجات العالية من جامعات فرنسا ، وأتقن دراسة اليونانية ، وأخذ بناصية اللاتينية ، والتاريخ وعلم الأنساب ، ولكنه كان شبيهاً بالأبله عديم الاختلاط بالغير ، كثير الحياء ، غريب الأطوار . فأسف أبوه لذلك ، وقال له : يا بني لقد بقي عليك درس علم الدنيا ، واقتحام ميادينها ، مما لا تجده في أكبر الكليات . وبعث به إلى سيدة جميلة ، اشتهرت بالكياسة والرشاقة والظرف والشهرة والجاه ، وفصاحة اللسان وجم الآداب ، وعلو المكانة ، لعله من

معاشرتها، ربحاً من الزمن، تهذب فيه ملكة الاجتماع ومعاملة الناس واكتساب مودتهم. ولما أن أعيت تلك السيدة الحيلة في « درحة » ذلك العالم الصغير الأبله، شرعت تداوره بجميع الوسائل المقبولة لعلها تذيب ثلجه. وكانت كلما دنت منه نأى عنها. فعمدت أخيراً إلى طريقة الأغماء المعهودة في الروايات لعله يتحرك لأسعافها فتستفره عاطفة الحب. غير أن صاحبنا عمد إلى الأجراس يستصرخ بها الخدم، فهرعوا إلى الغرفة — وبذلك أقفلت السيدة آخر درس ألقتة على ذلك الشاب الأبله ولسان حالها يقول : —

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماسة أعيت من يداويها
منذ بضع سنوات أعاد طالب بالسنة الأولى الثانوية سنتين، وكان مهزلة بين إخوانه ومثالا للكسل وضعف الفهم والمقدرة على التفكير. فترك المدرسة والتحق بمدرسة الفنون والصنائع وهو الآن في بعثة الطلبة يواصل درس الميكانيكا على نفقة الحكومة المصرية في إنجلترا، وكثيرون من إخوانه لا يزالون يعالجون البكالوريا. وأعرف طالباً آخر بليداً، لم يظهر إلا ميلاً للرسم. فأرسله والده إلى مدرسة الفنون الجميلة بعد مقاومة شديدة من والدته وأقاربه وقد كتب له بالنجاح فأرسل على نفقة الحكومة إلى أوروبا خمس سنوات

لا بد أن هذا الشاب كالكثيرين من أمثاله كان يتألم من الدروس النظرية أولاً، ومن حبس ميوله ونزعاته ومواهبه العملية ثانياً. وكم من الطلبة مثله يضيعون أعمارهم ومستقبلهم في هذا الألم ويروحون ضحية جهل والديهم

ومعلميهم وسوء النظم المدرسية عندنا ، وكم قتلنا من هذه المواهب في نفوس اصحابها قبل أن تولد ؟

يقول الاستاذ ديوى في مؤلفه Human Nature & Conduct لقد أظهرت أبحاث أساتذة التحليل النفساني أن الميول والمواهب والدوافع ، إذا حبست وتركت كامنة في خبايا النفوس ، قطرت سماوسيت قروحا وأفرزت مواد قاتلة مهلكة .

إن بلادنا زراعية . وأحوج ما نحتاج اليه في مدارسنا ، الأكتار من تعليم الطلبة الفنون الزراعية وأصولها ، وترغيبهم في فلاحه البساتين ، وفتح عيونهم وتوجيه أنظارهم إلى تربية الماشية ، وتحسين نسلها ، وزرع الفاكهة وتصديرها

ألا ترى أن مصر وهي بلد زراعى ، فقيرة في أغنامها وأبقارها وفراخها ؟ إننا لانهم بتحسين النسل في ماشيتنا وحيواناتنا الداجنة ، ولا نسير على خطة معينة في تربيتها . أنظر إلى هولندا وأبقارها السمينة اللامعة ، وما تنفع به من البان وزبدة وجبن ، أنظر إلى الدجاج والبيض في أوروبا واميركا وكيف فطن الناس هناك إلى الاعتناء بها وانتقاء الاجود منها والاحتفاظ به وتصدير ما يزيد عن حاجة البلاد منها . ما أوسع المجال لشباننا ، إذا تعلموا كيف يتخذون تربية المواشى عملا لهم ، وما أوسع المجال إذا نزلوا في حلبة الميادين الزراعية ، وعملوا التجارب الزراعية التي نحسن من انواع مزروعاتنا .

تمكن مصرى منذ سنوات أن يقطف نحو ثلاثة آلاف برتقالة من شجرة

واحدة وكان يجني من حديثه أضعاف أضعاف ما يجنيه سواه . وحدث أن امير كيا تمكن بعد تجارب عديدة من ازالة الخيطان التي توجد في أعواد اللوييا التي يسمونها هناك String beans، تلك الخيطان التي تعلق بأفواهنا، فنقذها بعد مضغها

من المؤكد أننا إذا أكثرنا من تمهيد السبيل لهذه الدروس الزراعية في مدارسنا الابتدائية والثانوية، فتحنا الكثير من أبواب الرزق المقفلة، وخرج من بين ظهراننا عدد ليس بقليل من النوابغ الذين يستطيعون تحسين أرضنا واستدراار خيراتها

خطب في العام الفائت أحد كبار الهنود خطبة في مصر قال فيها . ينتج القدان الواحد ٢٠؛ اطنان من قصب السكر في الهند و ٦٤ في مصر و ١٦ في الولايات المتحدة بامريكا، مع العلم أن تربة مصر أخصبها . أليس هذا الفرق ناتجاً عن تسخير العلم لترقية الحالة الاقتصادية ؟

إن المجال واسع يقينا لوضع مرافقنا الاقتصادية في أيدي فئة لها من التعليم والخبرة قسط وافر . إن طلبة المدارس الابتدائية في المحلة الكبرى أحوج الى تعليم النسيج منهم الى الجبر . وطلبة المدارس في اسيوط أحوج الى تلقى صناعات العصي والكراسي ذات الفسيفساء الصدفية، والمذبات وسائر المصنوعات الخشبية والعاجية والأبنوس، والاثاث بأنواعه والسجاجيد، منهم الى الهندسة . وطلبة المدارس الثانوية في القاهرة أحوج الى تعليم صناعة الأدوات النحاسية وغيرها من أنواع السلع التي يبتاعها السياح، منهم

الى مطولات التاريخ وتفاصيل الوقائع الحربية

أنا إذا أدخلنا الزراعة والصناعة في مناهجنا ، أحدثنا ثورة زراعية ،
وانقلاباً صناعياً ، وتطوراً اقتصادياً . إذا فعلنا ذلك تطورت ماشيتنا وتحسن
نسلها ، وتطور دجاجنا وكثر نتاجها ، وتطورت صناعتنا وتضاعف أنواع
الاثاث في منازلنا واستغنينا عما يرد إلينا من الخارج ، وتطور ما يصنع الصانع
والتجار في الموسيقى وخان الخليلي مما يعجب به الاجانب

أنا اذا أدخلنا الصناعات في مدارسنا بعد حذف كثير من
التفصيلات النظرية في مناهجنا ، تطورت الأواني الخزفية في قنا وحلاوة
السيد البدوي في طنطا ؟

وهل كتب على حلاوة السيد البدوي والحلاوة « الحمصية » « والسسمية »
أن تبقى هي هي كما كانت ؟ ولم لا تتخذ درساً من شكولاته نسله وفكتوريا
وكدبري ، ومثلجات جروبي وتوبي ، وغيرها من الاصناف التي ندفع ثمنها
بسخاء إلى الأجنبي الدخيل ؟

حدث قريباً أنني كنت أساوم هندياً من تجار ميدان الأوبرا في القاهرة
في شراء صينية نحاسية جميلة . فسألته بعد شرائها : هل هذه من صنع خان
الخليلي ؟ فاجاب ! كلا ، أن صناعة النحاس المصرية في الموسيقى وخان الخليلي
لم تتطور منذ وجودها ولم يدخل عليها التنويع والابتكار ، فهي كلها طراز
واحد ورسم واحد تقريباً ، ما عدا بعض الرسوم البسيطة فيها . وقد كانت

هذه الملاحظة من ذلك الهندي شديدة على أذنى ، فلم أجد لغة أستطيع بها توجيه الأسئلة إليه بعد ذلك والحقيقة مؤلمة .

نريد أن نعلم أبناءنا ماله في الحياة ، في حياتنا المصرية ، فائدة عملية . وهما نحن هؤلاء قادمون على التعليم الاجبارى ، وسينفذ القانون تدريجياً ، فهل نحن مصممون على تعليم أطفال القرويين ما يحتاجون اليه . أما المبادئ الزراعية والصحية ، علاوة على القراءة والكتابة والحساب ، فلا تحتاج إلى إيضاح ولكن أذكر للقارىء مثلاً مما يحتاج اليه هؤلاء في بعض القرى . في بعض القرى المصرية القريبة من الصحراء ، يسطو البدو من القبائل الرحالة التي لاسلطان للحكومة عليها ، على السكان الآمنين ليلاً ، فيسلبونهم ماله وحنطتهم وماشيتهم ، ويسفكون الدماء البريئة ، والسكان يذعنون كالأغنام ، ولا حول لهم على مقاتلتهم . ماذا تحتاج اليه التلاميذ في تلك الجهات ؟ يحتاجون الى معلم يدرّبهم على الألعاب الرياضية وضروب الدفاع عن أنفسهم ، والشجاعة والأقدام ، حتى يصدوا عنهم أولاً هجمات هؤلاء ، ويعينوا الحكومة على القبض على الجناة . ولم لا تفعل ذلك ؟

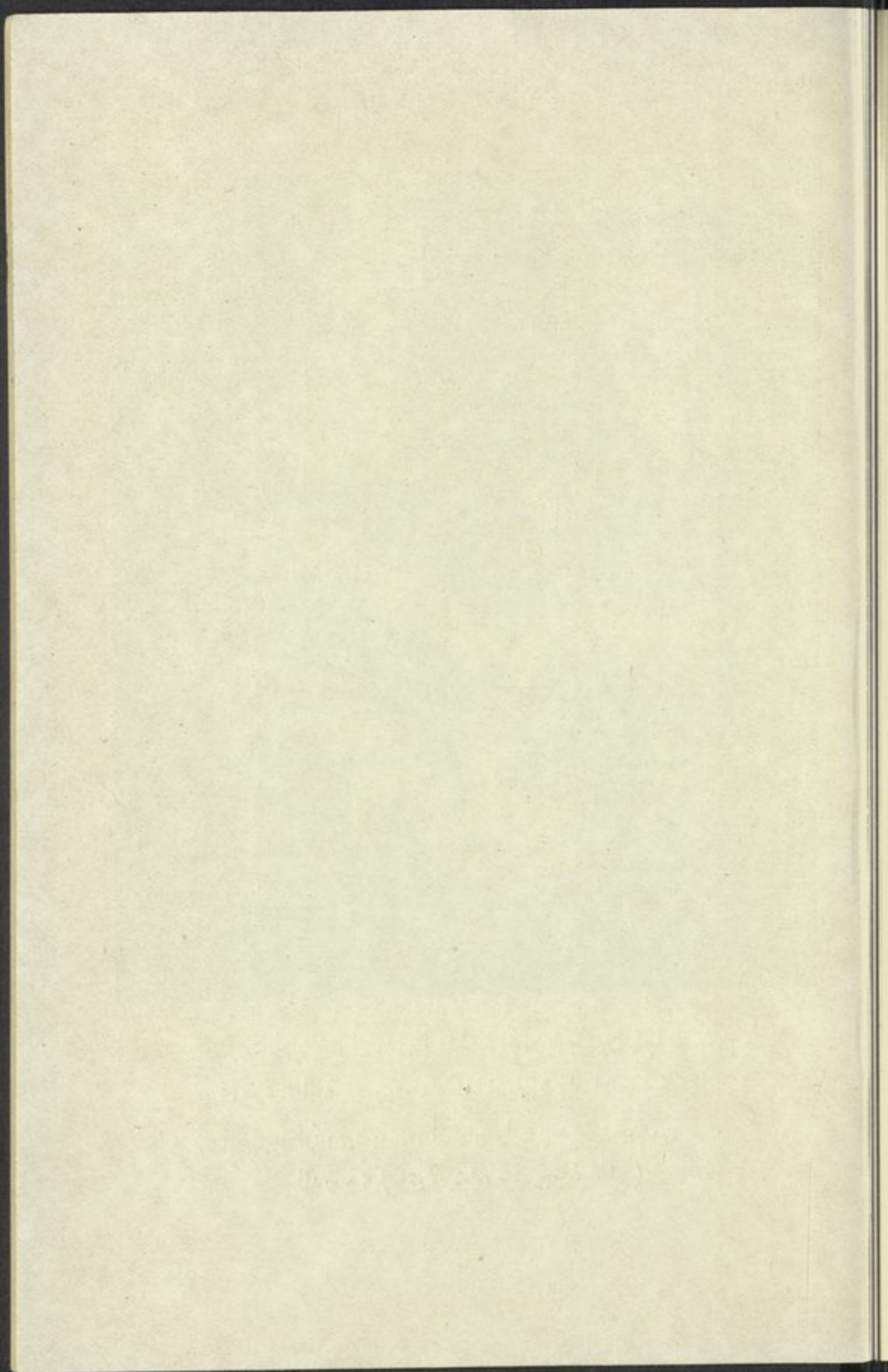
لما أن وجد الاميركيون أن عدد السيارات بلغ حداً لا مثيل له ، حتى أصبح لكل أربعة من السكان سيارة ، وأصبح عدد السيارات في بعض القرى أكثر من عدد المنازل ، أدخلت في المدارس الاجبارية صناعة السيارات ، وأصبح كل تلميذ قادراً على قيادة السيارة ، وإصلاح ما يعتريها من العطب ، والاعتناء بها والمحافظة عليها . وذلك لأن السيارة جزء من

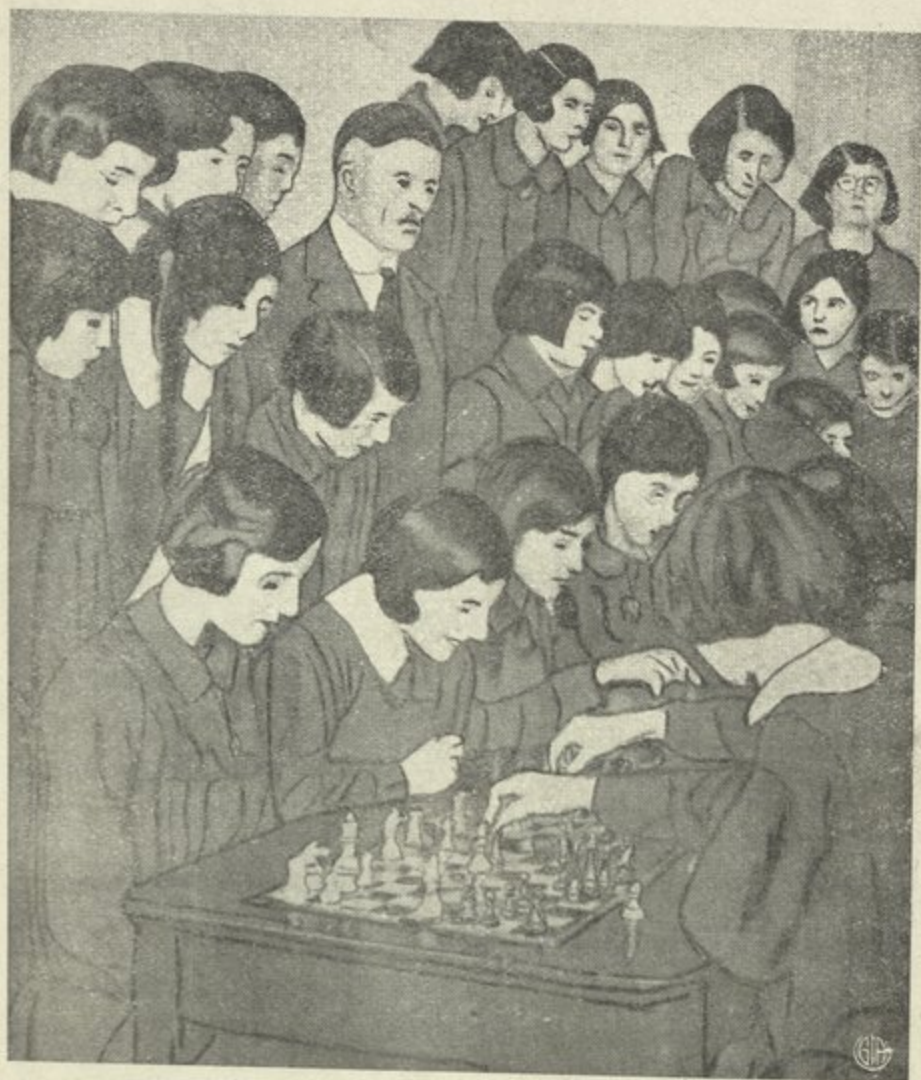
الحياة هناك ، والمبدأ العام في فلسفة التعليم هو : — « علموا التلاميذ ، ذكورا وإناثا ، كل شيء مرغوب فيه ، نعلم أنهم سيحتاجون إليه حتما في مستقبل حياتهم » وذلك يشمل لا شك بعض الصناعات كالنجارة ، وبعض الملاهي وضروب الرياضة ، كالتمثيل ، والسباحة ، والرقص ، وركوب الخيل

ولما رأى ولاية الأمور في المدن الكبرى في أميركا الخطر الدائم الذي يتعرض اليه الناس في الشوارع من كثرة السيارات ومركبات النقل أصدرت أوامرها إلى كثير من المدارس لتعليم التلاميذ كيف يعبرون الطريق بغير التعرض لهذا الخطر . وقد رأيت معرضاً بديعاً في مدارس أميركا ، وقف فيه طلبة كعساكر المرور في ردهة كبيرة ، وقاد آخرون عدداً وفيراً من السيارات وعبر الطريق آخرون بطريقة تكفل سلامتهم من الأخطار . وكل مدرسة في أميركا مكلفة ، بغير استثناء ، لتعويد طلبتها اتقاء الحريق . ويحضر مندوب حكومي إلى المدرسة في وقت غير معين ، ويقرع ناقوس الخطر فتجد الطلبة يخرجون ، بنين وبنات ، بنظام معين ، يضمن إخلاء المدرسة التي يبلغ تلاميذها خمسة آلاف ، في أربع دقائق على الأكثر

وهذا ما يقوله المحرر العالمي لجريدة نيويورك ورلد :

يجب على الجنس البشري في عصرنا الحاضر أن يكيف أفرادَه حتى تلائمهم البيئة ، وفي الوقت عينه يعدل البيئة حتى تناسب أفرادَه . إن إقدام المدارس العامة على تعليم أبناء الأمة اللاتينية واليونانية ، بأصولها وفروعها ، والفلسفة بنظرياتها ومباحثها ، لا تقل خطأ عن تعليم الاسكيمو صيد الوحوش





طالبات انجليزيات في مدرسة داخلية انجليزية يتسابقن بلعبة الشطرنج
 في فترة الراحة — ويقول علماء التربية « علموا الطلبة كل عمل
 مرغوب فيه يرجح أن يقوموا به بعد خروجهم من
 المدرسة » (حتى لا يتعلموه في جو غير سليم)

البرية الضارية، وتعليم الفنون البحرية لسكان الصحراء. أن الشبان لا يحتاجون إلى اللاتينية، ولكن الإنجليزية ولا يحتاجون إلى الفلسفة القديمة، بل التفكير العلمي الحديث، ولا يحتاجون إلى ركوب الخيل، بل قيادة الآتومبيلات، ولا يحتاجون لعب السيوف (الشيش) بل الطرق التجارية الحديثة. وهذا لا يمنع من تعليم العدد القليل الذين يستطيعون بحكم ميولهم ومواهبهم أن يتخصصوا في الأشياء المذكورة، فيضيفون إلى الحياة جمالاً ورشاقة. ولكن هؤلاء الأشخاص كإليات لا ضروريات، ومدنيتنا أخرج إلى الضروريات. وبعبارة أخرى، أخرج أن يكون السواد الأعظم من الأفراد قادرًا على العمل والأنتاج وتبادل السلع العالمية

يجب أن تعلم كل مدينة أفرادها أن يعيشوا ويجهدوا في سبيل هذه المدينة. كم كانت تكون حالة العرب في أبان مجدهم لو كان أبناؤهم نشأوا على ترف الرومان وإغناصهم في اللذات ومراتع النعيم؟ وكم كانت تكون حالة أوروبا، فيما لو كان أبناؤها قد تلقوا في مدارسهم ما كان يتلقاه فرسان القرون الوسطى؟ إن ما يهمني في حياتنا اليومية يجب أن يكون اهتمام من يحيون هذه الحياة يوماً بعد يوم. يجب أن يتعلم شاب هذا العصر لغة هذا العصر، وحركات هذا العصر. يجب أن نعلمه عن الآتومبيل والطيارة ما كان يتعلمه شبان الأجيال الغابرة عن السيف. يجب أن نعلمهم عن التليفون والراديو وآلات هذا العصر ما كان يتعلمه أجدادنا عن صيد الوحوش الضارية

أنا نعيش في زمن تنتفع فيه جميع نظمنا الاجتماعية بالاحتراعات

والأستكشافات الحديثة وعجائب العلم والصناعة والفن . غير أننا في مصر لم نستفد من هذه كلها، ولم نتهز الفرص لأدخالها في معيشتنا، واستمتعنا بها. ومن الغريب أن بعض رجال الكنيسة المسيحية في مصر، منذ عهد قريب، عارضوا في ادخال النور الكهربائي في اماكن العبادة، ظناً منهم أن الكهرباء بدعة لا تتفق مع التقاليد الدينية . وإذا رجعنا إلى الكنائس في أوروبا وأميركا الفينا الحال على النقيض من ذلك، فهناك يستعان بالفنون الجميلة، من نقش وتصوير وحفر ونحت وعمارة وبناء وموسيقى، لتجميل الكنائس وزخرفها وخلق جو فيها، جدير بالعبادة . فإذا سمعت لحناً موسيقياً، خيل اليك أن جميع الآلات الموسيقية، وأكابر الفنانين وكواكب الأوبرا الساطعة، قد اشتركت في توقيعه . وكنت أدهش كلما رأيت على مسرح كنيسة في أميركا أربعين قطعة موسيقية، وفرقة من أكابر المغنيين والمغنيات تردد وراءها أناشيد خشوعية مناسبة للمقام، بأصوات مهبذة وطرق فنية ترتاح لها الخواطر وتطيب لها النفوس

وحدث في العام الفائت أن رئيس كنيسة قروية في إنجلترا أدخل الصور المتحركة في كنيسته حتى يقبل الناس على العبادة . وقد كان نجاحه عظيماً . وقرأت أخيراً عبارة فكهة في مؤلف انجليزى، وهو أن سماكاً اشترى حانوتاً يبيع فيه أسماك، وطلب إلى رئيس الكنيسة أن يتنازل بافتاحه، فدارت بينهما المناقشة الآتية: —

بائع السمك : هل تفضل بتولى رئاسة الشرف لحانوت السمك الجديد
الذى أسسته ؟

القس : آسف جداً لأن جميع السمك يرد إلى طازجاً من مخازن لندن
الكبرى ، بواسطة السكة الحديدية

ومضى شهر على بائع السمك ، وهو منقطع عن الكنيسة ، ولما أن سأل
القس عن السبب أجاب بما يأتى : —

آسف جداً يا حضرة القس لأن جميع المواعظ ترد إلى طازجة من
كنائس لندن الكبرى بواسطة اللاسلكي

وليس فى هذه المسألة شىء من الغرابة أو المبالغة فإن الكثيرين فى أوربا
وأمركا يستمعون لوعظ أكابر رجال الدين وهم فى منازلهم بواسطة جهاز
اللاسلكي

ولسنا نريد هنا أن ندعو إلى وجوب الإصلاح فى أماكن العبادة
وطرقها ، وكل ما يتعلق بها فإن موضوع هذا الكتاب لا يتسع لهذا البحث ،
بوجه خاص . على أننا نرى أن نشير إليه بمناسبة « كيف تعلم لنعيش » لا غير .
والمقصود من هذه الإشارة هو أن تربيتنا ، ينبغى أن تغفل فى جميع مرافق
حياتنا ، سواء أكانت مادية ، أم أدبية ، أم أخلاقية ، أم فنية ، أم دينية ، أم
اقتصادية ، أم اجتماعية ، أم سياسية وما إلى غير ذلك

وبناء على ذلك ينبغى أن يكون العلم خادماً لنا فى كل هذه المرافق

الحيوية ، أو بتعبير آخر ينبغي أن يكون خادماً لهذه المرافق . ثم تتساءل ما الذى ينتج اذا كان العلم خادماً فى واحد ، أو أكثر من هذه المظاهر ، ولم يكن كذلك فى البعض الآخر ؟ الجواب عن هذا واضح جداً : وهو اننا نعيش فى واد فيما يتعلق بالنوع الأول ، وفى واد آخر فيما يتعلق بالثانى ، ونسائر القرن العشرين فى ناحية من مناحى الحياة ، ونعاصر القرون الوسطى أو ما قبلها أو ما بعدها فى ناحية أخرى ، ونكون متمدنين من وجوه وبرابرة همجيين من وجوه

نذكر للقارىء مثالا واضحاً لما نقول . قبل كتابة هذه السطور بيضعة أيام ، أتيت لى الفرصة لحضور حفلة زفاف مصرية مسيحية . وكان أهل العروسين على قدر من الجاه ، وكان المنزل تبدو عليه دلائل النعمة والثروة ، وكانت عمارته تشف عما انطوى عليه ذوق المهندس الذى رسمها ، ومهارته فى التنسيق والزخرفة وتوفير أحدث وسائل الراحة والرفاهية

كذلك الغرف التى خصصت لمقام العروسين قد بولغ فى تجميلها وتنسيقها وفرشها بأغفر الأثاث من مصانع ميل Maple الشهيرة بالجلترا ، والبسط الفارسية الغالية . وكان المدعوون أيضاً من متوسطى القوم وسراهم يرتدون ملابس السهرة ، وكانت حلى السيدات وأرديتهن تتلأأ تحت عقود الكهرباء المتناثرة فى كل مكان . وصفوة القول أن مدينة القرن العشرين وفنونها الجميلة ، من مياهها الجارية فى الانابيب ، وتياراتها الكهربائية ، فى الأسلاك والمصابيح ، وملابسها الفاخرة ، ووسائل الترف والنعيم ، جميعها قد تجلت فى هذه الحفلة

يبدأ أنه للأسف لم تبدأ مراسيم الحفلة الدينية في الظهور ، حتى أصبح الحاضرون في واد وجميع المظاهر الأخرى في واد آخر . فكان لولباً قوياً أدار المنزل بما فيه من مدينة القرن العشرين ، على بكر سريعة العدو ، إلى العصور المظلمة ، أو القرون الوسطى . حضرت طائفة القسيسين ، ومعهم رهط من الصبية بملابسهم الرسمية الشاحبة اللون ، وعدد من فاقدى البصر ، ينشدون الألحان الدينية بأصوات مرتفعة ومنخفضة ، منخفضة ومرتفعة ، جشاء غير مهذبة . ثم طلب من بعض هؤلاء قراءة بعض فقرات من كتب يحملونها ، فكانت القراءة سريعة ، مشوّهة ، وكانت لغتها ركيكة ، سقيمة ، فلا هي فصحي ولا هي دارجة

وكان أتباع القسس يسعلون ويعطسون في وجوه الحاضرين ولا يراعون أبسط قواعد الآداب ، نظراً للبيئة المتأخرة التي نشأوا فيها . وكانت النتيجة أن الحاضرين كانوا لاهين عنهم ، منهمكين في أحاديثهم وقد دامت هذه الحفلة أكثر من ساعة ونصف ساعة حتى كاد يغى على العروس من شدة الزحام والانتقباض

ولا أكون متهمكاً إذا قلت أن الناس كانوا أكثر إصغاء للمغنيين والمغنيات الذين واللاتى أعقبن الحفلة الدينية ، وكان النظام وحسن التوقيع وحدثات الآلات الموسيقية ، واتباع الطرق العالمية ، أكثر توافراً في حفلة الطرب منها في الحفلة الرسمية . وإذا أضفنا إلى هذه ولية العشاء وما أبدى فيها أيضاً من مظاهر المدنية ، حكمنا لأول وهلة ، إن حياتنا الدينية لا تزال

على ما كانت عليه منذ مئات أو ألوف السنين ، في حين أن مرافقتنا الأخرى
تسير الى الامام وتمشى مع العصر الحاضر
أكرر القول أننى لا اعنى بأقوالى هذه الا امراً واحداً ، وهو انه يجب
أن تعلم لنعيش اى نسخر العلم فى ترقية جميع مناحى الحياة . والا تقضنا عنا
الناحية المتأخرة ، أو سخرنا بها ، أن لم يكن تصريحاً قاطعاً ، وأننى أوكد
للقرء أن كل منصف ، خال من الاغراض ، يفكر تفكيراً حراً ، يشاركنى
فى القول أن كثيراً من مظاهر العيش بيننا لا يتفق مع القرن العشرين . وما
الذى ذكرت إلا مثالا واحد لعشرات أخرى شبيهة به

أن مخترع العجلة ذلك السلف المجهول ، قلب نظام المجتمع ، أكثر مما
فعل مخترع الأتوموبيل . غير أن العجلة أصبحت شطراً من حياتنا اليومية ،
حتى أصبحت أهميتها نسبياً منسياً . عجلات السيارات والقطارات تنهب الأرض
نهباً ، عجلات السفن التجارية تدفع امواج البحار امامها وتقذفها قذفاً ، عجلات
الطائرات تحترق حجب السماء فى طيات الهواء ، وكلها تنبىء عن فطنة مخترعيها
كان أهل أسبارطه فى عهد قدماء اليونان يعلمون شبيبتهم فنون القتال
ولكن ليس على السبورة ومن الكتب والمؤلفات ، بل بالعمل . فهل نريد
أن نعلم أولادنا فنون القرن العشرين بمجرد إستظهار ما فى الكتب ؟ ألا
نعلم طلبتنا فى مصر الكهرباء ولكن قلما نجد طالباً يستطيع إصلاح النور
الكهربائى أو تركيب أجهزته ؟

قد نتعلم من الكتب ، من الصور ، من السينما . ولكن اليس أفضل من ذلك أن ندرس نماذج حية لتطور وسائل النقل مثلاً ، من عربة قديمة إلى عربة القرون الوسطى ، إلى عربات ذات أطر إلى اتومبيلات وقطارات تجارية وسفن بخارية وطائرات الخ . اليست هذه النماذج أكثر وضوحاً من الكتب ؟ إننا نحتاج في مدارسنا إلى نماذج من الطامبات ، والمصاعد الكهربائية والسكك الحديدية التي تحت الأرض ، ونماذج للمناجم والمحاجر وآبار الزيت والنظام الشمسي والذرات والآلات ، كما نجد في مونيخ في المتحف الاهلي وفي متحف لندن وفي متحف فينا . ويوجد في معظم مدن أميركا مثل هذه المتاحف ، وبعد قليل ينشأ في نيويورك ٢٤ متحفاً لأهم النماذج ، فيستطيع التلميذ أن يشاهد في ربع ساعة ما يجري في القبة الزرقاء في سنة ، تحت إرشاد معلم قدير . وهذه الكيفية يقل اعتمادهم على مطولات كتب الفلك

وربما كان أهم هذه المتاحف اليوم متحف مونيخ الذي يؤمه الطلبة وغير الطلبة من جميع أنحاء العالم وخصوصاً من ألمانيا فيمكثون فيه يوماً كاملاً لمشاهدة ودرس تاريخ العلم والصناعة دراسة عملية من نماذج حية عاملة . وقد أتيت لي مشاهدة هذا المتحف عدة مرات وهاكم وصفاً موجزاً له : — نماذج ناطقة حية متحركة للآلات البخارية ، والقوات المائية ، ومناجم الفحم والحديد ومد الخطوط الحديدية ، وبناء السفن ، وشرح النظريات الطبيعية والحرارة والضوء والصوت والمغناطيس والكهرباء واللاسلكي

وأشعة أكس بأجهزة ضخمة متينة ، يستطيع الزائر نفسه إستعمالها . مثلاً بضغط التاميز أو الزائر أياً كان على زر في أسفل شعبتين زجاجيتين ، أحدهما مملوءة بعنصر الأوكسجين والثانية بالأيدروجين ، وفي الحال يختلط العنصران معاً بالطريقة المعروفة لمن يدرسون مبادئ الكيمياء ، فتحدث فرقة شديدة يعقبها تكوين الماء . هناك تجد معملاً كبيراً للجيولوجيا وآخر للتاريخ الطبيعي وغيرهما للفلك . وإذا صعدت إلى الطابق الأعلى شاهدت القبة السوداء المتحركة العظيمة ، ورأيت الناس داخلها ، يقاملون النجوم والكواكب تسير في أفلاكها . فيخيل إليك وأنت في تلك القبة الضخمة المتحركة أنك في جوف واد رهيب مظلم وقبة السماء الزرقاء فوقك ، بنجومها الساطعة المتألقة ومجرتها تشق الفضاء كالنهر يحترق الوادي ، وزحلها ومريخها وزهرتها وقرها تتلو عليك حكمها ، بلسان فلكي عالم كبير من موظفي المتحف ، فيضغط على زر تحت يده فتصبح كل الكواكب طوع يده ورهين إشارته ، يأمرها فتغيب ويأمرها فتطلع

ولا بدع إذا أصبحت مدارس ألمانيا بعد الحرب العظمى غير ما كانت عليه قبلها . ففيها يكلف الطالب أن يتخير عدداً قليلاً من المواد الدراسية المعلومة مضافاً إليها بعض الاعمال اليدوية

ولولا ضيق المقام لجئت بوصف مسهب للمدارس في روسيا وما وصلت إليه من التجارب الحديثة في التعليم رغم اختلال نظمهم الاجتماعية والسياسية ، وكيف أن نظام الدراسة قد انقلب فيها وفي غيرها من ممالك العالم حتى

أصبح التاريخ يبحث في التطور الصناعى والزراعى والاجتماعى بدلا من الحروب والثورات ، واصبحت الجغرافيا تبحث فى البشرية وعلاقتها بالبلدان ، بدلا من البلدان وتقومها مستقلة

رأيت مرة تلاميذ يدرسون الجغرافيا فى الحديقة فى مدرسة ابتدائية فى أميركا. وشاهدت خريطة العالم، وهى قطعة من الارض منزرعة ، قام بزرعها التلاميذ وبينوا عليها بزهور مختلفة الالوان حدود الدول ومراكز الصناعة والعواصم والأنهار والبحار. وكنت أنظر اليها من شرفة عالية ، فكان منظرها والطلبة حولها أبدع ما تقع عليه عين

ونقتبس هنا كلمة من كاتبة أميركية مربية كتبتها عقب زيارتها لروسيا : —

نظام التعليم فى روسيا

لا يخفى أن روسيا بلد زراعى واسع الأرجاء ، موزع السكان ، متباعد القرى . ومن الصعب أن تشيد مدارس كبيرة فى أما كن متوسطة يؤمها التلاميذ من القرى المجاورة ، نظراً لبعد المسافات ورداءة الطرق إذ كان القياصرة لا يحفلون بأصلاحها ، ومراعاة لفقر السكان وقلة الملابس والاحذية خصوصاً فى فصل الشتاء . لذلك كان من المحتم تشييد المدارس الصغيرة فى القرى حتى يؤمها تلاميذ القرية ولو كانوا حفاة الأقدام وعراة الأبدان ولا بد أن يجول فى نفس القارئ هذا السؤال . ما نوع المدارس فى روسيا؟ وللإجابة على ذلك يجدر بى أن أذكر للقارئ أن حكومة القياصرة

لم تشيد مدارس عامة لأبناء الشعب كما في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وولايات
أميركا المتحدة، وغاية ما في الأمر أنهم شيدوا مدارس للأغنياء لأبناء
الأشراف وبناتهم. وكان يطلق عليها اسم (جمنازيم) Gymnasium، وما عدا
مدارس الأشراف والمدارس الحربية لم يكن في روسيا سوى عدد قليل جداً
من مدارس الشعب. هذه المدارس كانت محدودة المناهج حتى لا يتسنى
لخريجها دخول مدارس الجمنازيم والاختلاط مع أبناء الأغنياء. وقد أرسل
وزير المعارف مرة منشوراً لرؤساء مدارس الجمنازيم شدد فيه عليهم بأن يضعوا
العقبات في سبيل الالتحاق بتلك المدارس. ومما جاء في هذا المنشور ما يأتي
حرفياً: « لا تسمحوا لأولاد الطهارة ان يلتحقوا بمدارس الأشراف. بل
استفهموا أولاً عن ثروة والد الطالب ووظيفته، ومساحة المنزل الذي يقطنه، وعن
عدد الغرف التي يتكون منها هذا المنزل، وعن معيشة أسرة الطالب، ومراكز
أفرادها الاجتماعية. » ولما كانت طبقة العمال في روسيا تعيش في أحياء ومنازل
مكتظة بالسكان الفقراء المعدمين، فأنت المدارس المشار إليها قد أقفلت
في وجوههم

قد كان لرجال الثورة الأيدي البيضاء في قلب هذا النظام الذي يفرق
بين الغني والفقير حتى في ارتشاف مناهل العلم. وكانت باكورة مجهودات
مجلس التعليم العام في روسيا وضع منهج عام للمدارس الحديثة في روسيا،
أطلق عليها مدارس العمل، بعد أن قضى أعضاء المجلس زمناً طويلاً في

إقامة المؤتمرات للمعلمين وأخذ رأيهم في أكثر المدارس لزوماً في روسيا
وأشدها سداً لحاجة البلاد

ووضع بلونسكي أشهر رجال التعليم في روسيا كتاباً سماه مدرسة العمل،
ضمنه كل كبيرة وصغيرة في نظام التعليم الحديث في روسيا، وهو أشهر ما
كتب في هذا الصدد، وكل ما دون بين دفتي هذا السفر الجليل يعبر تعبيراً
خالصاً عن آراء جميع معلمى روسيا

وحتى نفهم جيداً نظام مدارس العمل الروسية ينبغي أن ندرس آراء
بلونسكي. إن مدارس العمل في روسيا تختلف كل الاختلاف عن مدارس
العمل الألمانية التي يطلقون عليها اسم (Arbeitsschule) والتي يقصر التعليم
فيها على الأعمال اليدوية البحتة. في هذه المدارس الألمانية يدرّب الأطفال
على مراعاة منتهى الدقة والأتقان في صنع الأشياء التي يكلفون بعملها. ويقول
بلونسكي إن هذا النوع من التعليم إنما هو ضرب واحد من ضروب التربية
ولا يمكن الأقتصار عليه إذا أردنا أن نهبيء النشء إلى حياة شيوعية تتطلب
التعاون بين أفرادها. إن الغاية التي يرمى إليها الألمان بنشر مدارس
العمل هي اذكاء نار القومية، لأن شعار تلك المدارس «ألمانيا فوق الجميع»
(Deutschland, Deutschland, über Alles) أما نحن الروسين
فشيوعيون ويجب أن نربي النشء الحديث على مبادئ التعاون الاشتراكي
بين جميع الأمم. وبذلك يقابل العالم هذا النوع من التربية بمنتهى الأجلال

والاحترام . إن الأعمال اليدوية المشار إليها في ألمانيا لا تتفق مع التقدم
المفنى الحديث . إن الأعمال اليدوية وحدها بغير تثقيف من بقايا العصور
المظلمة . يجب أن يكون المشتغلون بالأعمال اليدوية فنيين ، الحوذى والخياط
وعامل الطباعة والنجار والحداد كل في صناعته . ففي عصرنا الحاضر تقوم
الآلات بمعظم الأعمال وما على العامل إلا الألمان بأدارة الآلات وملاحظتها .
إن الأعمال اليدوية في المدارس الألمانية تعلم الطفل العمل بمفرده كما في
العصور الوسطى ، ولكن المصنع اليوم يحتم على ألوف العمال أن يتعاونوا
معاً لأن نجاح الواحد موقوف على زملائه

يجب أن تكون المدرسة المعاصرة صناعية بالمعنى المفهوم في عصرنا
الحديث ، أى ينبغى أن توضع الأعمال اليدوية فيها على قدم المساواة مع
الجغرافيا والتاريخ والرياضة وسائر المواد ، فلا ينبغى أن تكون المدرسة
مختصة بالمواد الدراسية البحتة ولا ينبغى أن يكتفى بالأعمال اليدوية البحتة ،
بل يجب أن تتخلل المواد المعروفة الأعمال اليدوية . إن المجتمع الذى نعيش
فيه اشتراكى ، فينبغى أن يكون العمل موضع احترام الجميع وينبغى أن يعود
الأطفال أن يعملوا متعاونين متكاتفين . إن الأطفال بطبيعتهم ميالون إلى
تقليد والديهم ، شغوفون بأعمالهم ، نزاعون إلى الاحتراف بما يحترفون به .
فإن السماك تواق إلى الذهاب إلى مجارى المياه لصيد الأسماك ، وابن
البدال يلذ له تقليد والده فى وزن الأشياء ، وبنت الخياطة شغوفة بتفصيل
الملابس وخياطتها . وحرى بنا أن نذكر أن مهنة الوالد أو حرفته هى نواة

معارف الطفل . وعلى هذا الأساس بنى فروبل ^(١) وبستالوزي ^(٢) نظريتهما .
وآراء بلونسكي هي في الحقيقة توسيع للدائرة التي رسمها ذانك العالمان
وجان جاك روسو أيضاً

يقول بلونسكي أن الواجب على القائمين بشؤون التربية لا ينحصر في
تفاصيل المواد الدراسية بل في خلق روح اشتراكية عامة بين المتعلمين . لا
ينبغي أن تكون وظيفة المعلم « التعليم » بمعناه القديم المتداول ، بل يجب أن
يكون رفيقاً ومعيناً لتلاميذه . أن أفضل ما يقوم به المعلم مراقبة تلاميذه
في أعمالهم وألعابهم وتفهم شخصيتهم وأخلاقهم وميولهم . وينبغي أن
يضع المعلمون في أيدي الأطفال ، حتى في مدارس الروض ، الأدوات
والآلات حتى يستخدموا أيديهم ويتعلموا منها ما لا يجدونه في الكتب
والأوراق . ينبغي أن تكون الأدوات والمصنع الصغير في مدارس روض
الأطفال أحب الألعاب لدى الصغار

ومن المهم جداً أن تنبه في الطفل عاطفة العمل ولا يتأتى ذلك إلا باستخدام
الآلات ، كالدمى التي يلعب بها الأطفال والسفن والقطارات والطواحين

(١) Frobel (١٧٨٢ — ١٨٥٢) وهو مؤسس مدارس روض الأطفال ومبتدع
الفلسفة الجديدة في التربية التي كان لها أعظم تأثير في علماء التربية الذين جاءوا بعده ،
وهو ألماني الأصل

(٢) Pestalozzi (١٧٤٦ — ١٨٢٧) من أكبر معلمي التعليم وهو سويسري
الأصل وكان يحمل نظريته في التربية أن الطفل بولد مزوداً بفرائض طبيعية محدودة وما
على المدرسة إلا تمتعها وتوسيع نطاقها وتهذيبها

وغير ذلك . وقد بين كارل جروس (Karl Groos) من أكابر علماء النفس
الامان أهمية غريزة اللعب في حياة الطفل . واللعب من الأمور الجدية عند
الأطفال كالأشغال عند الكبار . إن أطفالنا في حاجة الى الفهم والعطف
ولكن المعلم من الطراز القديم لا يفقه لهما معنى . وقد وصف الكاتب الروسى
العظيم أنطون تسشيكوف (Anton Tschkov) مثل هذا المعلم في رواياته التى
عنوانها « الرجل فى الصندوق » ، بقوله « إن المعلم من الطراز القديم معدوم
الابتكار والتفكير ، وهو يسير وراء خطة موضوعة وقوانين مسنونة وطرق
رسمها رؤسائه ، ولا تتجه عيناه الى مثل أعلى ولا يثق بنفسه ولا بطبيعة الطفل
الذى يريه ولا يؤمن بقوة التربية وقيمتها التى لا حد لها ، وتلاميذه اعداؤه
الألداء الذين لا يفتأ يشاكسهم ويحاربهم ، وهم بدورهم يخافونه ويعتقونه أشد
المقت . فبدلاً من الحب والاحترام اللذين كانا يجب أن يسودا فى غرفة
الدراسة ، لا تجد سوى الكراهية والنغمة التعليمية التى تسير على وتيرة واحدة .
إن المعلم من الطراز القديم لا شغف له بعمله ولا يضر حجباً لتلاميذه ، وما هو
إلا موظف روسى من أحط الطبقات ، يعامل الأطفال بغير اكتراث كأنهم
أمامه جمادات لا روح فيهم . وروح التعليم عنده مستمدة من الكتاب لا غير .
وكل موضوع يلقيه فى حصة الدراسة ينتهى بانتهائها ولا علاقة له البتة بأى
موضوع آخر . وعلى هذا الاعتبار يكون اليوم المدرسى بمثابة معرض لصور
متعددة من المعرفة والعلم لا يفهم منها الطفل شيئاً الا كما صورده لنا الكاتب
الانكليزى دىكنز فى كتابه المعروف باسم « حانوت للعباديات »

(The Old Curiosity Shop) ، المعلم القديم يحنق على الأطفال اذا ما وجهوا اليه الاسئلة ، وهو بذلك يقتل فيهم الحياة والنشاط والشغف والحماس عند ولادتها . إن هذا النظام العتيق لا يخرج إلا عقولاً عاطلة يطبع فيها ما يملكه المعلم . إن الأطفال يجب أن يتعاملوا من الحياة . والطبيعة والبيئة خير معلم لهم »

يقول بلونسكى أن الربيع والصيف أفضل فصول السنة ملائمة للأطفال ، ومع ذلك فإن العطلات لا تمنح إلا في هذين الفصلين ، وهذا مما يؤسف له : يجب أن يكون لكل مدرسة قطعة من الأرض ينصرف إليها الأطفال للعمل بلذة وسرور وفيها يدرسون علمى النبات والحيوان ويراقبون نمو الأشجار وكيفية تركيب الأزهار والدور الذى تلعبه الحشرات فى نمو الفاكهة وظهورها

على هذه القطعة من الأرض يتعلم التلميذ أيضاً التجارب الزراعية ، وتفهم الفروق الجوهرية بين الأرض الخصبة والقاحلة وكيف تصلح الأرض فتصبح قابلة للزراع . على هذه القطعة من الأرض ينبغى أن يتعلم التلميذ شيئاً من المبادئ الأساسية فى الهندسة والجبر ، وذلك بتقسيم الأرض إلى قطع صغيرة يعهد إلى كل تلميذ بقطعة منها ويطلب منه تقسيمها إلى مربعات ومثلثات ودوائر ، بذلك يقيس الخطوط المستقيمة والدائرة ويجد مساحة الأشكال إلى غير ذلك . على هذه القطعة من الأرض يتعلم التلاميذ كيف يعمل الفلاح وكيف يستخدم آلاته وكيف يعيش الفلاحون

في روسيا وأمثالهم في البلدان الأجنبية
أن هذه التجارب الزراعية لا تعلم الاطفال فقط كيف يراقبون كل
كل ظاهرة طبيعية ويدرسون ما وصل اليه العلم عنها ، بل تعلمهم فوق ذلك
كيف يعملون جنباً الى جنب مع جيرانهم ويتعاونون معهم . على هذه القطعة
من الارض يتعلم الاطفال ايضاً التاريخ . فيدرسون شيئاً عن حياة البشر في
زمن الفطرة ، وعاداته ومعتقداته وبذلك تتسع مداركهم ، والأطفال بطبيعتهم
مولعون بالاصغاء الى الحكايات التاريخية عن الهنود والزنوج وحوادث
البشر قبل أن ينبثق فجر المدنية . ويشمل ذلك الآلات التي كانوا يستخدمونها
والاختراعات التي جادوا بها وأنواع المنازل التي كانوا يسكنونها

في سنة ١٩٢٣ ظهر مقال شائق عن الطريقة الحديثة لتعليم التاريخ ،
وقد نشرته مجلة روسية اسمها « الطريق الى التربية » وكان هذا المقال ملخص
تقرير لدرس ألقاه أحد كبار المعلمين على تلاميذ مبتدئين ، وأخذ ملخص
هذا الدرس بالاختزال . ومجمل هذا الدرس أن المعلم وتلاميذه قاموا بأبحاث
مفيدة تتعلق بحياة الإنسان في زمن الفطرة فجاءوا الى الفرقة وهم يقلدون بني
الإنسان رجالاً ونساء في حياتهم وطرق معيشتهم . وبذلوا جهدهم في إدراك
نفسية الشعوب القديمة والوقوف على المصاعب التي كانت تعترض سبل نجاحهم
والحاجات التي اضطروا اليها فاخترعوا وابتكروا . وبعبارة وجيزة كان الدرس
المشار اليه صورة مجسمة من الماضي . ولا غرابة في ذلك فإن الطريقة الحديثة

لتعلم التاريخ تقضى على التلاميذ أن يعيشوا فى الماضى . ويعبر الألمان عن ذلك بقولهم (Einfühlen) ويقول غوته (Goethe) أن روح الماضى كتاب مختوم

أن عقل الطفل وخياله وتصوراتہ والدوافع الأحساسية فيه وغموض الفرق عنده بين الحقيقة والخيال كلها تدل على أنه أقرب إلى الإنسان فى زمن الفطرة. فليدعه المعلم أذن قريباً من حياة الفطرة حتى يكون سعيداً مغتبطاً . وبهذه الكيفية يتعلم من تلقاء نفسه أضعاف ما يتعلم لو أصبح آلة عاطلة تلتقط ما يلقى عليها . ويقول بلونسكى موجهاً كلامه للمعلم « لتكن حياتك حياة الفلاح الذكى ، وإننى أؤكد أن حياة هذا الفلاح تعلمك وتعلم تلاميذك كما علمت ملايين منهم فى طيات الماضى » وهذا هو مجمل منهاج مدارسنا وليس لناسواه ولا بد أن تكون مدارسنا عملية . ولما كان النظام جديداً عندنا لم يسبق لنا عهد به ، فلا بد أن نخطط فى بادئ الأمر خبط العشواء ولا بد لنا أن نتبع طريقة المشروع . ولا بد لنا أن نكثر فى مدارسنا من الرحلات العلمية : وعند العودة من كل رحلة نكثر من التحادث والمناقشة واستخلاص المعلومات والحقائق وكتابتها وقراءتها وحل المسائل الرياضية المتعلقة بها . ويقول بلونسكى أنه فى السنوات الدراسية السفلى لا ضرورة للكتب مطلقاً ويحسن أن تمهد الوسائل للأطفال حتى يعيشوا فى فصل الصيف كما عاش روبن سن كروزو فيضطرون أن يهيئوا لأنفسهم بأنفسهم كل ما يحتاجون إليه وبذلك تصح عقولهم وتتقوى أجسامهم فى الوقت عينه لأن العقل السليم

في الجسم السليم، أو (mens sana in corpore sano)، فضلاً عن تربيتهم على الشجاعة والاعتماد على النفس وقوة الإرادة. وقد قال روسو الفيلسوف أنه في مثل هذه الحالة يكون شغف الأطفال بالتعلم أشد من شغف المعلم بالتعليم. أن مدارس روسيا قد سئمت تعليم الطفل كما يتعلم البيغاء. ووطدت العزم على أن يكون معلم التلميذ شغفه أكثر من كل شيء آخر.

في مدارس روسيا اليوم يتعلم التلميذ الطبيعة والكيمياء بزيارة المصانع والقيام بالرحلات العلمية فضلاً عن توافر هذه المصانع في المدارس نفسها. أن النظام القديم الذي كان يفصل بين الدروس النظرية والعملية قد قضى عليه. والأعمال اليدوية اليوم ضرب من ضروب الشرف والعظمة ولو كانت تنحصر في كس الشوارع وتنظيف الغرف والمنازل. أن الفخر الذي يشعر به الطالب الروسي اليوم بالأعمال اليدوية لا يقل عن الفخر الذي يشعر به سكان ولايات أميركا المتحدة. ولا يعزى هذا التغيير العجيب في عقلية الروسيين إلا إلى النظام الاجتماعي الحديث ومعاهد العلم الحديثة.

وأول ما يلاحظه النظام الحالي من الصعوبة هو المعلم من الطراز القديم، وهو المعلم الذي لا يستطيع أن ينسى النظام العتيق ولا قدرة له على تكييف مادته ومواهبه بشرط أن تلائم النظام الجديد. وهناك صعوبة أخرى لا تقل عن سابقتها وهي شكوى بعض الأهالي من هذا النظام لأنهم يقولون بكل صراحة «أنتم معشر المعلمين من الطراز الحديث لاتعاملون التلاميذ سوى الرسم والغناء والمشي»

وليس هناك متسع من الوقت للتكلم عن طريقة المشروع وطريقة دالتون وغيرهما من الطرق كثيرة الأنتشار في روسيا اليوم^(١)، غير أنه يجدر بنا أن نبين في ختام هذه المقالة بكلمة وجيزة الفرق بين المدرسة القديمة والمدرسة الحديثة فيما يلي :

في المدرسة القديمة كانت تكون شخصية المتعلم بواسطة الدرجات والمكافآت والعقابات واللوم والتقريع، فكنا نجد أن من يطلق عليهم اسم أفضل التلاميذ لم يصلوا الى هذه الدرجة الا بالغرور والبواعث الكاذبة . أما في المدرسة الحديثة فلا توجد درجات ولا توبيخ ولا مديح ولا أفضل التلاميذ ولا أكسلهم . ولا يتقدم المتقدمون إلى الأمام بواسطة الغرور والمطامح الكاذبة بل بالشغف واللذة وحب العمل . والفكرة الأساسية في المدرسة الحديثة هي أن يكون الدرس مصدره اللذة لأن اللذة تلد معرفة . فواجب المعلم والغاية التي يجب أن يسعى إليها هو إيقاظ روح اللذة في تلاميذه

وهنا نذكر شيئاً عما سبق نشره عن التربية في روسيا ، لنعلم الجهود التي بذلها الروسيون في زمن قصير : —

كان لا يخطر ببالنا قبل اقتباس هذه الكلمة من الاستاذ الاميريكي واشبرن . أن في روسيا البلشفية شيئاً خائفاً بالأعجاب والثناء . أننا قبل أن نبعث بهذا المقال لنشره قدمنا رجلاً وآخرنا أخرى لما يخلج نفوسنا من الريبة والشك في كل شيء عن تلك البلاد

(١) اقرأ هذه الاساليب في مجلتنا التربية الحديثة

واسعة الأرجاء التي قوضت دعائها الشيوعية الممقوتة . ولما كنا نثق بالكاتب القدير ، شاهد الميائين ، الذي دبح يراعتة هذه الرسالة وصفاً لما رأى بعينه وسمع بأذنيه ، ونوقن بصدق روايته ودقة بحثه فاننا نرف رسالته ، مأخوذين ، دهشين بما بلغته معاهد روسيا العلمية في هذا الزمن العصيب الذي ذاق فيه سكانها مر العذاب وألم الجوع والبرد والاضطهاد والاخلال بالنظام

يظهر أن روسيا اليوم أشد أمم العالم اعتقاداً بأن الوطن يبدأ تكوينه بين جدران المدرسة . فهي تحاول بكل ما أوتيت من قوة ومال وجهه أن تعد الجيل القادم للأخذ بيد الاشتراكية ، ولتنظر الى العمل والعمال بعين التبجيل والاحترام ، وبتقديس حقوق العمال وتخويلهم حكم أنفسهم بأنفسهم فالمدرسة عندهم ترمى الى غرض واحد محدود واضح وهو تخرج عمال مهرة مدربين لخدمة روسيا الشيوعية . ويضع القائمون بأمر المدارس أمام عيونهم توطيد دعائم الصحة بين الطلبة وتشجيعهم على إطلاق العنان لنفوسهم حتى يفكروا ويبتكروا فيشربون على مبادئ الاشتراكية المادية مع جانب عظيم من الثقافة المشوبة بالاحاد (لسوء الحظ)

نظرة برية الى ممارسي روسيا

يجدر بي أن أقول في بادئ الأمر انني حينما أقدمت على درس نظام التعليم في روسيا ، كان لي مطلق الحرية أن أزور من المدارس ما شئت ، أي أنني لم استأنس في زيارتي برأي أحد من ولاة الأمور هناك منعاً للقليل والقال وتجنباً لما يقال في معظم الأحوال من أن السياح في روسيا مسيرون لا

مخبرون في الاطلاع على نظم روسيا على اختلاف أنواعها، وأن ولاية الامور هناك يسوقون الزائرين كالأغنام الى أماكن مخصوصة يريدونهم على أن يشاهدوها، ويحرمون عليهم غيرها. فدفعا لهذا الزعم كنت أضع أصبعي على خريطة روسيا فأختار منها مكاناً أشد رحالي اليه وهناك أزور مدارسه

وقد تيسر لي أن احادث خمسة عشر موظفاً من موظفي إدارة التعليم، من لنسا كارسكي مدير التعليم العام في روسيا الى أقل المعلمين شأنًا، وكانت بعض هذه الأحاديث تدوم من ساعتين الى أربع ساعات. وقد اتيج لي أيضاً أن أخطب أربعة وثلاثين معلماً وناظراً في جميع طبقات التعليم ودرجاته وأنواعه في المدن الآهلة بالسكان والأرياف والقرى. ولم أحاول مرة أن أخفي حقيقة أو أبالغ في وصف اخرى. والحق يقال أن المعلمين والموظفين من رجال التربية كانوا يجيبون عن اسئلتى بكل صراحة ويمدونني بالمعلومات الصحيحة بغير محاباة وبغير اتخاذ خطة الدفاع عن نظمهم الحديثة. ولا أنسى مساعدة رجال التعليم لي في كل ما أردت الوقوف عليه. ويجدر بي أن أذكر أيضاً أن كل معلومات تصلني كانت تؤيد سابقتها في كل وجه من وجوه التربية

ولما أرادت روسيا السوفيتية أن تشيد مدارسها الحديثة وتؤلف نظمها ودعت تقاليدها الوداع الأخير. فلم تكدها تنهار معاقل القيصرية وحصون الاستبداد حتى تآقت نفوس السكان الى إيجاد نظام عام لتربية عامة لكل أبناء الأمة من بنين وبنات من سن الثالثة الى الجامعة. وقد روعي في هذا النظام

أن تكون التربية واحدة لجميع طبقات الامة ولم يحرم أحد ولوج باب المعاهد العلمية التي يرغب فيها في أى زمان وأى مكان . ولم يبق من نظام التعليم القديم شئ ، وقد كان مبنياً في عهد القيصرية على المبادئ النظرية من أدبية وعلمية ، وقد أستبدل بكل هذا مدارس عملية محضة

وقد استعارت روسيا أحدث الطرق من جميع انحاء العالم . فالعلمون والمشتغلون بالتربية هناك يدرسون بكل دقة فلسفة جون ديوى ويتبعون نظام دالتون وطريقة المشروع والتربية الصناعية والتعليم المشترك بين الجنسين وكل ما تصل اليه أيديهم من طرق التعليم الحديثة المنتشرة اليوم في أوروبا وأميركا

ولست أبالغ إذا قلت أن نظام التعليم في روسيا اليوم ، رغم مناهجه المحدودة في جملته أحدث نظم التعليم في العالم ، طريقة ومادة ، وأكثر نجاحاً وما يقال عن شمال روسيا أو شرقها ينطبق على ما في جنوبها أو غربها لأن النظام فيها يتجه الى المركزية التامة ، أى أن السلطة المركزية في موسكو حيث توجد ادارة التعليم المعروفة باسم نار كومبروس الذى يرأسها لناكارسكى . فادارة التعليم هي التي ترسم النظام العام ، وتضع خطط طرق التعليم والمستوى الذى ينبغى بلوغه . والأدارة هي التي تعد الكتب المدرسية المقررة والتي منها دون سواها يختار مراقبو التعليم ما شاءوا منها . والأدارة هي التي توفد المفتشين والمراقبين والاختصاصيين الى كل نوع من أنواع المعاهد

أما تعيين المدرسين وتخير الكتب الدراسية وإعداد الميزانيات المحلية

وتفاصيل الاشراف على المدرسين - كل ذلك يوكل أمره الى المديرية او الولاية الكائنة بها تلك المدارس . وبالاجمال فإن المركزية في روسيا في التعليم بالغة حدّها

أما التعليم المشترك بين الجنسين ففي جميع المدارس بغير استثناء : في الابتدائي والثانوي والعالي ، فالبنت والصبي عندهم سيران . ولا شك أن هذا ليس بالجديد عندنا نحن الأمريكيين ، غير انه قد يكون غريباً في ممالك أوروبا التي لا تزال فيها البنت في معزل عن الصبي في المدارس الثانوية ولوانها تجلس بجانبه في المدارس الابتدائية والكلية والجامعة

كذلك تتساوى المعلمات في مرتباتهن بالرجال ولا يوجد هناك أدنى تمييز بينهما . أما المدارس الخصوصية فلا وجود لها بتاتاً ولا يجرؤ أحد على انشائها . كذلك لا توجد مدارس أو كليات طائفية أو دينية ، فالتعليم في روسيا لا يمكن أن يحصل عليه طالب الا في مدارس الحكومة

بمفراطنة الطلبة

التأديبات البدنية ممتنعة بتاتاً بالطبع ، وفوق ذلك فإن الطلبة يسرون الفرقة على نظام الحكم الذاتي بدلاً من القاء تبعه النظام على عاتق المعلم . وقد قال لي مرة حارس القطار في إحدى سكك حديد روسيا أن المعلم اذا كان قاسياً في معاملته ، صارماً في خطته ، عقد الصغار (التلاميذ) اجتماعاً ورفعوا الى المفتش قراراً يطلبون فيه استبدال المعلم

ويتلقى الطلبة بدل تاريخ روسيا القديم ، تاريخ الثورة ومشاكل العمال ، وما يتعرض روسيا اليوم من الصعاب

والمدارس صريحة في تعليم تلاميذها مبادئ المادية
لقد كان أله الروسين الى عهد قريب أله الكنيسة الارثوذكسية ، وهو
الاله الذي كان يعين القياصرة تعييناً مقدساً فيحكمون الشعب ، وهو الأله الذي
كان كهنته يمزجون الدين بالخرافات والباطيل ويحثون الناس على التسليم
لسلطتهم تسليماً أعمى

لقد قضت الشيوعية على أولئك القياصرة قضاء مبرماً ، كما قضت على
آلهتهم وكهنتهم . أن حرية العبادة في الكنائس ما زالت مكفولة ، ولكن
السلطات العليا تأمل أن تنقضي بانقضاء هذا الجيل حياة أولئك الذين يرغبون
في العبادة

معظم المعلمين ملحدون ، وقد سألت مرة معلمة عما اذا كانت ملحدة
فابتسمت ساخرة لسخافة سؤالي محيية : « بالطبع ، ألسنت أنت كذلك ؟ »
فسألتها أيضاً « وهل تعلمين تلاميذك الأحاد ؟ » فقالت « لا أقول لهم انه لا
يوجد اله ، فان بعض والديهم لا يزالون يعتقدون بوجود الله ، فاذا علمتهم
العكس قد يخرجونهم من المدرسة ، ولكنني أقول لهم ان الحبة تنمو لان
الشمس والهواء والماء تساعد على النمو ، وأن الرعد سببه قفز الكهرباء من
سحابة الى سحابة وليس سببه الله ، وبعبارة أخرى اتبع هذه الخطة في تعليمي
حتى اذا جاء الأوان يدركون من تلقاء أنفسهم أن الله لا وجود له »

ان مدارس روسيا مدارس العمال ، فهي عملية كثيرة النشاط ، شديدة الاهتمام بالحياة اليومية ، قليلة العناية بمجرد المعارف النظرية التي لا يحتمل استخدامها في الحياة: والحقيقة ان روسيا تعد عمالا لمصانعها وفلاحين لمزارعها وحقولها ، وكتبة لدواوينها ومكاتبها ، ومعلمين لمدارسها ، وليست مهمتها منح الدبلومات والدرجات العلمية التي لا تمهد لحاملها سبل العمل والارتزاق وبالإيجاز تعد روسيا وطنيين متشبعة تقوسهم بفلسفة القابضين على زمام الامور فيها ، والذين يخلدون مبادئهم بواسطة معاهد التعليم . فكأن حكام روسيا اليوم يعلمون ان سلطانهم قد يتقلص ظله ولكنهم يعلمون أيضا ان الترييه في قلوب الجماعات وعقولها لا يمكن استئصالها

نظام التعليم في روسيا وأميركا

نظام التعليم في روسيا وأميركا يتفق في أمور عديدة . فهو الى نظام امريكا أقرب منه الى نظام اوروبا . فالتعليم هناك يبدأ بالمدارس التمهيدية (Pre-school) وهي توازي مدارس روضة الاطفال والسنة الاولى والثانية من المدارس الابتدائية ، ويلتحق بها من تتراوح أعمارهم بين الثالثة والسابعة . ثم تأتي الخطوة الاولى في التعليم او المدارس الابتدائية وعدد سنواتها اربع . وتتلوها الخطوة الثانية ، أي المدارس الثانوية وهي قسمان قسم منها ثلاث سنوات والآخري سنتان ، ومن هذا الاخير ينتقل الطالب الى الجامعة

وربما كانت المدارس التمهيدية (Pre-school) أرقى مدارس روسيا

واكثرها نجاحاً . وقد زرت مدرسة منها في قرية تبعد ثلاثين ميلاً ، عن
موسكو فوجدت الاطفال يشتغلون بفلاحة البساتين ، وقد كان رئيس لجنة
الحداثق وليداً لا يكاد يبين ، في الخامسة من عمره ، وكان هو الذى يقودنى
مع الذين كانوا يصحبوننى في هذه الزيارة ، ويدلنى على الاماكن الحرية
بالزيارة واسماء النباتات والزهور التى نيط بالاطفال زرعها

وقد شاهدت رئيس اللجنة يدعو الاطفال الى ردهة المدرسة لاخت
حمام شمسى ، وفى الحال خلعوا ما يرتدونه من الثياب القليلة وتمدد كل
منهم على معدته عارياً ليعرض بدنه الى حرارة الشمس ، وقد انقسموا الى
فريقين الاطفال الذكور منهم فى ناحية والانات منهم فى الاخرى . وبعد
دقائق قليلة أعطى المعلم اشارة فكانوا يتمرغون على ظهورهم . وفى نهاية هذه
العملية نادى كل فريق معلمه وكان يمد كل من المعلمين رشاش من الماء غمر به
الاطفال واحداً بعد الآخر ، وهم يستغرقون فى الضحك

وبعد ذلك هرع الاطفال الى مناشفهم ففركوا بها ابدانهم جيداً
وارتدوا ملابسهم ، وفى الحال شرعوا فى إعداد المائدة بأنفسهم لتناول طعام
الغذاء ودعانا الاطفال الى الاشتراك معهم فألقينا الطعام صحياً على بساطته
وشياً على قدر الكفاية

وبعد ذلك زرنا غرف الاطفال وحجرة للأعمال اليدوية وأخرى
للموسيقى ومطبخاً وحماماً وغرفة للمعلمين . وقد رأينا فرشاة للاسنان ومنشفة
لكل طفل ، وكان هناك خرائط تبين التقلبات الجوية من عمل الاطفال

ونماذج من الخزف وزوارق وطائرات من الخشب وصور وتماثيل — كلها من عملهم . ومما شاهدناه أيضاً غرف النوم للمعلمين ، فكثير منهم يتخذ في أبنية المدرسة مساكن لهم ، فيتزوجون ويعيشون هناك مع أزواجهم وأولادهم

مدرسة قروية

من أبسط المدارس الابتدائية التي زرناها وأقلها مدنية مدرسة صغيرة في قرية حقيرة وقع عليها نظرنا على الخريطة وهي لا تبعد عن مصب نهر نيفا وقد كنا ذهبنا في رحلة في زورق بخارى الى قرب بحيرة (لادوجا) ومن هناك عبرنا النهر الى الضفة الاخرى في زورق صغير مهشم كانت تغطيه الامواج من آونة الى اخرى فيقوم صاحبه بنزع الماء منه بأناء من الصفيح كان معه . وحالما وصلنا الى الشاطئ رجونا فلاحاً أن ينقلنا بعربته التي كانت مملوءة بالهشيم . فاخترق الحقول والغابات والجداول ومجارى المياه حتى أتينا قرية جورى

وماكدنا نبلغ مدرسة القرية حتى استقبلتنا معلمة بغاية من الخفاوة والترحيب وكانت هذه المعلمة عارية الاقدام فقادتنا الى مصنع الاعمال اليدوية لمشاهدة ما فيه من اعمال الاطفال المدهشة ومنه انتقلنا الى غرف المدرسة حيث اطلعنا على الكتب المدرسية وأشياء أخرى كثيرة ، ربما كان أهمها عندنا تقرير المفتش الذي زار المدرسة ومكث ثلاثة أيام فيها

وقد كان التقرير ضافى الذيل كثير التفاصيل ، يتناول الكلام على بناية

المدرسة وردة اللعب وطرق التعليم . ومما جاء به هذه الفقرة « إن الاطفال في مدرستك (يخاطب المعلمة) تسير العالهم على وتيرة واحدة ولهذا السبب تعزى سآمتهم ، فينبغى تنوع الألعاب وابتكارها وتجنب التكرار المل . وقد بعثت اليك بالمشور رقم ١٨ وفيه تجدين اقتراحات عدة لتحسين نظام الحكم الذاتى بين الاطفال وتجدين فى المشور رقم ٤٠ تعليمات عن نظام المشروع »

وجميع المدارس التمهيدية والابتدائية والفرق السفلى من المدارس الثانوية فى روسيا تتبع طريقة المشروع . مثال ذلك أن يعطى لكل فرقة موضوع خاص لدرسه من كل نواحيه ووجوهه كموضوع الصحة الذى يستلزم أن يتفرق الطلبة فى انحاء القرية ويفحصوا الحالة الصحية ويكتبوا تقارير عنها ويجعلوا هذه التقارير أساساً للمطالعة وعلم الصحة والتاريخ والجغرافيا وغيرها . وقد شاهدنا العناية بالصحة بالغة حدها فى المدارس

طريق النجاح

وطرق المشروع المشار اليها وموضوعاته تحددتها ادارة التعليم المركزية فى موسكو . والوحدة الاقليمية فى روسيا وان كانت حرة فى ادخال النظم التى تراها ملائمة لمدارسها ، الا أن السلطة فى يد الادارة المركزية ، فهى فى مركزيتها اذن شبيهة بفرنسا وليست لها مثل الحرية التى نجدها فى عصرنا الحاضر فى المانيا وانجلترا وأميركا

ورغم مركزية المدارس في روسيا فإن مناهج الدراسة فيها بعيدة عن الجمود . فالتغيير والتعديل يتناولانها على الدوام وقد كانت حالة التعليم تتمشى جنباً الى جنب مع الحالة السياسية منذ قيام الثورة كما يتضح من هذا البيان : —

فمن سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩١٩ كانت القوضى قائمة والثورة مندلاً لحيها ومن سنة ١٩١٩ الى ١٩٢٢ كثرت المشروعات الجذابة والآراء والاقتراحات البديعة بغير جدوى ، وقد كانت كلها حبراً على ورق . ومن سنة ١٩٢٢ الى ١٩٢٥ سرت في شرايين البلاد نهضة عامة ، وعمم الأسف كل مكان على فشل المشروعات السابقة وعدم تحقيق الآمال ، وأخذ الجميع يعملون بجهد وتؤدة ومنذ سنة ١٩٢٥ الى اليوم أخذت روسيا تسير في طريق النجاح . فأبنت المدارس قد تجددت وآثارها القديمة أحرقت واستبدل بها غيرها . وشيدت معاهد العلم في كل مكان

وقد شاهدنا بناية حديثة لمدرسة في لننغراد فوجدناها مشيدة من « الخرسان المسلح » وقد خيل اليها ونحن ننظر الى جدرانها العريضة ، أنها بنيت لتتخذ مدى الأجيال وتهزأ بالاحقاب الطوال . وغرف الدراسة في هذه المدرسة تتخللها حجر الأعمال اليدوية والطهي والخياطة والتطريز ومعامل الطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعي وساحات الالعب الرياضية Gymnasium والجمامات والمرصد الفلكي

ولا أغالى اذا قلت أنني لم أشاهد في حياتي بناء مدرسياً أبعد من هذا

إذا استثنيت بناية تلك المدرسة الثانوية في مينسوتا في بلادنا (ولايات أميركا المتحدة) تلك البناية الفولاذية الضخمة التي بلغت نفقاتها حد الجنون ، وكذلك إذا استثنيت الليسيون في امستردام

ولا تزال مدارس روسيا تن من فقر البلاد وخسائرها الاقتصادية الفادحة التي جلبتها عليها الحرب العظمى والثورة والحصر البحري والمجاعات والأوبئة . ولا تزال التريبة غير عامة ، ومتوسط السنوات التي يقضيها الطفل في المدارس من ثلاث الى اربع . وسيبقى التعليم الاجبارى على ما هو عليه اليوم ألى أن يتوافر لدى روسيا العدد الكافى من المعلمين والمباني المدرسية . غير أن عدد طلبة المدارس اليوم زاد أكثر من خمسين فى المئة على ما كان عليه فى عهد القيصرية

ولا أعرف ، بلاداً كروسيا اتسع فيها نطاق التجارب المدرسية ، فى أميركا وتشيكوسلوفاكيا وغيرها قد انتشرت هذه التجارب ولكنها لم تغفل فى نظمها المدرسية كما حدث فى روسيا

صماسب المعلمين

ويجدر بى أن أقول أخيراً أن أشد اعجابى بنظام التعليم فى روسيا ينحصر فى نشاط المعلمين العجيب ومهامهم المتقد . ورغم مرتباتهم الضئيلة فانهم يكون على اعمالهم برغبة صادقة وهمة لا تعرف الملل ، ولكنهم يعلمون أنهم سائرون من حسن الى أحسن

ويضيّق المقام عن أن أسرد حقائق أخرى عن روسيا وارسم صورة كاملة فيها تمثيلاً تاماً . فأنتى لى أن أحدث القراء عن ثلاثمائة ألف من أبناء السبيل تعتنى بهم روسيا ، وأنى لى أن أذكر شيئاً عن مدارس المصانع ومدارس البالغين لتعليم الموسيقى والفنون الجميلة والأدب والصناعة ، وحبذا لو كنت أستطيع أن أصف الحرب العوان التى اشهرتها روسيا ضد الامية ، وانشاء المكاتب وتعميم المشروعات الصحية وفرق الالعاب الرياضية والسباحة والتجديف ورعاية الاطفال الخ الخ

لا شك أن روسيا تسير اليوم فى طريق جديد فى التعليم ، ولكنها ترمى إلى غرض يمتتها عليه كل العالم لانه يؤدى الى مادية شيوعية غرضها راحة العمال ومدنيتهم

ولا بد أن يستفيد انقارىء إذا علم شيئاً عن الانقلاب العظيم فى التعليم الثانوى فى ألمانيا من مختصر مقالة ضافية الذيل قدمها الأستاذ جيزلر من جامعة برلين^(١) لمؤتمر التربية الذى انعقد فى جنيف ابتداء من ٢٣ يوليو سنة ١٩٢٩ : —

تجوز ألمانيا اليوم فى ميدان التربية والتعليم مرحلة لم يسبق لها فى تاريخ الدولة مثيل . فبعد أن ضاع مجد ألمانيا وخضدت شوكتها فى الحرب العالمية العظمى ، قامت الامة على بكرة أبيها تبحث عن مبادئ وأغراض وأمثلة

(١) وقد أتيح للمؤلف أن يكون أحد أعضاء هذا المؤتمر

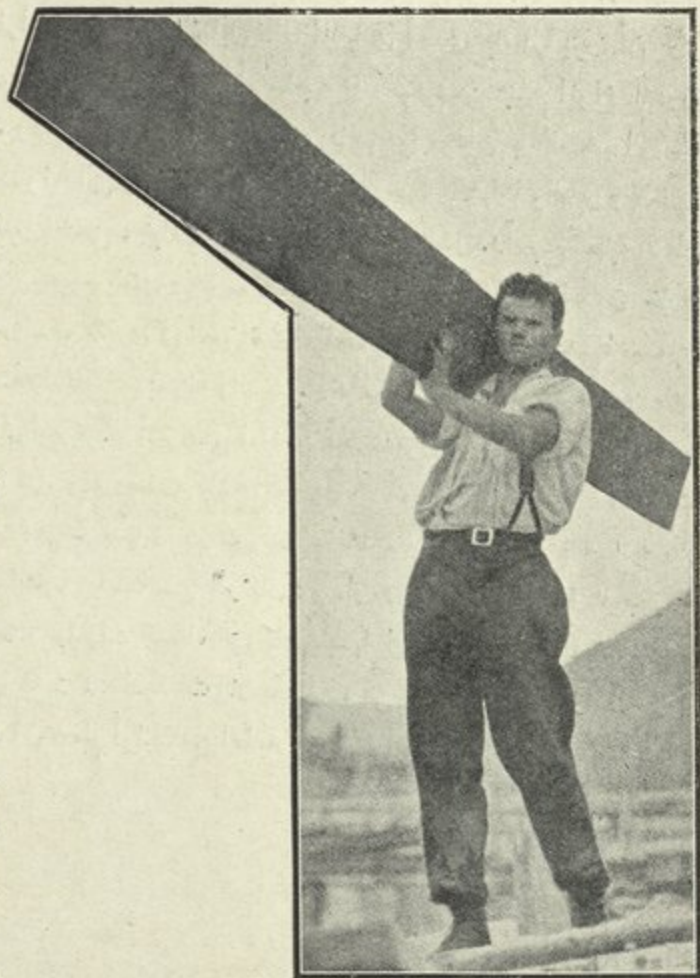
عليها جديدة تتفق وروح الجمهورية الجديدة ، وتلائم المدنية الحديثة التي ظهرت في عالم الوجود بعد الحرب العظمى . ولما كان نصيب التعليم من هذه المبادئ كبيراً ، أصبح الانقلاب في نظمه أمراً محتوماً

لم يقدم أبناء الجمهورية الألمانية على هذا الإصلاح الذي تناول هذه الشؤون الاجتماعية ، إلا بعد درس دقيق وبحث مستفيض في حاجتنا العلمية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية . ويستنتج القارئ من هذا ، أن الفلسفة الجديدة التي على أساسها شذنا صرح التربية في بلادنا ، نتيجة تلك الحاجات فهي إذاً فلسفة عملية لا نظرية ، وتخالف فلسفتنا القديمة التي كانت تقوم على المادية دون سواها . إن فلسفة التعليم في بلادنا اليوم تشمل جميع مطالب وحاجات الأمة بين مادية وغير مادية ، وتعمل على نشر ثقافة (Kultur) حديثة تناسب عصرنا الحاضر ونهضتنا الحديثة

ولما كانت التربية من أمهات المسائل في الجمهورية ، قضت الحكومة على كل مجهود فردي في سبيل التجارب التعليمية ، وحرمت على الجماعات والهيئات والمجالس الرسمية في ولايات ألمانيا أن تتولى إدارة المدارس ، على النمط الذي تريده وأصبحت الحكومة وحدها المسيطرة على نظام التعليم والسبب في هذا التجديد أن التربية ليست من شؤون الفرد أو الهيئات الخاصة بل هي من المصالح القومية الكبرى التي يجب أن توجه الحكومة إليها أكبر عنايتها ، وتضعها فوق كل اعتبار آخر

من المعجزات التي قامت بها التربية في ألمانيا بعد الحرب العظمى قتل الروح العسكرية التي كانت تسود في المدارس والكتليات ، وخلق روح الديمقراطية والعمل . فالطالب الألماني ، في عهد القيصرية وآخرهم غليوم الثاني ، كان جندياً في زيهِ ولباسه وحركاته وسكناته ولعبه ورقصه وعمله وشعوره العام . وكانت مواد الدراسة وطريقة التدريس ترمي جميعها إلى تهيئته للقتال عند أول نداء وتصوير الممالك الأخرى في صورة العدو اللدود . وكانت المبارزة بالسيوف من أشهر الألعاب الرياضية وضروب التسلية التي يروح فيها الطلبة عن أنفسهم في أوقات الفراغ . ولما كنت تقابل طالباً ألمانياً في إحدى جامعاتها بغير أن ترى جرحاً في يده أو خدشاً في انفه أو حاجبه أو جبهته ، من جميع أنواع المبارزة والقتال . وقد تبدلت حال الطلبة اليوم فأصبحوا مولعين بالألعاب الرياضية الانجلوسكسونية التي ترمي إلى غرس مبادئ الرجولة والشهامة والصبر والاحتمال ومعاملة الغير بالحسنى ، بجانب تقوية الجسم وأتارة العقل . وأصبح الطلبة الألمان ديموقراطيين يحبون العمل ويحترمونه حتى أن ستين في المائة منهم يعملون خارج أوقات الدراسة ، كما ترى في الصورة في الصفحة التالية ، ويعملون أنفسهم ، مستقلين عام الاستقلال عن معونة والديهم . وهذه النسبة عينها نجدها بين طلبة الجامعات في أميركا كما أشرنا في أما كن أخرى من كتابنا هذا (وكتابنا « الدنيا في أميركا ») . وقد وصفت كاتبة انجليزية أخيراً رجلها في كليفورنيا وذكرت أنها سافرت في سيارتها أكثر من ست ساعات متوالية في طريق تحف به من الجهتين مساحات واسعة من البرتقال ، وكان « المنظر بديعاً فوق الوصف ، خصوصاً تلك القفزات البيضاء التي كان يلبسها الوف العمال في أيديهم ، وهم يقطفون بأيديهم تلك السكرات اللامعة اللون ، من الأشجار ، وما زادني إعجاباً أنني علمت أن معظم أولئك من الطلبة »

ستون في المائة من الطلبة في ألمانيا يمولون انفسهم مستقلين عن والديهم ، باشتغالهم في مختلف الاعمال خارج ساعات الدرس كما يرى في هاتين الصورتين . وتبلغ هذه النسبة كذلك في اميركا (انظر الصفحة السابقة)



وقد نص الدستور الالماني على هذه المبادئ بعبارة عامة واضحة، وأمر الحكومة بتحقيقها وهذه هي العبارة بإيجاز : —

« ليكن غرض التربية في جميع المعاهد تكوين الشخصية الخلقية ، وتقوية الشعور الاجتماعي القومي ، وتنمية الكفايات للأعمال والمهن المختلفة وفوق ذلك توطيد دعائم السلام العالمي ، وترويج حسن النية في العلاقات الدولية »

ونظرة واحدة إلى هذه العبارة الوجيزة التي تناولها دستورنا الحديث تبين لنا أغراض التربية وما تؤول اليه من تنظيم علاقاتنا بالفرد والدولة والمجتمع الانساني والسير بنا في طريق الديمقراطية الحقة



وتوصلا لوحدتنا القومية والاجتماعية التي ننشدها ، بادرنا بإنشاء مدارس إجبارية مجانية لجميع أبناء وبنات الأمة بين السادسة والعاشرة من أعمارهم وأطلقنا عليها اسم « المدارس الاساسية » ثم قضينا على جميع المدارس الخصوصية التي كان يؤسسها أصحابها لفئات ممتازة أو طوائف خاصة من طبقات الأمة ومعنى ذلك أننا حتمنا على جميع الأطفال من كل الطبقات الغنية منها والفقيرة والمتوسطة أن يلتقوا معاً تحت سقف واحد في جو واحد وبيئة واحدة ، وهدمنا ذلك النظام القديم العقيم من أساسه ، الذي كان يفرق بين طبقات الأمة بتشيد مدارس ممتازة خاصة بأبناء البيوتات الشريفة . وقد أصبح اليوم لكل صبي وصبية أن يجتمع بالأطفال الالمان من أية طبقة كانت

وبذلك تقوى فيهم الروح الديموقراطية منذ نعومة أظفارهم ، ويشبون على الاستعداد للمشاركة والتعاون في مستقبل حياتهم بعد هدم تلك الحواجز المنيعه التي كانت تقام بين طائفة وطائفة وطبقة وطبقة في عهد البراطرة

وقد أنشأنا فوق هذه « المدارس الاساسية » ثلاثة أنواع من المدارس وهي : (١) مدارس ابتدائية وعدد سنواتها أربع (٢) مدارس متوسطة وعدد سنواتها ست (٣) مدارس ثانوية وعدد سنواتها تسع

ولكل من هذه الأنواع الدراسية غرض ، فلا يقدم الطالب على الالتحاق بها الا اذا وضع هذا الغرض نصب عينيه . فالنوعان الأول والثاني شبيهان بمدارس خصوصية تعد الطالب لدرس التجارة والصنائع والفنون والاعمال اليدوية في معامل أنشئت لهذا الغرض يلتحق بها بعد اتمامه الدراسة في أحد النوعين المشار اليهما . والنوع الثالث يعد الطالب لدخول الجامعات ومواصلة الدراسة في أقسامها الفنية العالية

ويتضح من هذا التقسيم أن المدارس الالمانية ، رغم تركيز السلطة فيها في يد الحكومة دون الأفراد والهيئات الخصوصية ، قد راعت التنوع في نظمها حتى توزع الكفايات والقوات العقلية في شباب الأمة على هذه المدارس المنوعة ، وبذلك يسلك بعض الشبان طريق الصناعة ، ويتبع غيرهم طريق التجارة ، وآخرون الأعمال اليدوية أو الزراعة أو الأعمال الفنية الراقية ، وبهذه الكيفية تسد حاجات الأمة من كل ناحية من نواحي الحياة

وقد سلك واضعو هذا النظم المدرسية مسلكا حكيما ، لجعلهم أنواع

التعليم هذه غاية في المرونة بشرط يسهل للطالب الانتقال من نوع الى آخر بكل سهولة وبغير ضياع للزمن . والأمثلة على هذا التنويع كثيرة جداً ، ويكفي أن أضيف الى ما ذكرته أن الطلبة الذين يلتحقون بالمدارس الابتدائية (النوع الأول) ويأنس فيهم أساتذتهم الذكاء النادر ، ينقلون في نهاية هذا النوع من التعليم الى مدارس ثانوية أسست خصيصاً لهذا الغرض . وبعبارة أخرى أن الذين يلتحقون بالمدارس الابتدائية ولا يرغبون في اتمام دراستهم الثانوية ، يفتح لهم أبواب التعليم الثانوى في هذه المدارس الخاصة متى توسم فيهم أساتذتهم الكفاية والذكاء

وإذا رجعنا الى نظام التعليم الثانوى قبل الحرب العظمى وقابلناه بما هو عليه اليوم علمنا مقدار هذا الانقلاب ومبلغ هذه الثورة . أن التعليم الثانوى قبل الحرب العظمى ، في أوروبا عموماً والمانيا على الاخص ، كانت قيمته لا بناء الاشراف ، وميزة يقتصر التمتع بها على أولاد الطبقات الارستقراطية وكانوا يعبرون عن هذا النظام بقولهم أن التعليم الثانوى « للعشرة الآلاف العليا » من أبناء الأمة . وماذا كانت نتيجة هذه السياسة العمياء ؟ كانت النتيجة أن هذه الفئة الممتازة التى كانوا يعدونها للزعامة وقيادة السواد الاعظم من الأمة ، كانت تجهل حالة هذا السواد الذى يسير تحت لوائها ، فلا تفهم نفسيته ولا عقليته ولا ميوله ولا حاجاته ، فكانت مسافة الخلف بين الحاكم والمحكوم والرئيس والمرءوس عظيمة ، وكان كل فى عزلة عن الآخر أما اليوم فالجمهورية أساسها الديموقراطية . والديموقراطية تضع جميع

البنين والبنات في مستوى واحد ، ولكل فرد منهم حق الارتقاء والصعود إلى أعلى السلم ، ومتى أتيح لأحدهم تولى الزعامة في أى مصلحة من المصالح العامة أو الخاصة ، قام بعمله بقدم راسخة لانه امتزج بمرءوسيه صبيًا وفتى وشابًا وبذلك تمكن من فهم نفسياتهم ونزعاتهم . رجلا

ولا ننكر أن في جميع أنواع الأعمال الصناعية والتجارية والفنية في المانيا يزيد الطلب على العرض ولكن هذه نتيجة لامفر منها ، غير أن ازدحام المدارس الثانوية وإقبال أبناء الأمة عليها رفع من مستوى الحياة في بلادنا وأن كانت النتيجة كما قلنا زيادة العرض على الطلب . وهذه المشكلة من أعوص المسائل التي تعالجها المانيا (وغيرها من الامم) إلا أن هذا لا يضعف إيماننا بالتعليم الثانوى ، لأننا نعتقد أن ليس هناك مبرر لصرف شئ من مال الدولة على التعليم الثانوى ما لم يكن أساس هذا التعليم النفع العام أو بعبارة أخرى ما لم يتمتع به أبناء الأمة على السواء

ويجدر بنا أن نشير إلى وجه آخر من وجوه هذا الانقلاب في التعليم الثانوى وأقصد بذلك اكتظاظ المدارس الثانوية بالبنات . ولم يكن أقبال البنات على التعليم الثانوى الا نتيجة لازمة منتطرة للتسوية في الحقوق السياسية والاجتماعية بين الجنس النشيط والجنس اللطيف ، والناس اليوم مضطرون بطبيعة الحال إلى ادخال بناتهم في المدارس الثانوية كما يدخلون بنينهم فيها . وماعنى حرمان الفتاة من الدراسة الثانوية مادامت على قدم المساواة بأخيها ، مادام في مقدورها الصعود إلى أعلى السلم ؟

ولما كان التعليم الثانوى اليوم مرتبطاً بتقدم الامة السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، فان الحكومة « ومجالس المديرىات » أخذت على عاتقها الاتفاق على الطلبة الفقراء وصرف الكتب الدراسية لهم وتسهيل الحصول على المؤلفات من المكاتب العامة والاكتشاف من مطاعم الطلبة التى تباع فيها المأكولات بأثمان زهيدة ، والاتفاق على رحلاتهم فى العطلة الصيفية الخ . وكلما تقدمت الحالة المالىة فى المانيا — خصوصاً بعد كبوتها العظيمة فى خلال الحرب العظمى — زادت ميزانية التعليم الثانوى حتى يصبح فى مقدور الحكومة الاتفاق على أبناء الامة فقراء وأغنياء الى أن يتموا الدراسة الثانوية . واسكن أريد أن يفهم القارىء أن الطالب الألمانى اليوم — مهما كان فقيراً — يستطيع أن ينهى دراسته الثانوية على نفقة الحكومة متى توافرت فيه شروط الذكاء والكفاية والصحة وحسن الخلق

ولنتقل الآن الى نقطة اخرى على جانب عظيم من الاهمية وصعوبة البحث ، وهذه النقطة تدور حول الدروس النظرية المتعددة فى التعليم الثانوى وفوقان التعليم العملى وتنوع المناهج التى سبقت الإشارة اليها كانت المدارس الثانوية الالمانية مشهورة بكثرة موادها وصعوبتها وطول مناهجها وكانت الدقة والاتقان والمهارة الصناعية والتعمق فى البحث والحذق الفنى وغير هذه ، من الصفات التى كان يظن أن لهذا النوع من التعليم الثانوى

الفصل في تكوينها في الشعب الألماني . ولما كانت الصلوات القوية التي تربطنا بتاريخنا الماضي المحيّد تعد بالألوف ، كنا نخشى أن نقلب نظام التعليم الثانوي في بلادنا خوفاً من ضياع هذه الدقة وتلك المهارة الصناعية من الدم الألماني غير أننا من الجهة الأخرى لم نستطع إبقاء التعليم الثانوي على ما هو عليه ، وحاجات الأمة والعصر الحاضر تتطلب التنويع في المناهج والنقص من المواد والاكتثار من التعليم العملي ، مع الجمع بين الدروس النظرية العامة والدروس التي لها ارتباط مباشر بالحياة والتي تشق الطريق للطالب فيشب بعيد النظر ، واسع الحيلة ، معتمداً على نفسه ، غموراً على مصلحته كفرد وعلى وطنه كعضو في المجتمع الإنساني . وهنا يوجه ألى هذا السؤال الخطير :

وكيف نعالج المآل هذا المسكّل ؟

الجواب عن هذا السؤال يحتاج ألى تفصيل . أن فن التعليم (البيداجوجيا) في القرن التاسع عشر (وإلى هذا اليوم في كثير من البلدان) كان يؤمن بنظرية « المعرفة قوة » وبعبارة أوضح أننا كلما زدنا من التحصيل ومجرد الامام بالمعارف النظرية زدنا قوة . غير أننا نحن الألمان تألمنا كثيراً وتكبداً خاسراً فادحة من جراء هذه « المعارف » الكثيرة *Suffered from knowing too much* لأن مناهجنا كانت مزدحمة بالمواد الدراسية في كل علم وفن ، وكنا نؤمن بمبدأ « التربية العامة » أي أن كل متعلم ينبغي أن يكون ملماً بالعلوم المختلفة من أدب ورياضة وطبيعة وكيمياء وفلك وتاريخ ورسم ولغات و و الخ الخ .

ولكننا قاتلنا هذه النظم وانتصرنا على الماضي وقضينا على هذه النظرية وذاك المبدأ ، ان لم يكن كلياً فجزئياً ، والشعب الالماني على بكرة أبيه يسير بخطى حثيثة تجاه الفلسفة الحديثة ويخطو رويداً نحو مبادئ القرن العشرين نعتقد اليوم ان الاخذ بناصية المواد المتشعبة المتعددة ، والالمام بعدد كبير من العلوم الكثيرة المتعددة أصولها ، المشتبكة فروعها ، من المستحيل . ومحاولة أرهاق الطلبة بها من الجنون ، أو على الأقل ليس من المرغوب فيه . أن عقلاً بشرياً واحداً محدود الكمية ، وليس من الحكمة في شيء أن نصب فيه خليطاً من كل شيء ، ولنعلم أن تمكين الطالب من فصيلة واحدة من العلوم المعروفة ، تفتح بصيرته لفهم القوانين العامة التي يسير عليها جوهر الفصائل الأخرى جميعها

وبناء على هذا الاعتقاد أصبحت مدارسنا الثانوية تسير على مبدأ « تقسيم العمل » المعروف عند الاقتصاديين ، ومعنى هذا أننا نقسم العلوم التي وصل إليها العقل البشري إلى فصائل أو طوائف ، ونوزع كل الطوائف على الطلبة ، ولكل أن يختار منها ما يناسب ميوله ومواهبه بعد إرشاد معلميه ووالديه . وحتى لا تنحصر معلومات الطالب في دائرة ضيقة يضاف إلى دروسه الأساسية في هذه الفصيلة أو الطائفة دروس أخرى إضافية قليلة العدد

وإذا تتبعنا تاريخ المانيا المجيد ، وجدنا جذوره المتفرعة في كل مكان ، متصلة اتصالاً متيناً بقوات الثقافة العظيمة التي نفخت في شبابنا روح العظمة والقوقان . وتنحصر قوات هذه الثقافة في الآداب القديمة والأوربية الحديثة

والعلوم الاجتماعية والطبيعية ، والآداب المسيحية ^(١) . وقد وزعنا قوات الثقافة هذه على انواع الدراسة الثانوية في مدارسنا وحصرناها في اربعة انواع وهى (١) قسم الآداب القديم (Classical Gymnasium) (٢) قسم اللغات الحديثة (الحية) (Language Gymnasium) (٣) قسم العلوم الطبيعية (Natural Science Gymnasium) (٤) قسم الأدب الالماني (German Gymnasium) ويبحث القسم الأول في تطورات الماضي بمتعلقاته من سياسة ودين وفنون جميلة ، ويلحق بهذا القسم درس اللغتين اللاتينية واليونانية القديمة . ويختص القسم الثانى بدرس اللغات الحية وفي مقدمتها الانجليزية وتليها الفرنسية . ويدخل ضمن ذلك مقارنة آداب اهل تلك اللغات وثقافتهم بآداب وثقافة الالمان . ويختص القسم الثالث بالرياضة والطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان (وغيرها) والدور الذى لعبته هذه العلوم فى عالمى الاختراعات والاستكشافات وفوق ذلك فى عالم المدنية الحديثة اما القسم الرابع فأهم ما يشغل أذهان الطلبة فيه درس التقاليد والآداب القومية والاجتماعية المتصلة بتاريخى المانيا القديم والحديث

(١) يرى المطلع على المؤلفات الاوربية والاميركية هذه العبارة شائعة الاستعمال. ولا علاقة لها بالديانة المسيحية الا بطريقة غير مباشرة. ويقصد بها الآداب والمبائى الصالحة . وسميت كذلك لان معظم أمم العالم (فى الوقت الذى بدأ فيه هذا الاستعمال) غير المسيحية كانت تغلب فيهم الهمجية ولذلك عدت آدابهم غير صحيحة لا يعترف بها

والمبدأ الأساسى الذى توجه اليه مدارسنا كل عنايتها فى كل من هذه
الاقسام هو مغزى هذه العلوم لا مجرد محتوياتها ومعلوماتها ، وهو مانعبر عنه
فى بلادنا بكلمة (Kulturkunde) الالمانية . أننا لا نكتفى بمجرد معلومات
فى الفروع السابقة بل نرشد طلبتنا الى الأعجاب وتفهم القوات الفعالة المستترة
وراء هذه المعلومات . ونظراً الى تقدم علم النفس التجريبي ، أخذ الاساتذة
يعلقون أكبر أهمية على الدروس التى لها اتصال مباشرة بالحياة ، وتفضيلها
على سواها ، بدلا من تعليم الطلبة الدروس لمجرد « العلم بالشئ » — وهو
المبدأ الذى كنا نسير عليه الى عهد قريب

وبتعبير آخر أقول أن دراستنا الماضية كانت « أفقية » أو سطحية ،
أما اليوم فهي « عمودية » أو عميقة

وهناك نقطة أخرى عظيمة الأهمية فى مدارسنا الألمانية . وهى أن
الفوقان العملى أو الفنى لا يقل أهمية عن الفوقان العلمى (academic)
أو النظرى ، فالطالب الذى لا يستطيع إتقان فرع أو مادة أو درس فى الرياضة ،
ممكّنه أن يعوّض ذلك بأشياء عملية أو فنية فى دائرة أخرى . وفى بعض
الأحوال المتطرفة إذا فشل الطالب فى فرع من فروع الرياضة مثلا ، لا يمنع
من الانتقال الى فرقة أخرى أو نيل الدبلوم النهائى ، اذا فاق فى العوم أو
حمل الأثقال أو الخطابة أو الشعر أو إتقان صناعة أو عمل من الاعمال اليدوية .
ومعنى هذا أن الطالب الذكى المجتهد يشجع على النجاح متى هبطت كفة ميزانه

في مادة ورجحت في مادة أخرى فرعية وأن كانت هذه المادة الأخيرة غير عملية

وفي مدارسنا الألمانية اليوم نطلق للطلبة حرية المناقشة ونشجعهم على تنظيم الجماعات للأكثار من هذه المناقشات وبذلك نربي فيهم الخلق التي قد تخلو منها البيوت والأسر التي هم منها، خصوصاً ما يتعلق بالخدمة العامة وتقع الغير وحب الجماعة

وقد منحنا طلبة المدارس الثانوية سلطة حكم أنفسهم بأنفسهم وتوقيع العقوبات على من يخالف النظم المدرسية كأنه جزء منها، وبهذا أصبح الطالب ينظر إلى المدرسة كأنه جزء منها يقوم بواجبه خير قيام ويفار على مصلحتها، وأصبح المعلم صديق الطالب بعد أن كان يوماً ما الحاكم المتصرف .

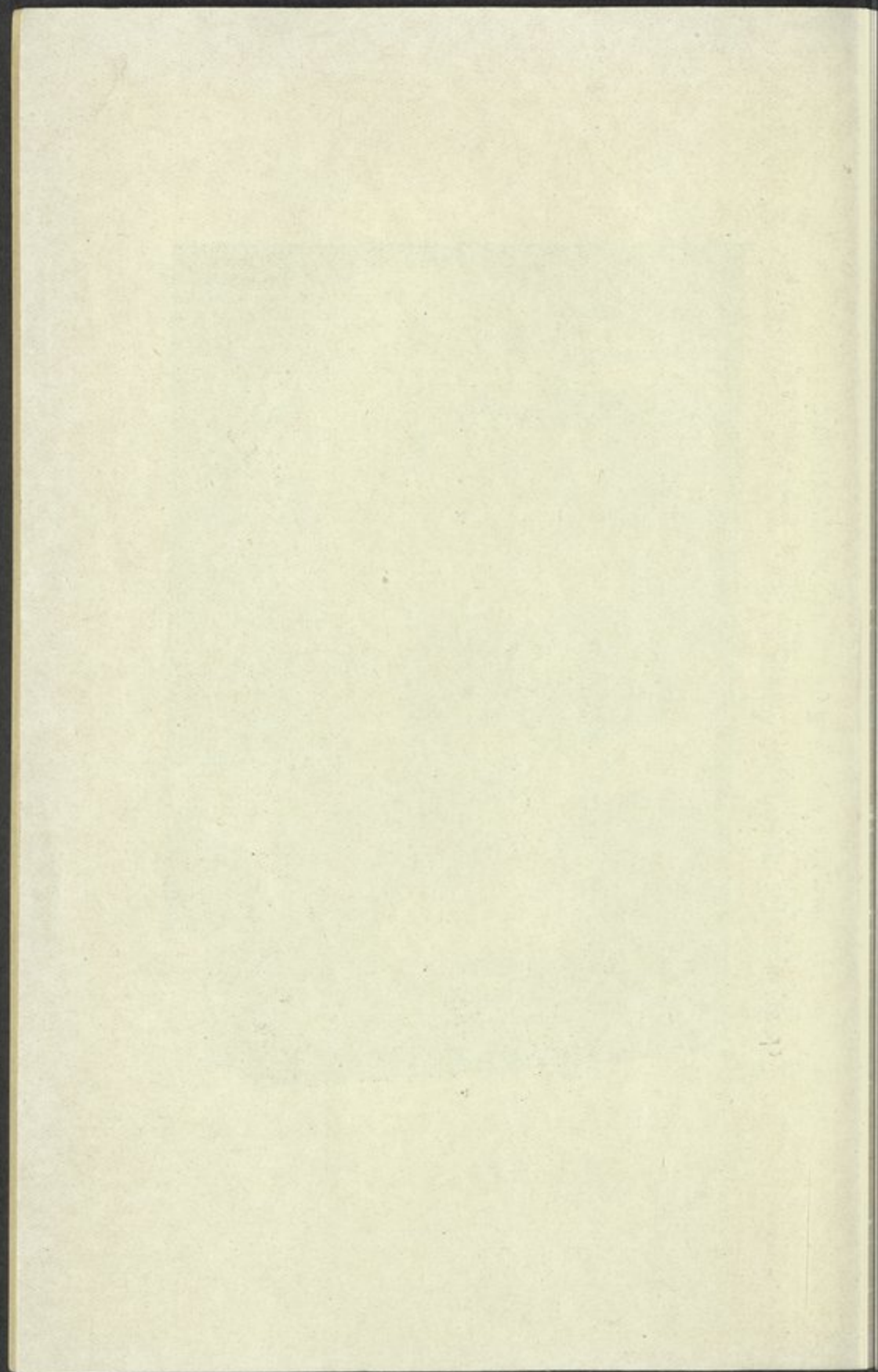
ولكثير من المدارس الثانوية في المراكز الصناعية الكبرى منازل خشبية bungalow يبنونها على شواطئ البحار، أو في بطون الوديان أو فوق قمم الجبال، حتى يتاح لكل فرقة من الفرق الرحيل إلى تلك الأماكن من آونة إلى أخرى للسكن هناك مع معلمى الفرقة والقيام بأعداد الطعام ووسائل الراحة، مع الدرس في تلك الأماكن الخلوية، وبذلك يتلقى الطالب فوق دروسه المعتادة، درساً آخر في خدمة الغير « وآخر في التعاون، وآخر في الإعجاب بحمال الطبيعة الخ

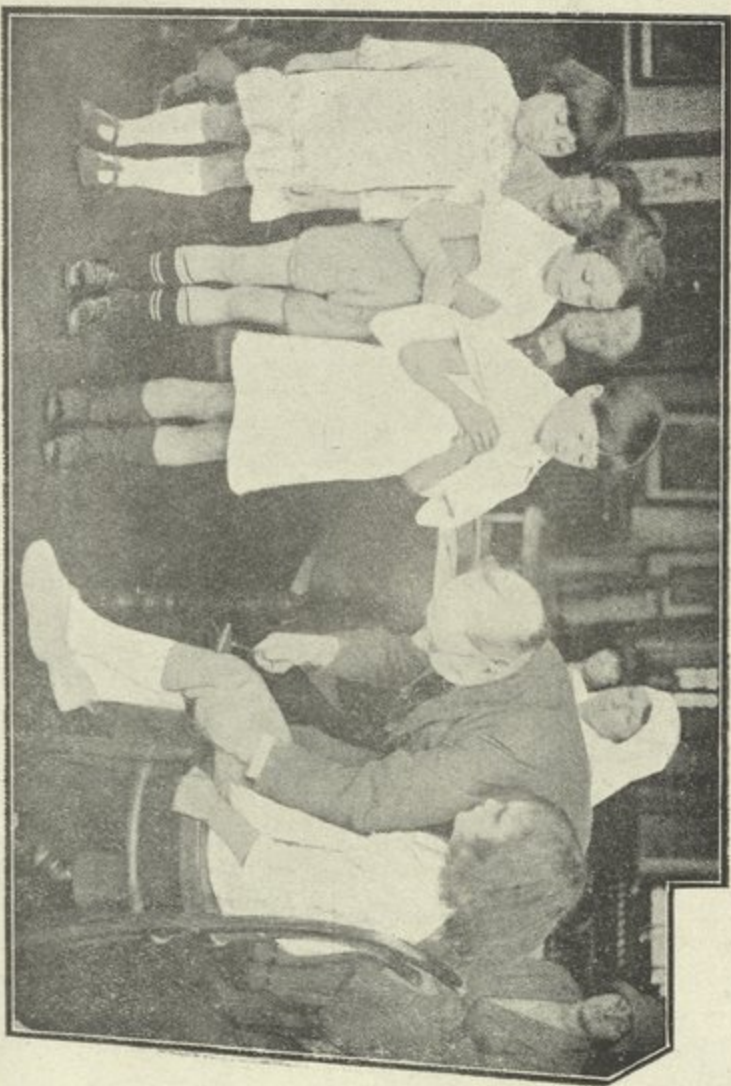
وهناك درس آخر، عظيم الأهمية، يتلقاه الطلبة في تلك الأكواخ أو المنازل الخشبية أو كما يسميها البعض (Country homes)، وهو درس

عظمة العمل ومجده (dignity of labour) وكيف لا يتعلمون أن الأعمال اليدوية من أشرف الأعمال وهم يتلقونها خارج قاعات الدراسة ، ويتاح لهم أثناء إقامتهم في المنازل الخشبية ، أن يحرقوا الأرض ويفلحوها ويزرعوا فيها أنواع الخضر والأشجار والأزهار ويتدربوا على فلاحه البساتين ، وصنع الأطر للصور وتجليد الكتب وتربية المواشى وغير ذلك من شتى الأعمال وقد جعلنا للصحة والترية البدنية في مدارسنا مقاماً عظيماً ، فالألعاب والهواء الطلق من مميزاتها . وقد كانت الأمم الانجلوسكسونية وحدها ممتازة بها ، أما اليوم فقد أخذنا في مزاحمتها ، فأصبح العوم وتسلق الجبال والزلق على الجليد وحمل الأثقال والتجذيف والألعاب على اختلاف أنواعها من أهم ما توجه اليه عنايتنا مع عدم الاهتمام بالنعرة الكاذبة التي تهتم بها بعض الأمم فيما يختص « بعبادة الأبطال » والفوز في معارك اللعب الخ . أننا نضع كل اهتمامنا في اللعب الشريف العادل الذي يخلق من أبنائنا رجال المستقبل ومن بناتنا أمهاته

ويعيب علينا بعض الأمم المغالة في الألعاب الرياضية ظناً منهم أننا نعد رجالاً أقوياء لميادين الحروب المقبلة . ولسكنا نرى أنفسنا من هذه التهمة الشائنة ، بل نقول أننا وضعنا حداً للتعليم العسكري في بلادنا بعد أن كانت مدارسنا في عهد البراطرة ميداناً واسعاً للحركات الحربية . بل نعيب بعض الأمم الأخرى التي لا تزال مدارسها الثانوية أو بعضها قائمة على النظم العسكرية كما نشاهد في إيطاليا وأميركا وإنجلترا وفرنسا وبولندا مما يخالف مبدأ نقص السلاح

وتحقيقاً لنص الدستور الألماني الخاص بحسن التفاهم الدولي (الذي سبقت الإشارة إليه) تعمل هذه المدارس الثانوية على بث هذه الروح في طلبتها، وجمعية الأمم التي تعمل على نشر هذه الروح من الموضوعات الهامة التي لا تغفلها مدرسة من مدارسنا، وكلما قامت مشكلة دولية وتدخلت جمعية الأمم فيها، لفتنا انظار شباننا إليها. وعلاوة على ذلك فأنا ننظم سنوياً رحلات كبيرة لطلبتنا حتى يتيسر لهم السفر إلى الخارج وزيارة البلدان الأجنبية، وقد اتبعنا طريقة المراسلات الدولية التي يستطيع بها الطلبة مراسلة الطلبة من الممالك الأخرى وتبادل صورهم الفوتوغرافية على غير معرفة سابقة، فضلاً عن تعليم اللغات الأجنبية ودرس آدابها





ولا تقل عناية المدرسة الجدية بصحة أجسام التلاميذ عن عنايتها بصحة عقولهم . ومراعاة التنفيذ
الصحيحة والألعاب الرياضية والفحوص الطبي كلها لازمة لهذه الغاية

الفصل السادس

الرياضة البدنية

(ثالثاً) أنا في مدارسنا نهمل تقوية الابدان . وبالرغم من أن الجسم قبل العقل ، والعقل السليم في الجسم السليم ، فأنا لانعنى بتقوية أجسام طلبتنا . فكأننا كطوائف الهنود الذين يعتقدون في أضعاف الأجسام واذلالها حتى لاتجنىح إلى الشهوات والمعاصي . قد تقول لى أن الرياضة البدنية مقررة في مدارسنا . جبر على ورق للأسف ، فرق رياضية مخصوصة ، ولكنها ليست تربية بدنية للجميع ، والنتيجة ما هي ؟ ضعف عام ، قابلية شديدة للزكام والبرد والحمل والأمراض ، والاصفرار وانحناء الظهر ، والحمول والبطء ، وعدم النشاط والميل إلى النوم — هذه هي النتائج الحسية . أما الذاتية ، فجبن وخوف ، وكذب وغش وخداع ، وعدم مقدرة على تحمل الآلام وعلى الصبر والكفاح إلى النهاية . أنظر الينا نسير في الشوارع نجر أرجلنا وتنوء تحت أثقال بطوننا ونسير الهويناً كسالى خاملين . بعكس ما نراه في غيرنا من أفاضل الأجانب المهيذين . قال أحدهم لاء تهكماً على أفندى يسير بهذه الكيفية «ده مش افندى لابس بدلة ، ولكن بدلة لابس افندى»

أندهش إذا سمعنا أن في بعض مدارس أوروبا وأميركا لا تمنح الشهادة النهائية لطالب لا يحسن السباحة ؟ أن الطالب الذي يشغل في مادة من المواد الدراسية في سويسرا ينقل إلى فرقة أخرى إذا استعاضها بالعموم أو الزلق على الجليد . كذلك نروج وأسوج ودانيمركة وفي كثير من الولايات الألمانية . أما في تعليم البنات فأنتى أزيد على ما ذكر أن المكنتسة أفضل انواع الالعاب الرياضية — ومغزى هذه العبارة يتطلب كتاباً كاملاً ، كما قال انجليزى عالم ولا نغنى أن نطيل البحث في هذا الموضوع لأننا واثقون أنه لم يبق في هذا المجتمع من ينكر ضرورة تقوية الأبدان قبل تقوية العقول . إلى جانب هذا ينبغي أن نعلم أن هناك دروساً أخلاقية عديدة ، وعظات بالغات يكتسبها الطالب من التعليم الرياضى كحسن المعاملة ، وتحمل المشاق ، والصبر على المكاره ، والمثابرة إلى النهاية ، وعدم اليأس بعد الفشل . ولنعلم فوق ذلك أن الشهوات الدنيئة كالجرائم لا تعيش إلا في الأجسام الضعيفة

الفصل السابع

التربية والتعاون

(رابعاً) أن مدارسنا ينقصها التعاون : — نحن الشرقيين، وعلى الأخص نحن المصريين، أقوياء افراداً، ضعفاء جماعات . ضاع عدداً من الرجال العاملين النابهين، كلا في ناحية من نواحي الحياة، تجد منه شجاعاً بأسلايسير في طريق النجاح . ضاع هذا العدد في ناد أو جماعة أو شركة، تجد عوامل القشل قد دبّت في النفوس، وما هي إلا عشية وضحاها، حتى ترى آثار الحسد والحقد والنميمة، وحب الرأسة، وتضحية المصلحة العامة على مذبح المطامع الذاتية، بادية بين الجماعة . والنتيجة انحلال عقدها . وتشتت شملها

ولست هذه الصفة المعيبة داء مستأصلاً في دماء المصريين يولد معهم . ولكنها عيب في تربيتنا ونقص في نشأتنا . والتعاون غريزة في المرء، لا بد من تهذيبها، والأسرة والمدرسة خير مذهب لها . ولما كان اعتماد السواد الأعظم منا، على الأسرة معدوماً في وقتنا الحاضر، لم يبق امامنا الا المدارس

وكيف تتعلم التعاون في معاهد العلم؟ تتعلمه في المعامل اليدوية، في الصناعات المدرسية . في الجماعات الأدبية، والرحلات العلمية، وغرفة

المائدة ، والأندية الزراعية والتجارية والفنية . هذا بشرط أن تترك إدارة هذه الجماعات إلى الطلبة أنفسهم تحت إرشاد غير مباشر من المعلم شهدت مرة احتفالاً بديعاً ، قام به أطفال لا تزيد أعمارهم عن سبع سنوات وكان الاحتفال خليطاً من الألعاب الرياضية ، والخطب الأدبية القصيرة ، والقطع التمثيلية والغنائية . وقد أعجبنى كل شيء فيها . غير أن أكثر إعجابي كان منشأ بنتاً صغيرة ، تولت رئاسة الاحتفال ، فكانت تنادي على الأطفال كل بدوره ، وكانت ترتب المناظر ، وتقود الفرق كأنها معلمة في الثلاثين من عمرها

هذا التعاون من أكرم ما يلزم لفتح أبواب الأعمال أمام جيوش المتعلمين . وكيف لا وهو رأسمال الشركات . أليست مصرفي حاجة إلى الشركات . وكم شركة في مصر مصرية ؟ خذوا شركة واحدة وواحدة فقط ، شركة بنك مصر . كم من الشبان يشتغلون بها ؟ وكم من أبواب الرزق كانت تفتح لبنينا ، وبناتنا ، لو تعاون زيد وعمرو على تأسيس مخازن تجارية ، فكان لنا شيكوريل وبون مارشيه وبلا تشي وسلامندرو جرين ومرويمترياروس ، ووزخرفوبوليس ومتروبوليس ووالخ ؟ وكم من الشبان يستطيعون أن ينتفعوا بهذه المخازن ؟ هل تريد أن أتقهر إلى الراء واذكر شركات صغيرة من فردين أو أكثر من أبناء الأمة لتشغيل ورش صغيرة لأصلاح وابورات الغاز ، والمصابيح الكهربائية ، والمواقيد ، والآلات ، وتنظيف الأحذية ، وتصليحها ، وتخدم الطهاة والخدم ، ومئات هذه الأعمال الوضيعة ؟ وكم عدد الذين

يستطيعون ولوج هذه الأبواب ، وكم من هذه الشركات والأعمال الصغيرة والكبيرة للمصريين اليوم ؟ من اسباب هذا النقص فينا قلة التعاون . والتعاون لا ينزل علينا من كوات السماء كالمنحدر . إنما هو فن من الفنون الجميلة ، ولا بد لكل فن من مدرسة . ونحن أحوج الناس إلى تعاون زراعى ، تعاون صناعى ، تعاون تجارى . والمدرسة دنيا صغيرة وما لم نعلم الطفل فيها روح التعاون ، خرج منها إلى المدرسة الكبيرة خاوى الوفاض قال الفيلسوف كانط . لا يستطيع المرء أن يعمل مع أخوانه ، ولا يستطيع أن يعمل بدونهم ، وهو يشير إلى الاستقلال الفكرى فى العبارة الأولى والتعاون فى الثانية :

وقال ارسطو : — الإنسان مدنى بالطبع . والمرء الذى لا قدرة له على التعاون والاجتماع ، أو الذى يشعر باستقلال عن الآخرين وبعدم الحاجة إليهم ، ليس بعضو فى الدولة أو المجتمع الإنسانى . وبعبارة أخرى أن انساناً هذه صفته ، أما أن يكون وحشاً أو الها .

التعاون يحى فينا الضمائر ويقويها ، ويشعرنا بالواجب والمسئولية . ويضعف فينا الألم إذا أخطأنا ويهرق دموعنا إذا أجرمنا . وقال فيلسوف ظريف بهذه المناسبة أن الفرق بين محب التعاون وغيره ، فرق بين الكلب والقط . أن الكلب إذا أخطأ بكته ضميره ، ووخزه وجدانه ، وشعره بجوب العقاب . وأخنى رأسه أمام سيده ، ولوى ذنبه ، وعوج سيقانه ، وقوس جسمه ، وقاد نفسه إلى العقوبة بدافع طبيعى على غير ارادته ، وأعد نفسه لعصا أو سوط

سيده . أما القط وهو حيوان غير اجتماعي ، على عكس ذلك . فإيكادير تكب
جرماً حتى يولى الحرب - فهو لا يدرك للمسئولية معنى

قال دكتور Libknecht الألماني يصف الرقابة في ألمانيا سنة ١٩١٤ :-
لا يمكن لأحد غيرنا نحن الألمان ، أن نتصور القوة الكامنة في الحرية ،
ومقدرتها على تقويض معالم التعاون . في يوم واحد ، في ساعة واحدة ،
انقطعت كل صلة بيننا وبين العالم . أصبح كل فرد كخليفة مستقلة في الجسم
السياسي . وقد أصبح كل الماني منعزلاً في افكاره أو مغموراً في لجة الحرب .
فلا تبادل آراء ، ولا تفكير عالمي مشترك . وأصبح كل مفكر الماني سجيناً عقلياً
فإذا كان هذا الوصف يشير إلى التعاون العالمي وشيئاً عن انعدامه ،

فكم يكون الوصف اذا تكلم ذلك الاجتماعي الكبير عن التعاون القومي ؟
أن التعاون يتطلب حرية في التعليم . حرية للمعلم وحرية للطالب . وحرية
المعلم تتطلب مرونة في المناهج ، وللأسف أن هذه المرونة لا يمكن التوصل
إليها ما لم تلغ الامتحانات العامة وما لم نستعص عنها بنظام آخر ، يجعل الحكم
على جدارة الطالب لنيل الشهادة النهائية للمدرسة ، ويجعل تقدير المدرسة
في يد المعلمين ، كل في مادته . وهذا النظام لا يتأتى الا اذا توافرت الثقة
بين وزارة المعارف ونظار مدارسها ومعلميها أولاً ، ونظار ومعلمي المدارس
غير الاميرية ثانياً . وأخاف أن أقول اننا لم نصل إلى هذه الدرجة في
الوقت الحاضر

أما منح الحرية للتلميذ ، فلا تتأتى الا باستيفاء الشروط السابقة ، فبواسطتها

يستطيع الطفل أن يتلمس الحقائق بنفسه ، ويختبر الحياة بيده وفكره تحت
ارشاد المعلم

قال برناردشو If you teach anybody anything he'll never learn it
أي أنك اذا علمت أحداً شيئاً فإنه لن يتعلمه

ويقول William James ان الطفل عند ولادته وفي حياته المدرسية يجد
العالم بحراً من الفوضى زاخراً كبيراً عجائماً ، وواجب المدرسة أن تساعد
على اقتحامه ولكنه بطريق غير مباشر . وما أبلغ هذا التعبير باللغة الانجليزية

The child first finds the world a big buzzing blooming confusion

واتباعاً لهذا المبدأ أذكر لكم مثلاً من نوع هذه الحرية التي تعلم
الطفل أو التلميذ الاستقلال الفكري والاعتماد على النفس أولاً ، والتعاون
ثانياً ، وهو أن الطالب الذي يظهر فوقاناً على أخوانه في التاريخ يعفى
من حضور بعض الحصص الدراسية ويعطى له عمل آخر يدوى في الغالب .
يقول مؤلف أميركي أن حياة الجماعة من مميزات الجنس البشرى
فالإنسان يولد وسط الجماعة ، ومنها يستقى معارفه واختياراته وحذقه ، وفيها
يعيش ويرتق ، وتحت لوائها يتقدم بسلاحه إلى ساحة الوغى ، ومع افراد
الجماعة يوقع على آلات موسيقية الحاناً يطرب لها ، ويفنى ويلعب ويرقص
ومنها يعتنق الأديان ويؤمن بالفلسفات

حقيقة أن في أساطير الخرافات القديمة نسمع عن روميلوس الذي
تربى وترعرع بين الوحوش الضارية ، بعد ان أرضعته أنثى ذئب لبنها .

وحقيقة أن روبنسون كروسو صاحب الحكاية الخيالية المشهورة حطر حاله
في جزيرة وعاش بعيداً عن الجنس البشري . وحقيقة أن النساك والزهاد
كانوا يوماً ما يعيشون في الكهوف والجبال والأدرة، منقطعين عن العالم الانساني
غير أن هذه وأمثالها، أما أن يكون لا وجود لها ألا في عالم الخيال ،
أو نادرة الوجود لا يعول عليها

ولسنا نريد الأتالة في موضوع التعاون لأننا أشرنا في غير هذا المكان
ألى الطريقة التي تتبع في المدارس الحديثة التي وصفناها بتفصيل واف

الفصل الثامن

المدارس والأخلاق

(خامساً) مدارسنا في حاجة إلى تعليم الأخلاق بالقدوة الحسنة والمثال لا باستذكار علوم الأخلاق. وهذه نقطة لا تحتاج إلى شرح. ولكن أريد أن أقول أن احسن صفة لتعليم الأخلاق الفاضلة هي التعاون. أن الأخلاق تعالما في غرفة الدراسة وردهة المدرسة، وفي ملعب الرياضة البدنية، وفي معامل الاشغال اليدوية، والجمعيات الأدبية والرحلات العلمية، والقيام بخدمة الآخرين.

وعلاوة على هذا التعليم العملي للأخلاق يجب أن نغير طرقنا القديمة في تعليم النشء المبادئ النظرية للأخلاق. وهاكم مثالا واحداً: —
كان المعلم إلى عهد قريب وإلى يومنا هذا يعلم الأطفال أن السرقة حرام. لماذا؟ لأنها تؤدي إلى جهنم، إلى نار أبدية. والأمانة جزاؤها الفردوس. أما الآن فنحن نعلم عدم مشروعية السرقة على أسس اجتماعية واسباب الخير الجنس البشري Humanitarianism فنقول للطالب: السرقة محرمة لأنها تضر بالمسروق منه، وتحرمه من متاعه. وتضر بالسارق، لأنها تقتل فيه روح العمل. والعمل أشرف اللذات وأكثرها مجلبة للسعادة. والدليل على ذلك ما تستمتع به من هذه اللذة في المعامل اليدوية. كذلك السرقة تهدم دعائم

الملكية والرغبة في الاقتناء . وحب الاقتناء غريزة أودعها الله في الانسان .
وهدم الملكية ينزع الرغبة في أحرار الاشياء . وهذه الصفة أساس النمو
والتمدين والنشوء والارتقاء

انظروا الفرق بين هذا التعليل وبين التعليل السابق ، بين أن يقول المعلم
هذا القول المفهوم وبين الأرهاب بجهنم ، والترغيب في الجنة
وسيرى القارىء من الفصل الآتى مختصراً لمقال شائق للاستاذ هرس
شرحاً للنظرية الحديثة في التربية الأخلاقية ومكانها من المعاهد العلمية : —
يقوم الأستاذ الأمريكي هارتسشورن وزميله الأستاذ ماى بدرس الحالة
الخلقية بين تلامذة المدارس من ذكور وإناث ، وكانت أبحاثهم مقصورة
أخيراً على درس الأمانة . وقد توصلوا بعد جهود كثيرة أن يضعوا اختبارات
وامتحانات يستطيعون بها أن يستكشفوا خلق الطالب ويعرفوا بواسطتها
إذا كان يحاول الغش في الامتحانات العامة أم لا

وكان بين أولئك الذين قدم لهم هذا الامتحان أعضاء أحد الأندية
المدرسية التي تشبه أندية الكشفة والتي يتخذ الأمانة شعارها الأكبر .
وقد امتاز هذا النادي بحمل لواء الأمانة أينما سار وأينما حل . فكان أعضاؤه
لا تفوتهم فرصة إلا ويتكلمون عن الأمانة في خطبهم وحفلاتهم ورحلاتهم
وقعودهم وقيامهم

غير أنه من المدهش أن التجارب التي قام بها الأستاذان والاختبارات
التي وضعوها لأعضاء هذا النادي أظهرت أن أعمالهم تناقض أقوالهم وشعارهم

مناقضة تامة . فقد أتضح أن أعضاء النادي يتحينون كل فرصة للغش وأن موظفيه أكثر ميلاً للغش من الأعضاء . وقد خيل للأستاذين أنه كلما سمت وظيفة الشخص في النادي قلت أمانته وزاد غشاً وتضليلاً . وبعبارة أخرى ان مجرد لوك ألسنتهم عبارة الأمانة لم يؤثر في حياتهم العلمية وأن عباراتهم الشاملة لمبادئ الأمانة لم تجدهم نفعاً في إظهارها عملياً في اختبار بسيط تقدموا اليه . وهذا ما يعبر عنه علماء التربية بقولهم انه لم يكن هناك انتقال^(١) (transfer) هذا مثل واحد من أمثلة كثيرة يتسنى لنا أن نضربها دلالة على شيء واحد وهو أن مجرد التحدث عن المبادئ لا يحولها إلى عادات ومجرد التكلم عن الأخلاق لا ينقلها إلى أعمال كما أن مجرد استظهار النظريات لا يخرجها إلى حيز العمل

فكثيراً ما يلقي الخطيب الخطب الرنانة عن الأخاء وهو في حياته يلجأ على الدوام إلى عكس ذلك ، وكثيراً ما يفاخر الطلبة بالشرف والأمانة في اللعب (Sportsmanship) ولكن لا يكادون يدخلون ميدان اللعب حتى يفروا منه هارين أو حائقين لأن الحكم نطق بحكم ليس في صالحهم

هذه أشياء كثيرة الحدوث وطالما عملت على تثبيط هممنا وهدم ما بنينه تكويناً لأخلاقنا . وكان سقراط الفيلسوف يعتقد أن معرفة الحق الذي لا تشوبه شائبة ، يقود المرء إلى العمل الصالح وان الغش في الأخلاق ينسب إلى نقص في المعرفة . ومن الصعب جداً أن يوافق الفيلسوف الكبير على

(١) اقرأ نظرية الانتقال (transfer) في مجلتنا التربوية الحديثة

زعمه واعتقاده لأنه لا ينطبق على ما يجري يومياً في الحياة . والدليل على ذلك أن نتائج الفحشاء مثلاً ومغبتها السيئة لا ينكرها أحد ولكن رغم ذلك نجد ييوت الدعارة شديدة الزحام . والكل يجمع على أن الاعتدال في المأكل والمشرب والتدخين مثلاً يعود على صاحبه بأبهر النتائج ورغم ذلك كله فإن أفواجاً من الناس يكثرون منها إلى حد المرض فالموت

يأمل الكثيرون أن الطالب إذا استظهر الاقوال الماثورة والآيات الحكيمة أصبح قوياً في أخلاقه شريفاً في معاملاته غير أن هذا للأسف أمل كاذب

وقد اتضح لبعض العلماء أن تأثير الأبطال والزعماء ورجال التاريخ في انشائية وأخلاقهم أمر مبالغ فيه . أن بناء الأخلاق وتكوينها يتطلب أكثر من مجرد معرفة الخير والشر نفسه . وهو نتيجة التطلع إلى هذا (الأكثر) . ويتساءل القارئ الآن عن هذا الأكثر والجواب على ذلك يترك إلى حين أن نبحث في ماهية الخلق وكيف تتكون وتنمو

تشمل كلمة أخلاق مجموع العادات والخطط التي يسير عليها الإنسان فيقال أن فلاناً قوى الأخلاق إذا كان حازماً في أحواله الاجتماعية . ويقال أيضاً أن فلان ضعيف الأخلاق إذا كان واهن العزم ، مذعناً للمؤثرات الخارجية في أحواله الاجتماعية . والمقياس الوحيد لخلق الإنسان والحكم عليه قوة أو ضعفه مراقبة عمله وسيره وتقدير نتائج أقواله وأعماله وملاحظ وجهه وحركات جسمه

قال أستاذ في إحدى جامعات اسكوتلاندا أن غرض الوعظ والأرشاد هو مساعدة الناس على أن يعيشوا عيشة مرضية . وهذا يجب أن ينطبق تمام الأنطباق على غرض التربية . فلا يكون الإنسان صالحاً إلا إذا كان صالحاً للقيام بعمل من الأعمال . فغرض مدارس الطب أن تخرج أطباء مهرة ، وغرض مدارس الحقوق أن تخرج محامين صالحين للعمل ، وغرض المدارس الأميرية أن تخرج رعايا مخلصين لأوطانهم . ولكن هناك فرق بين أن يكون الطبيب ماهراً وبين أن يكون صالح الخلق ، كما أن المرء قد يكون صالحاً كطبيب ولا يكون كذلك كزوج . فقد يكون ماهراً في إجراء عملية جراحية واستخراج الزائدة الدودية ، ولكنه لا يكون في نفس الوقت ماهراً في تكوين عائلة كما يجب أن تكون

فمدارسنا الفنية والعالية تنجح بعض النجاح في تخريج الطلبة الذين يقومون بوظائفهم قياماً حسناً . وأقول في بعض النجاح تحفظاً لأن مجال التحسين والأصلاح فسيح لتعليم الأشياء التي ترعى المعاهد في العالم كله تعليمها ، ولا أقصد بهذا الأصلاح الطرق التي تؤدي إلى المهارة الفنية في مجال خاص ، بل جلُّ بحثي ينحصر في تخريج رجال صالحين مطلقاً ولا أقول صالحين في هذا أو ذاك . وأنتى أعرف رجالاً صالحين للقيام بأعمالهم ولكنهم ليسوا رجالاً صالحين . كما أنتى أعرف رجالاً غير ناجحين في أعمالهم نظراً لضعف في خلقهم شاهد الناس في إحدى مدن الولايات المتحدة منذ عهد قريب فتاة تعاني الفرق في بحيرة ، فلبى الجيران استغاثتها وذهبوا لأفقاها وقد نجحو

في أخرجها إلى الشاطئ. ولكن بعد أن أصبحت جثة هامدة. ثم هرعوا إلى طبيب فاستدعوه وما كاد هذا يفحصها حتى رفض أن يقوم بمعالجتها بدعوى أنه لم يكن طبيب العائلة. فاستشاط شقيقتها غضباً ولكنه شمر عن ساعديه وانحنى على أخته لمعالجتها أملاً في إعادة الحياة إليها رغم جهله قواعد الأسعاف. ولم يمض برهة حتى أقبل على الأثر طبيب العائلة الخاص وأخذ في معالجتها حتى جرت في صدرها أنفاسها

فالتبيب الأول كان لا يجمل وظيفته ولكنه أبى استخدامها لزعم في كاذب. أما شقيق الفتاة فقد كان شديد الرغبة للعمل ولكن كانت تنقصه المعرفة اللازمة لإتيان النتيجة المرغوبة. ولذا لم يحرز النجاح ألا بحضور الطبيب الثاني لأنه توافرت فيه المعرفة أولاً والرغبة في عمله ثانياً

ومغزى واقعة الحال هذه سهل الفهم. فإن المجتمع الأنساني لا يستفيد من أناس يتمتعون عن استخدام معارفهم لنقص في أخلاقهم. كما أن المجتمع أيضاً لا يستفيد من قوم حسنت نياتهم ولكن تنقصهم المعرفة الفنية الكافية للقيام بأعمالهم، فلكي يكون الإنسان طبيباً صالحاً أو محامياً صالحاً - وأقول « صالحاً » بالنظر إلى الخدمات التي يقوم بها المجتمع - يجب أن يتوافر فيه شرط المعرفة وشرط الرغبة

أقول مرة أخرى أن مدارسنا الفنية العالية تنجح بعض النجاح في تخريج رجال صالحين لأعمالهم. ومدارسنا غير العالية تنجح بعض النجاح في تأسيس الطلبة في العلوم والمعارف التي تخولهم دخول المدارس الفنية، غير

أنا قد فاتنا عامل أكبر وهو التربية الخلقية التي قد اعتمدنا فيها على الحظ والصدفة . وقد تعاملنا بعض الطرق التي نعلم بها الطلبة درس التفاضل والتكامل ولكننا أهملنا إدخال الطرق المؤثرة التي يستطيع بها الناس أن يعيشوا على مبادئ الآخاء . يعد الطلبة للخدمة في مستقبل حياتهم ولكن لضمان أنهم يصلحون حقيقة للخدمة

ويجدر بنا هنا الإشارة إلى الخطاب البليغ الذي ألقاه سعادة محمد علي باشا وزير الأوقاف سابقاً في الحفلة الختامية للكلية الأمريكية للآداب والعلوم سنة ١٩٢٦ أذ قال : أن العلم لمن لا خلاق لهم خطر عظيم عليهم وعلى المجتمع الأنساني وأن المعرفة في نفسها شيء مهم . فقد تستخدم للشر . وصانع المفاتيح في مقدوره أن يستخدم معرفته لأغراض مشروعة أو يسخرها في سبيل السرقة . والمحامي يستطيع أن يستعمل معرفته للقانون في أقامة العدل والدفاع عنه أو في أقامة الظلم وتوطيد أركانه . والشاب الذي يلم بعض الألمان بطرق الوقاية من الأمراض التناسلية قد يستخدمها في الفساد والتهتك والتمادي في الشهوات ولا يشك أحد في أن النظام الحكومي القائم على حصر التربية في اقتباس المعرفة دون تنمية الخلق لا يؤدي الى نتيجة يحسن الاعتماد عليها

ولا بد أن يتساءل القارئ : ما الذي تستطيع أن تقوم به معاهد العلم في سبيل التربية الخلقية ؟ تقول أن المدارس قد أنشئت لارواء الطلبة من بحر العلوم والمعارف . تقول أيضاً أن معاهد العلم يجب أن تنشأ لتقويم الخلق وتتساءل كيف تحل هذه المشكلة العويصة . فينما نزع أن استظهار آيات

الأدب والحكمة ودرس الآداب الدينية لأمة وتأدية امتحانات في معرفة الخير والشر لا تكفي واحدة منها بمفردها لتربية الخلق ، نقول من الجهة الأخرى أن من مستلزمات التربية وواجباتها الأولية أن تهتم بتخريج الطلبة الذين تتوافر فيهم الأخلاق الطيبة وليس الاجتهاد في أعمالهم فقط ، كما أن تتوافر فيهم أيضاً فضيلة خدمة الغير لا الحكمة وحدها . نقول أن معاهد العلم إذا حذفت من مناهجها الكتب الدينية لأنها لا تحسن أخلاق الطلبة ودينهم فإنها تصبح أثراً بعد عين فيما يختص بالتربية الخلقية .

كلنا نعلم ما للأخلاق من عظيم الأهمية ، فمعاهدنا العلمية وكتبنا بغير أخلاق لا تساوى شيئاً . وعلى الرغم من ذلك فإننا نعلم أيضاً أن الطرق التي تتبعها في تكوين الأخلاق عديمة الجدوى ، فكما تبين لنا آتياً ، لا يستفيد الطالب كثيراً مما يلقي عليه من الدروس الأخلاقية لأن مجرد تعلم مبادئ الأخلاق لا يقوم معوجاً ولا يصلح نفساً مريضة ، فمثل مجرد الألمان بالمبادئ الأخلاقية لتربية الخلق مثل استظهار تواريخ الحوادث العظمى لتربية الأمانة أو الصدق

وقد اختلف رجال التربية في حل هذا المشكل . فمنهم من قطع كل رجاء في تعليم علم الأخلاق في المدارس ونادى بوجوب الغائه الغاء تاماً والاكتفاء بما يتعلمه النشء في المنزل والنادى وغيرها . وهؤلاء يعتقدون أن تعليم الأخلاق بالطرق النظامية في المعاهد العلمية محال ، فإذا ما سئلوا عما إذا كان في استطاعة المدارس أن تربي الأخلاق فإنهم يجيبون « نعم

ولكن بطريقة غير نظامية بل من قبيل الصدفة . يجب أن يكون الجو المدرسى سليماً من كل شائبة حتى يشب الطالب على الفضائل الحميدة بتأثير الوسط ، ولكن لا يقصد بهذا أن المدرسة في استطاعتها أداء هذه المهمة بوضع منهاج خاص كمناهج الحساب والفلك والطبيعة . وإذا دققنا البحث وجدنا أن المدرسة لا تستطيع أن تقوم إلا بالقليل إن لم نقل أنها لا تقوم بشيء أبداً .

وهناك طائفة أخرى من رجال التربية ممن لا يكتفون بمثل هذا الجواب بل يشعرون أن في مثله استسلاماً ويأساً ورجوعاً للوراء ، ويتفقون على أن المناهج وحدها لا تقوم بتعليم الخلق وإن كانت تبحث في مبادئ الخلق ، ولكنهم يريدون أن تفسح المدارس مجالاً واسعاً للأندية والأعمال التي يتعاون فيها الطلبة خارج قاعة الدرس ، تحت إرشاد أساتذة فنيين ، فيعملون معاً في جو يحيط به الصدق والأمانة وخدمة الغير وغيرها من الصفات التي تنمو في الأجواء الراقية الراقية السليمة من العيوب والشوائب التي تضر بالأخلاق .

وكتب هذه السطور يتفق رأيه مع ما ينادى به هؤلاء . فليسمح لي القراء أن أسرد لهم شيئاً عن المدارس التي تقوم اليوم بتربية الأخلاق تربية عملية ، وتخرج فتياناً وفتيات ممن يعول عليهم في خدمة بلادهم والغيرة على أوطانهم

وفي مقدمة الطرق التي يلجأ إليها رجال العلم في تنمية الأخلاق هي تنظيم الألعاب الرياضية والعناية بها وتشجيع الذين يشتركون فيها

وكانت الألعاب الرياضية على اختلاف أنواعها الى عهد قريب بدعة من البدع التي كان نظار المدارس وأساتذتها يرمون بها عرض الحائط ويبتعدون حتى عن التحدث عنها ، ابتعاد السليم عن الأجرب . غير انه على ممر الأيام قيض لها من يأخذ بناصرها ويفتح لها باباً في دور العلم . ويرى بثاقب فكره أنها دعامة قوية من الدعائم التي عليها تبنى الأخلاق فبعد أن كانت الألعاب الرياضية تمارس فقط في الحقول النائية بعيداً عن المدارس أصبحت الجزء الذي لا يتجزأ من معاهد العلم وأصبحت ثلاثة أرباع المساحة القائمة عليها بنايات المدارس ، وفقاً لهذه الألعاب (١)

وجميع المدارس اليوم في العالم المتمدين تشجع فرق اللاعبين ، وتعلق أهمية عظيمة على نجاحها وفشلها ، وتنشر الصحف اليومية نتيجة مبارياتها . وتباهى الكليات والجامعات بما أحرزته من قصب السبق فيها ، وينفق معظمها أموالاً طائلة في أعداد الأجهزة وتوفير الأساتذة الذين يقومون بترقية هذه الألعاب ورفع شأنها والنتيجة أن الشبان اليوم ، من خريجي المدارس والكليات يفاخرون

(١) كان كاتب هذه السطور أخيراً في مكتب احد كبار رجال التعليم في مصر الاجانب فلما أن اطلع على العدد الاول من مجلة التربية الحديثه، وقع نظره على موضوع التربية الخلقية الذي نحن في صدده الآن ، وابتسم موجهاً اليها هذا السؤال الاتزالون تعتقدون أن تعليم الاخلاق من واجبات المدارس وما تستطيع القيام به ؟ ثم اردف ذلك بقوله نحن معشر السكسونيين نعتقد أن الاخلاق تعلم في ساحة اللعب

بمقدرتهم الفائقة في النزول إلى ميدان اللعب ، وتحمل المصاعب والألعاب الخشنة التي قد تعرضهم للخطر .

غير أن هؤلاء الشبان لا ينكرون أن الطاعة ، والتعاون ، والرجولة ، والشرف ، والشجاعة ، والعزم والأقدام ، والبشاشة ، والشدة ، واستنارة البصيرة وغيرها من عناصر الأخلاق لم يكن لهم حظ الوقوف معها جنباً إلى جنب ألا في ساحة اللعب ، بأرشاد أساتذتهم الأفاضل

وتلى الألعاب الرياضية في الأهمية الأعمال المدرسية الأخرى الخارجة عن حجر الدراسة ، وهي ما يطلق عليها اسم *Extra—Curricula Activities* فكثير من المدارس تصدر جريدة أو مجلة ، ينشئها ويحررها ويطبعا الطلبة أنفسهم تحت إرشاد أحد أعضاء إدارة المدرسة ، ولا يخفى مافى هذا العمل من الفائدة الخلقية ، فإن اشتراك الطلبة وتعاونهم في تحمل مسئولية كتحرير جريدة يربى فيهم ملكات الابتكار والجد والنشاط والأقدام وتحمل المشاق وغير ذلك

وأكثر من ذلك أن الطلبة في مثل هذه الأحوال تعهد إليهم المسألة المالية فيتكفلون بالاتفاق على المجلة ، وهذا ما يوضع على عواتقهم عبء المسؤولية التي تكون منهم رجالاً

وفي جميع المدارس اليوم نجد الجماعات الأدبية والأندية بتنوع أغراضها وأشكالها كأندية المناظرات الأدبية ، وأندية التصوير الشمسي ، والسياحات والموسيقى ، والتمثيل ، واللاسلكي ، وجمع طوابع البريد ، ومئات

أخرى مما يسمح أصحاب هذه المدارس بإنشائها
طريقة مألوفة لتعليم الاطفال في المعاهد العلمية — هي تعويد الطلبة
خدمة الغير وذلك بتهيئة البيئة التي بواسطتها يتمكن الطلبة من النزول بين
أفراد هيئة من الهيئات للعمل بينهم ومديد المساعدة لهم
مثال ذلك . أن في مدرسة من المدارس الكبرى في أميركا ، قد اعتادت
إدارتها منذ سنوات عديدة أن تمد بالمال نادياً كبيراً للعمال المشتغلين بالتعدين
والمناجم ، وتبعث اليه بطلبتها لتنظيم الألعاب والحفلات الموسيقية والتمثيل والأدبية
ولما كانت المدينة الواقعة فيها هذه المدرسة يشغل أهلها جميعهم بالتعدين ،
فإن مهمة الطلبة شاقة ، نظراً لكثرة عدد أعضاء النادي أولاً ولكونهم من
العمال ثانياً . ففي هذا النادي يتعلم الطلبة كيف يقومون بخدمة مواطنيهم
ممن لم يسعدهم الحظ بتلقى الدروس العالية أو تثقيف أذهانهم أو التمتع بالمزايا
والتسهيلات التي تتوافر في الأندية الراقية

ولا شيء يربى النفس ويهذبها ويعودها الأخلاق الحميدة كالنزول من
الأوساط الراقية إلى الطبقات الفقيرة والاحتكاك بأفرادها ومساعدتهم على
تحسين حالتهم الاجتماعية ، وتهيئة الحفلات المفيدة السارة لهم
حدث مرة أن غمرت المياه مقاطعة في بلاد الهند فبات الكثيرون بلا
مأوى ، فنظم الطلبة جمعيات لأعانة المنكوبين وقاموا بانتشال الكثيرين من
الغرق وإيوائهم وتوفير أسباب الراحة لهم ، فكانوا بذلك موضع الإعجاب
من جميع مواطنيهم

وفى كثير من أنحاء أمريكا يشجع الطلبة على تعليم الأجنب اللغة
الانجليزية ، ممن لا يحسنونها

وقد رأيت أخيراً أن أقوم بمثل هذا العمل فى كليتنا (١) ، فكلفت بعض
طلبتنا بتدريس اللغة العربية لأكثر من عشرين خادماً من الخدم النوبيين
وقد أرسلت عدداً من الطلبة فى خلال السنة الماضية الى القرى
والأرياف فى أيام الآحاد والعطلة لألقاء التعليمات والأرشادات على الفلاحين
مبينين لهم طرق المعيشة الصحية ، خصوصاً الامتناع عن شرب ماء القنوات
الملوث بجراثيم الانكلستوما والبلهارسيا

وقد صحبهم فى ذلك بعض الأساتذة وأحد الأطباء الافاضل ، ووزعوا
عليهم عدة مرات المنشورات وبيّنوا لهم بواسطة الميكروسكوب الجراثيم التى
تعد بالملايين ، والتى يشر بها عادة الاهالى ، فتفتك بهم وتكون سبباً لكثير
من الأمراض التى يبتلون بها

ويشترك عدد من طلبتنا أيضاً فى اعداد مؤلف موضوعه جميع الوسائل
التي تستخدم فى القاهرة لخدمة الجمهور ، حتى يكون المؤلف بمثابة مرجع لمن
يريد الاطلاع عليه ، خصوصاً من ذوى الأحسان الذين قد تحررهم عوامل
العطف والانسانية فيمدون أيديهم لمساعدتها

ولا يخفى أن تشجيع الطلبة على الاشتراك فيما يؤول الى خدمة الغير ،
مما يساعد على ترقية الاخلاق ، ولو كان تحت إرشاد الأساتذة

(١) الكلية الامريكية للآداب والعلوم بالقاهرة

هذا بخصوص الاعمال التي تعمل لتربية الخلق خارج حجر الدراسة ، على أن المدارس يتسنى لها أيضاً أن تربي في نفوس طلبتها الاخلاق بمثل هذه الاعمال في قاعات المحاضرات أو غرف الدراسة . ففي بعض المدارس تخصص ساعات في الاسبوع لمثل هذا العمل ، منها ساعة عملية والأخرى تخصص للمناقشة ، ومتى اقترنت المناقشات بمشروعات عملية ثبت في أذهان الطلبة وجوب اتصالهم بهذه المشروعات وتوجيه انظارهم الى ما تتطلبه من العناصر الخلقية ، التي لا يصير العمل الا بموجبها

والطرق القديمة التي تتبع في تعليم الاخلاق عديمة النفع ، لأنها لا تتفق مع الحوادث التي تجري في عصرنا الحاضر ، ولا يقصد بها أن كل مناقشة في الاخلاق في غرفة الدراسة لا يذتفع الطالب بها ، فان هناك طرقاً ووسائل يتسنى للمعلم اتباعها فوق المشروعات العملية ، مما يستفيد الطالب منها لتهديب اخلاقه ، نظراً لكونها ذات مساس مباشر بالعصر الذي يعيش فيه ، مثال ذلك وضع هذه الاسئلة امام الطلبة للاجابة عنها والجدال فيها ، والمناقشة الميينة على اختبارات الطالب وما يقع تحت نظره من الحوادث الاجتماعية الهامة التي تلوكها السنة الناس في الاندية والمجتمعات ، وتحدث بها الصحف وتوجه الحكومات اليها عنايتها

وهذه هي بعض الاسئلة : —

ما الفرق بين الخطأ والصواب ؟

ما الغرض من معاهد العلم ؟

ما نوع العلاقة التي يجب أن تكون بين الشاب وبين الدنيا ؟
هل في طاقة الشاب أن يعيش عيشة طاهرة ؟
هل من الصواب أن يدخن الشاب ؟
هل من الصواب أن يتعاطى المسكر ؟
هل الرقص مرغوب فيه ؟
كيف يخدم الطالب وطنه ؟
هل هناك مبرر للحرب في أى وقت من الأوقات ؟
ما الوسائل التي يمكن اتخاذها لإبطال الحروب ؟
ماذا يجب أن تكون خطة الانسان وشعوره تجاه الآخرين الذين
يخالفونه ديناً وعميقة وطبقة وجنسا ووطناً ؟
كيف يجب أن يصرف الطالب ماله ووقته ؟
ما العادات التي يجب أن يكونها الشاب حتى تؤول هذه العادات الى
تقويته بدنياً ؟
ما معنى الصلاة ! وهل هي لازمة ؟
تبحث جميع هذه الاسئلة ومثاتها أخرى وغيرها مما يختلف باختلاف الدرجة
العالمية التي يكون عليها الطلبة ، والحالة الاجتماعية في البلد الذي فيه يعيشون .
والخطة التي تتبعها المدارس في مثل هذه المناقشات المفيدة ، الصراحة
التامة والابتعاد عن النظريات والتقرب من الوقائع العملية البحتة التي تصادفهم
في حياتهم ، وتجنب ما يشتم منه روح العداء أو جرح احساسات الغير

والمبدأ العام المتبع في مثل هذه الاحوال ، هو أن تمنح الحرية التامة للطلبة فيفكرون كيفما شاءوا ، ويعبرون عن آرائهم بكل صراحة وشجاعة ، كما تلى عليهم ضائرم ، ومهمة المعلم يجب ان تنحصر في تلييهم وذكر الآراء التي تثير عجاج البحث بينهم ، بشرط ألا يقيدوا طلبتهم ، أو يدلوا بأفكارهم كأنها بدهيات لا تحتاج الى مناقشة أو تغيير أو تعديل ، فمن الخطر أن يستبد الأستاذ برأيه فيلقيه كأنه موحى اليه من قوة علوية

وليعلم الأساتذة أن اطلاق العنان للفكر وتبادل البحث بين الناشئة من أكبر العوامل التي تؤدي الى تقوية أخلاقهم ، بشرط أن يكون البحث مبنياً على وقائع صحيحة ومبادئ علمية لا شك فيها ، لا على نظريات بالية لم يقم الدليل على صحتها

ومن الوسائل الأخرى التي تستخدمها المعاهد العلمية في تربية الخلق أن يجتمع الطلبة والأساتذة مرة كل يوم في قاعة فسيحة تعد لهذا الغرض ، ويجب أن يكون الاجتماع مقصوراً على بضع دقائق حتى لا يستولى على الطلبة الملل

والغرض من الاجتماع وجود هيئة المدرسة أو الكلية في مكان واحد لسماح خطبة قصيرة ، أو محاضرة موجزة ، أو قطعة فنية موسيقية ، وبذلك يشعرون أنهم كتلة واحدة لا تتجزأ ، ويشتركون في المبادئ والآمان والشعور

ويحسن أن ينوع الذين يعهد اليهم الأمر في هذه الاجتماعات حتى

لا تجرى كلها على وتيرة واحدة ، وحتى تعطى الفرصة للطلبة لسماع بعض الخطباء الممتازين ، ذوى الشخصيات الممتازة ، الذين يتفق وجودهم وفي الاجتماع الذى يعقد عادة يومياً فى كليتنا ، قد لاحظنا أن الطلبة يتأثرون كثيراً اذا كان المتكلم ممن خبروا الأمور بأنفسهم وجربوها بتجربة عملية وقد كان أحد الخطباء مرة سيدة مصرية معروفة ، فكان لكلامها وبلاغتها والمبادئ العملية التى كانت تشير اليها مكانة وتأثير رسوخ فى أذهان الطلبة زمناً طويلاً

عامل آخر فى تربية الخلق — تلجأ بعض المدارس أحياناً الى اعداد بيان واف للعناصر الخلقية التى يتصف بها الطلبة وتحليل هذه العناصر بالكيفية الآتية :-
يكتب على يمين الصفحة أسماء الطلبة فى كل فرقة وفى أعلاها فى الخانات العمودية العناصر الخلقية المطلوبة كالبراعة والتعاون والطف والشجاعة والرجولة والنشاط وروح الابتكار والنظافة والدقة والمواظبة والصدق والطاعة والأمانة وحب الغير الخ

ويكلف كل معلم أن يضع تقديراً من ١٠ كنهاية عظمى ، للطلبة الذين يحتك بهم فى الفرقة أو فى اللعب أو فى الجمعية الأدبية الخ ، ثم تجمع هذه الأوراق ويؤخذ متوسط الدرجة لكل طالب فى كل فرقة ، ثم يعهد الى أحد الأساتذة الاختصاصيين ، الذين اشتهروا بحسن الأخلاق ، أن يدعوا الطلبة واحداً فواحداً الى مكتبه الخاص ويبين لهم وجه الضعف فى أخلاقهم ويشجعهم على تقويته ، ويذكر لهم أيضاً العناصر التى أحسنوا فيها فيشجعهم

أيضاً على الازدياد منها

ويجب أن يكون المعلم المشار اليه رقيقاً حليماً ، حتى لا يجرح عواطف طالب ، بل يعطف عليه ويعلم أن كثيراً من الشبان تسوء أخلاقهم لأنهم يكتسبونها من أجدادهم البعيدين أو الأقربين ، أو يكون السبب تأثير البيئة ، وسواء أكان السبب البيئة أم الوراثة فإن الطالب قد يكون لا ذنب له فيها والعلاج الناجع لا يكون في هذه الحالة بالزجر والتقريع والتأنيب بل بالعطف فمتى علم الطالب أن المعلم كالطبيب يعرف الداء ويريد أن يشخص الدواء ويشفي الطالب من علله ، أيقن أنه والمعلم شريكان يههما نجاحه ، فيبذل جهده في تحسين أخلاقه

هذا ولا يخفى أن تأثير المعلم الشخصي من العوامل التي لا يجب اغفالها فعلم التاريخ والعلوم الاجتماعية مثلاً ، يستطيع أن ينتهز كل فرصة في المواد التي يدرسها ، للفت نظر طلبته الى المبادئ السامية التي يجدر بهم الاتصاف بها ، والأخلاق الفاسدة التي يجب عليهم تجنبها ، وذلك بمناسبة ما يتلقونه من تاريخ حياة العظماء ، والذين سودوا صفحات التاريخ بسوء مسلكهم ودنى سياستهم

وفوق تأثير المعلم في غرفة الدراسة ، فإن احتكاكه بالطلبة خارج قاعة الدرس مما يوثق أواصر المودة بين الاستاذ والطالب ، ويحمل الثاني على أن يشعر أن الأول معين له وسند وصديق

ولا بد أن يشاركني رجال التربية في أن الأثاث الفاخر والبنائات الشائخة

والأجهزة المدرسية البديعة لا تكون مدرسة بالمعنى التام، ما لم تكن العناية الأولى موجهة الى انتقاء خيرة المعلمين الذين سمت أخلاقهم وعلت مبادئهم، فأصبحوا مثالا يقتدى به، ونموذجاً منه يقتبس المتعلمون

الآن وقد ذكرنا الوسائل المتعددة التي يلجأ اليها لتكوين الأخلاق، من ألعاب بدنية وتأسيس المشروعات لخدمة الخير وتهيئة الأجواء الصالحة في المدرسة، في قاعة الدرس وخارجها، وتأليف الجماعات وأنشاء الأندية الخ الخ، ألا يجدر بنا أن نفكر في اليد الخفية العاملة على نجاح هذه الوسائل حتى تثمر وتأتي بالنتيجة المطلوبة؟

الجواب بسيط، وهو أن المعلم في سكوته وهوادته ودماثة خلقه، هو تلك اليد الخفية العاملة

فاذا ما اجتمع في مدرسة نخبة من المعلمين الأفاضل الذين يضحون بجهودهم وأوقاتهم في نشر هذه الوسائل الفعالة بين طلبتهم رفعوا من مستوى مدرستهم الأخلاق

نرجع للسؤال الأول : —

هل في مقدور المدارس تعليم الاخلاق ؟

الجواب عن ذلك أن الدروس الأخلاقية وحدها لا تجدى نفعاً، لأن استظهار عدة مبادئ وقوانين مكتوبة لا تفيد شيئاً

يجب أذاً أن تلجأ المعاهد العلمية الى الطرق العملية التي أشرنا اليها والتي تتغلغل في حياة الطالب في المدرسة وخارجها

الفصل التاسع

التنوع

(سابعاً) مدارسنا في حاجة إلى التنوع . جميع مدارسنا الابتدائية والثانوية نموذج واحد (one form) . على كل طالب أن يتلقى خمس عشرة مادة ، وعلى كل (في الثانوى) أن يتعلم العربية والانجليزية والفرنسية في آن واحد . وعلى كل أن يدرس الجبر والطبيعة والكيمياء إلى آخر القائمة . فكأننا نريد أن نصب شباننا ، وحتى شباننا ، في قالب حديدى جامد واحد . وكأننا نفترض أن الخالق طبع البشر جميعهم بطابع واحد ، بكتلة من الذكاء واحدة ، بميول واحدة ، بنزعات واحدة ، بكفايات واحدة . فلم نكتف بأرهاق الطلبة بخمس عشرة مادة ، في سبع وثلاثين حصّة في الأسبوع (مقابل ست مواد في ٢٢ - ٢٦ حصّة في أوروبا وأميركا) ولم نكتف تلقينهم ثلاث لغات ومقررات طويلة متراكمة المواد ، ولكننا زدنا الطين بلة بأخراج نماذج واحدة من مصنع واحد في البلاد التي أخذت بالنظم العملية الحديثة يختار كل طالب ما يناسب مواهبه مع أرشاد معلميّه (Vocational guidance) وموافقة والديه . مثال ذلك لغة البلاد ولغة أخرى أضافية . جبر . طبيعة . علوم اجتماعية . تجارة . وآخر : لغة أصلية . لغة فرنسية . هندسة . تاريخ طبيعى . علوم اجتماعية . حدادة . وهذه الكيفية تتوزع الكفايات ، ويوجه الطالب جل عنايته إلى المادة

التي يميل إليها بطبيعته ، وبذلك تمتلئ البلاد بشخصيات شتى من ذوى المقدرة العلمية ،

لا نريد أن نخرج مدارسنا نماذج وصوراً متماثلة بالألوف ، بل نريدها أن تخرج قطعاً فنية جميلة فريدة في بابها .
أتعلمون الفرق بين الأثنين ؟

نعم فرق بين الصورة الزيتية الفنية الأصلية ، التي نقشتها ريشة المصور البارع ، والصورة المأخوذة من « الاكلشييه » الذي يستطيع اخراج ألوف الصور منها في بضع دقائق

فرق بين السجادة الأوربية التي تخرج منها آلة المصنع المئات في ساعة واحدة ، والسجادة الشيرازية التي تشغل عشرات العمال عشرات الأيام فرق بين « الداتلا » التي تصنع منها آلات انجلترا وفرنسا ألوف الأمتار في بضع دقائق ، وبين « الداتلا » التي يستغرق المتر الواحد منها ، الأسابيع والشهور ومن مجهود فتيات فينيزيا وفلورنس في ايطاليا ولوزرن وزوريخ في سويسرا

يخيل ألى أننا نتبع نظام ألمانيا قبل عهدها الحاضر ، عهد الثقافة الحديثة والتنويع المدرسى . هذا ما قاله أحد امبراطرتهم السابقين :—

« أن باستظهار عدة حقائق ممتازة من كتب كثيرة ، والتدرب على ثقافة ألمانية تحتة ، مدة ثمانى سنوات ، ثم الانتظام فى سلك الجنديّة ، يصبح الشاب جرمانياً « يتجر من » ويصير عقله أشد صلابة من الماس ، وغير قابل للتغير »

وليس في العالم كله أتم وأكمل من المدارس العامة في ألمانيا والتي كان يطلق عليها اسم (Volksschule) لأن الجماهير تفكر تفكيراً واحداً وتخضع للسلطات العامة عند أية إشارة .

أو بعبارة أخرى أن المدارس الألمانية كانت تخرج قوالب حديدية مصبوبة ، كما ذكرنا

أو ليس حالنا اليوم عين ما كانت عليه مدارس ألمانيا في ذلك العصر ؟ وما مطعم الشاب المصري عندنا ، كما قال مرة أحد كبار رجال التعليم الأجانب في بلادنا سوى ما يلخص في الآتي : —

- (١) أن ينال الشهادة الابتدائية بأول فرصة
- (٢) » » » الثانوية قسم أول بأقرب فرصة
- (٣) » » » » ثان » » » »
- (٤) أن ينال شهادات أخرى (ربما) بأول فرصة
- (٥) أن يوظف بأول فرصة
- (٦) أن يرتقى وينال الدرجات بأول فرصة
- (٧) أن يحال على المعاش بأول فرصة

يريد كل طالب بغير استثناء تقريباً أن يكون طبيباً ، أو محامياً ، أو مهندساً . أما مدارس الزراعة والتجارة والمعلمين ، فلا يقصدها في الغالب إلا من عجز عن الالتحاق بكليتي الطب والحقوق ومدرسة الهندسة الملكية

يدخل الطالب مدرسة الزراعة العليا وترتيبه الخمسون في شهادة الدراسة الثانوية (من القسم الثاني) ، فيعيره أهله وذووه وأصدقائه ، ويؤمنونه لأنه (أضاع مستقبله) ولم يستغل ترتيبه المتقدم ليلتحق بكلية الطب ليخرج منها طبيباً ، يحمل لقب (الدكتور) بغض النظر عن ميله ومواهبه الطبيعية ، ورغبته في الطب أو رغبته عنه ، وميله للزراعة أو ميله عنها

وقد كان التعليم في أوروبا خصوصاً في ألمانيا والنمسا وفرنسا ولا يزال في بعضها لليوم مشوباً بالروح السياسي . وقد قضت عليه ألمانيا . وهنا نشر فصلاً بديعاً عن التعليم في النمسا نقبسه من أحد كبار رجال التعليم فيها : —

« نرجع بالقارئ إلى النمسا قبل الحرب العالمية الكبرى حتى نقف على تقاليدها في التعليم ومبادئها في التربية . كانت النمسا قبل الحرب العظمى أمبراطورية حرية كبيرة تشمل عدة أمم . وكان جبل الاتصال بين هذه الأمم الأمبراطور وحاشيته . وكان غرض التعليم ، فيما يختص بالسواد الأعظم من السكان ، أعداد شعب مخلص يدين بالطاعة والولاء لآل هابسبرج (الأسرة المالكة) ، بغض النظر عن منفعة الشعب العامة . فكانت خطة التعليم أذاً ، قوامها الخضوع الأعمى ، ومحورها الطاعة بغير بحث أو مناقشة

لنذهب بالقارئ الآن إلى سراي وزارة المعارف — ذلك البناء الشاهق المدهش الذي شيد في القرن الثامن عشر . هناك في إحدى زوايا القصر نجد قاعة انتظار بديعة تؤدي إلى حجرة ثمينة الاثاث جلس إلى مكتب أثرى جميل

فيها شيخ أرسقراطي كبير - هو وزير المعارف وهو يلم بشئون عدة، ولكن ترى هل يلم بنفسية الطفل ؟

ولم يكن الوزير يوماً معلماً ، ومعرفة به غرف الدراسة مستمدة من بعض زيارته الرسمية لها . ووظيفته تنحصر في رسم الخطة المدرسية التي ترمى إلى تعليم الشعب خدمة الأسرة المالكة . يصدر أوامره لمجالس التعليم ، وهذه تصدرها إلى نظار المدارس وهؤلاء يبلغونها للمعلمين ، وأولئك للأطفال في فصول الدراسة . لجميع النظم تصدر من شخص واحد ، وهذا الشخص غير مطلق الحرية حتى يفكر كيفما شاء ، بل مقيد بتقاليد مئة عام . فالنظام أذن جامد ، نظام إملاء الأرادة ، نظام يأمر فيطاع ، يقول « تعلم يا هذا » فيتعلم وكيف حال الأطفال في هذا النوع من التعليم ؟ هلم بنا إلى حجرة الدراسة لنجيب عن هذا السؤال . الأطفال على مقاعد هم جالسون في ترتيب محكم . هنا يدخل المعلم وأول ما يبدر منه هذه العبارة « جلوساً » وسرعان ما يجلسون حتى يبدأ الخصام والنزاع بين المعلم والأطفال . قد يكون التلاميذ ومعالمهم على وفاق خارج الفصل ولكن لا بد من أن يشتد بين الفريقين النزاع وتستحكم حلقاته في غرفة الدراسة . نقطة التلاميذ أن يؤدوا من الواجبات أقلها ، وسياسة المعلم أن يكلفهم من الأعمال أشدها وأكثرها . والغلبة للقوى . يسأل التلاميذ في دروسهم فيرفعون أيديهم للأجابة ، ولكن قل ما يسمح لهم أن يسألوا المعلم في ما يريدون . فليخص الدرس أذن أسئلة وأجابة عنها ودرجات التلاميذ مقدرة طبق هذه الأجابة . والشغل الشاغل

في المدرسة هو ما الذي يجب أن تتعلمه اليوم؟ ، وما الذي يجب أن نجيب عنه غداً؟

لنبحث الآن كتب المطالعة التي في أيدي التلاميذ . لنقرأ أحدها . نجد على الصفحة الأولى صورة الامبراطور مرتدياً ملابس قائد حربي ، وهو يتناول بطاقة من الزهور من أحد التلاميذ . وفي هذه الصورة تتجلى علاقة الامبراطور ، القائد الحربي ، بالتعليم . لنقلب الآن صفحات الكتاب . حكايات وقطع من الأدب النمساوي من منشور ومنظوم . ولكن هل هذه من أجود أدب اللغة الألمانية ؟ كلا . بل نعم هي أجود ما كتب مدحاً في الامبراطور وأطناً في الأسرة المالكة ، وهو المحور الذي يدور عليه الغرض من التعليم . أتستطيع أن تعلم التلاميذ الأخلاص للامبراطور ، في أثناء تدريس الرياضة ؟ إذا كان ذلك ممكناً فلا بد للمعلم أن يذكر أن واجبه يقضي عليه بانهاز الفرصة .

هذه الصورة التي أضعها أمام القارئ اليوم لا تمثل فقط النمسا قبل الحرب العظمى . وأقول والأسف ملء فؤادي أن هذه أيضاً صورة عدد من بلدان أوروبا الحديثة بعد الحرب المذكورة .

أليست مهمة التربية في كثير من ممالك أوروبا اليوم تنحصر في التلقين وحشو الأذهان بالحقائق بغير تنمية قوى الطفل العقلية وأطلاق حريته حتى يظهر مواهبه واستعداداته ؟

هذا عن النمسا القديمة . فلننتقل الآن إلى النمسا الحديثه . من المعلوم أن النمسا القديمة - تلك الامبراطورية واسعة الأطراف ، بشعوبها المتعددة ، من بولانديين وشيكوسلافيين وهنغارين وطليان وألمان - تلك الامبراطورية الكبيرة قد تشقت شملها وتهدمت أركانها وزالت وحدتها بعد الحرب العظمى ، فلم يبق منها إلا دائرة ضيقة لا تكاد تبين بجانب ما كانت عليه من الاتساع قبل تلك الحرب . أما ذلك الشيخ الوقور ، ذلك الامبراطور المشتعل رأسه شيباً ، فقد قضى نجه في السادسة والثمانين من عمره فضاعت بموته حلقة الاتصال بين الشعوب والممالك الصغيرة التي كانت تسكون الامبراطورية الكبيرة القديمة . فالنمسا الجديدة هي مجموعة الولايات التي تنطق بالألمانية والتي أصبحت الآن جمهورية ديموقراطية مستقلة . وقد أصبحت المدرسة الآن تختلف كل الاختلاف عما كانت عليه في الماضي . فالمدرسة بالأمس كانت المدرسة . والمدرسة والحياة منفصلتان تمام الانفصال ، أما اليوم فهما الجزء أن اللذان لا يتجزءان .

لنرجع بالقارىء إلى البناء القديم ، ذلك القصر الأثرى الفاخر الذى كان يتخذهُ وزير المعارف في النمسا القديمة مكتباً له . هناك يجلس إلى مكتبه معلم مدرسة ابتدائية . وقد حول البناء كله إلى ميدان واسع للمباحث الفنية في التربية كذلك شأن التاريخ ، يقلب ظهر الحن للحوادث ، وينقلب الشيء إلى ضده . ألم يقض على الوزير الأرسقراطى المستبد ؟ ، أو لم يتله معلم ابتدائى ديموقراطى حر ؟

في ذلك القصر المنيف قلبت نظم التعليم في الأقسام الابتدائية والثانوية وكان المجددون يميلون في بادئ الامر أن يغيروا كل صحيفة من صحف الماضي في التعليم . فإذا كانت سوداء قلبوها بيضاء وبالعكس . فالصمت التام في فصول الدراسة على النظام القديم استبدل بحرية الكلام — بل الضوضاء أحياناً — على النظام الحديث . وبعد أن كان التلميذ عاطلاً متأثراً *Passive* أصبح عاملاً مؤثراً *active* . وقد ظهرت هذه الصفات في الرسم والكتابة والتصوير والأنشاء والموسيقى والقيام بالرحلات وزيارة المخازن والمصانع . وقد قام المعلمون بتجارب عملية لتطبيق النظريات الجديدة . غير أن نزع المدرسين الآن نحو ابقاء ما صلح من القديم وأدخال ما صلح من الحديث . ومتى ظهرت نتائج تجاربهم عرضوها على مجالس التعليم وهذه عرضتها على الوزير وهذا الأخير أقرها أخيراً فاستعملت عملياً في الدراسة .

وهذه الخطة عكس السياسة القديمة التي كانت تنزل فيها الاوامر من أعلى وكانت نتيجة هذا الانقلاب السريع في بادئ الامر أن حلت القوضى في المدارس الثانوية وشكا المعلمون ضعف طلبتهم وعدم المامهم بالمعلومات الأولية الأساسية نتيجة الطفرة والانتقال الفجائي . وقد فطن المعلمون لهذا الخطأ فأصلحوه وسلكوا مسلكاً معتدلاً وخير الامور الوسط

ومن اجل ما يشاهده المعلم اليوم في مدارس النساء وخصوصاً فينا ، الصبيان والبنات يكبون على أعمالهم بثغور باسمه وقلوب تحقق طرباً ، ونظراً

لما أحدثته النظريات الحديثة في التعليم من تغيير وتبديل وما منحته للطلبة من الحرية والتفكير والأعمال اليدوية

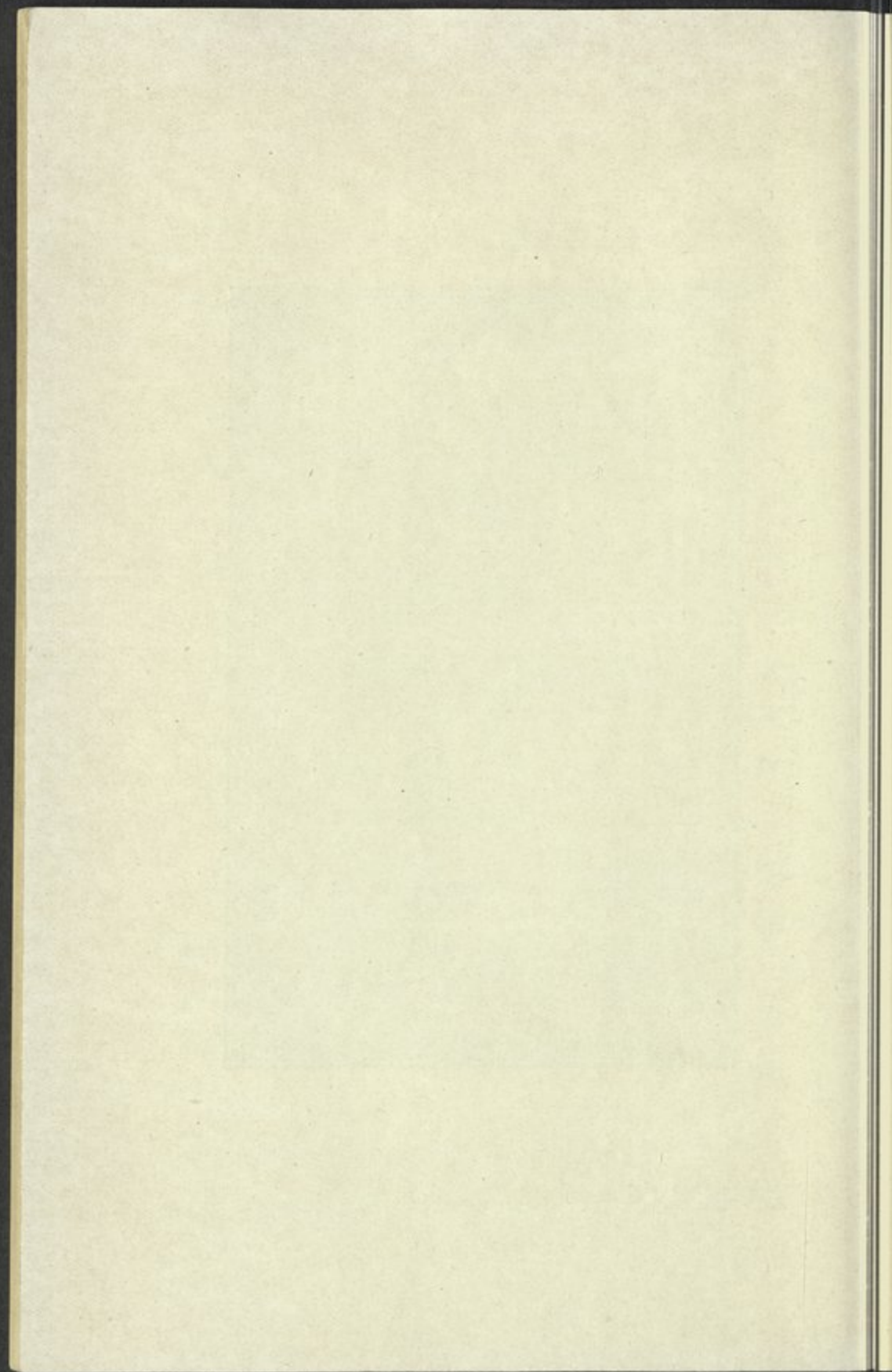
كان لايبنتز (Leibnitz)، الفيلسوف الألماني القديم، يقول: اعطني زمام التعليم وأنا اغير في قرن واحد وجه المعمورة. ويحق لنا نحن المعلمين اليوم أن نكرر هذا القول مع تقصير المدة من قرن إلى بضعة سنوات.

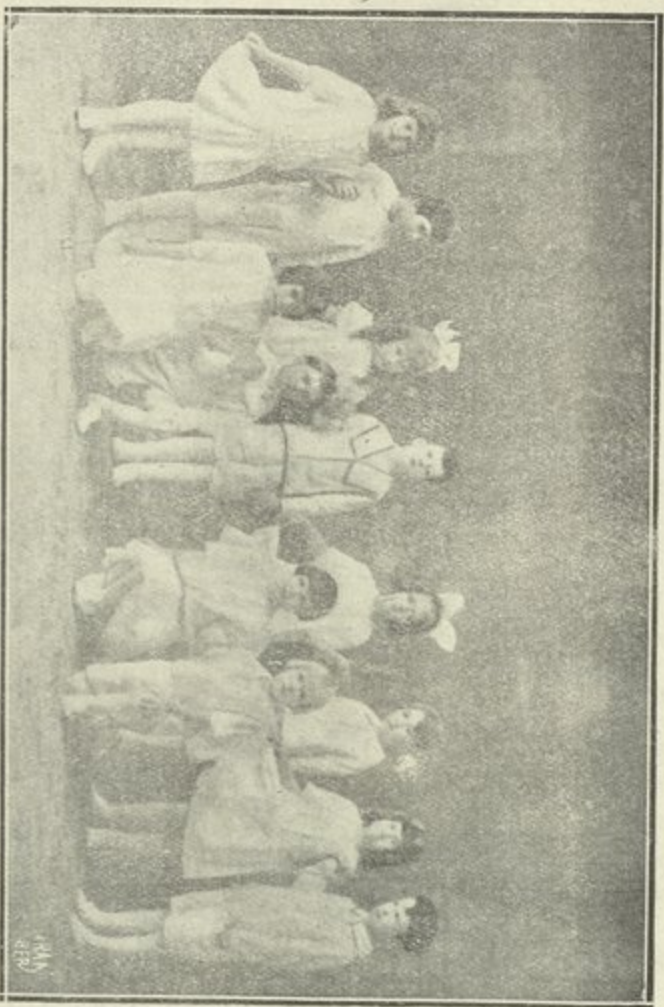
وحتى يتبين للقارئ كيف نعوّد الطلبة الابتكار في الكتابة، كما نعلمهم التفكير والابتكار في كل مادة من مواد الدراسة، أضع امامه نموذجين من أنشاء اطفال في مدرسة ابتدائية. وقد كتب هذان الموضوعان في حصّة مدتها نصف ساعة. ولم يفهم المعلم بكلمة واحدة، سوى أن كتب رأس الموضوع على السبورة. والموضوع الأول « اليد » كتبه تلميذ أقطع (ذو يد واحدة) والثاني « نزهة مشياً على الاقدام » كتبه تلميذ يكاد يطير ولعاً بالموسيقى. وكلاهما يبلغ الثالثة عشر من عمره

الموضوع الانثائى الاول

اليـد — بقلم تلميذ أقطع في الثالثة عشر من عمره

في زاوية من زوايا الشارع كثير الزحام، جلس عجوز. وهو من عجزة الحرب العظمى، فقد يده اليسرى في ميدان القتال وصناعته الوحيدة التي يعيش منها التوقيع على الارغن بيد واحدة. ولا سبيل





الأناشيد القومية والموسيقى من أهم الواجبات المدرسية

اليه ان يؤدي عملاً آخر . مررت به في طريقى الى المخازن التجارية وكان البرد شديداً . وأجد نفسى على الدوام ميلاً لهذا الرجل لسبب لاعلمه . وهو يجلس هناك فى البرد من الصباح الى المساء . ودخله اليومى لا يتجاوز بضعة مليات . ولا يقدر أن يسكن غرفة دافئة جميلة كما يفعل الكثيرون . فكرت فى حاله فاقتربت منه . ورأيت يله يلعب يمه على الارغن ولكنى لم اسمع الموسيقى بسبب حركة المرور

ولما مررت به القيت اليه بضعة مليات فى صندوقه فشكرنى . وقد بقيت ذكرى الرجل العجوز ذى اليد الواحدة فى مخيلتى مدة طويلة . وبينما انا افكر فى حالته خطر على بالى فكرة فسألت نفسى السؤال الآتى :—
« ماذا يفعل الرجل المسكين لو فقد يده الوحيدة ؟ »

ولست ادرى لم خطر على بالى هذا الفكر ، ولكنى كلما مررت به أو اقتربت منه ، جالت فى خاطرى الفكرة بالرغم منى سرت يوماً فى الشارع الذى يجلس فيه العجوز ، وكلما كنت أقرب من مكانه ترداد عينائى تحولا اليه وشغفاً برويته ، نظرت الى المكان من بعد ولكن لم أجده . فأين هو ؟ فكرت فى الموضوع وجال فى خاطرى امور شتى ، أهمها يده الوحيدة . ولكن قلت لنفسى : يبعد جداً أن يكون قد فقد يده الأخرى

اقتربت من المكان فرأيت امرأة طاعنة فى السن جالسة الى الآلة الموسيقية التى كان يوقع عليها الرجل ذو اليد الواحدة . وكانت تجمده كما كان

هو يجيده . دنوت منها وقد حار سؤال بين شفتي . ولما فهمت ما يدور
بخلدي خالجه الحزن فاستغرقت في البكاء وأجابتنى : —
« اننى مضطرة الآن أن أطلب رزق اثنين لقد فقد اليد
الأخرى !! أواه ياسيدى !! لا طاقة لى على الكلام . لقد كان حظى
منكوداً !!

.....
ألقيت بضعة مليات فى الصندوق وأسرفت فى الخطي ، وقلبي ملؤه
الحزن والكمد

الموضوع الثانى

نزهة مشياً على الأقدام

بقلم تلميذ شديد الولع بالموسيقى

منذ مائة عام ، سنة ١٨٢٨ ، أخذت أنزّه فى الجبال الحصينة القريبة
من مدينة فينا ، وكانت الشمس مشرقة من جو صافى الاديم . وكان ضوءها
يكسو المتنزهين ، من صاعدين ونازلين ، مهابة وجلالة : وكان الكثيرون
يسيرون الهوينا فى أوقات الفراغ ، وكانت ملابسهم بالغة حد الاتقان
وكأنهم كانوا يرجون بقدوم الربيع . وكانت الاشجار الكبيرة التى مضى
عليها مئات من السنين مغطاة بالازاهر . وبعد أن وقفت قليلا امتع النظر
بما حولى من حصون فينا المنيعة ، استأنفت المسير الى أن بلغت طريقاً خلف

بنايات شاهقة. وكان هذا الطريق خلواً من المتنزهين، فلا عاشقون ولا عاشقات ولا ماجنون ولا محبون ولا غير هؤلاء ممن يعكرون صفاء ذلك الجو ويؤثرون في ذلك السكوت العميق

هناك جلست على مقعد واستخرجت من جيبي المقطوعة الخامسة من أناشيد الموسيقى العظيم يتهوفن، رغبة منى في التغفل في جمالها. ولكنى لا اتقدم إلا قليلاً ولا أستطيع أن أركز افكارى في الحان ذلك الفنى الكبير. شئ يزعجنى - ولعله هواء الربيع

ولما رفعت بصرى عن ورقة الموسيقى، شاهدت شاباً أسود الشعر يلبس نظارات ويسير متأملاً وهو يتطلع تارة إلى أعلى وتارة إلى أسفل. ثم وقف فجأة وحدق النظر إلى ثم حول عينيه إلى ورقة الموسيقى التى كانت بين يدى، ثم خاطبني قائلاً أرجو عفوك الشامل. هل تأذن لى أن أسألك ياسيدى عن نوع الموسيقى التى أراها على هذه الصفحة فأجبتة إلى طلبه. وبعد أن نظر إليها قال: « آه يتهوفن، المقطوعة الخامسة » ثم أخذ يدمدم منشدًا. ثم سألتنى وعلى سيمائه علام الحياء: « هل تأذن لى أن أسألك ياسيدى كم تحب هذه المقطوعة؟ » فأجبتة أنها مدهشة للغاية. فأمن على هذا القول وقال: « كم كنت أود لو كان الناس جميعهم يعتقدون فى يتهوفن كما تعتقد انت. مسكين يتهوفن! كم له من اعداء! أن الكثيرين يسمون فنه الملائكى العظيم ضوضاء مزعجة، فى حين أنهم يسمون ذلك السخف الذى يوقعه ذلك الايطالى الموسيقى. أن يتهوفن حقيقة هو الموسيقى الجدير بهذا الاسم

وهو الموسيقى الوحيد في العالم كله »

لقد كان هذا الشاب مملوءاً بالغضب والحدة ، مما كنت لا اتوقعه منه
ثم سألته « هل انت موسيقى ياسيدى العزيز ؟ » فاجابنى نعم ومؤلف موسيقى
ايضاً وطلب الغفو عما ابداه من الصراحة . ثم سألته اذا كان لديه شئ مما
وضعه الموسيقى . فأجاب نعم واخرج مقطوعة لم تنجز بعد ، قال انه اتم الجزء
الاول منها وانه يوشك أن ينهى الجزء الثانى
ولما أن نظرت الى المقطوعة المكتوبة بخطه رأيت على غلافها ما يأتى :
« من وضع فرانز شوبرت »

الفصل العاشر

التعليم والسياسة

(ثامناً) تأثير السياسة في التعليم . أن التعليم ينبغي أن يكون في معزل عن السياسة ، ذلك أن التعليم في كل بلد من بلدان العالم مستقل استقلالاً تاماً عن كل نفوذ سياسي ، وكل دائرة سياسية . فأعظم بلدان العالم تقدماً في التربية تتأثر بعض التأثير من هذا النفوذ ، وذلك التدخل ، بطريقة غير مباشرة على الأقل

وأذا تتبعنا تاريخ التعليم وجدنا أثر هذا التدخل ظاهراً ظهوراً جلياً كما أبنّا في الفصل الثالث . وإذا درسنا الحالة اليوم في جميع ممالك العالم ، وصلنا إلى هذه النتيجة . غير أن هذا التأثير في تلك الممالك لا يعد شيئاً إذا قيس بما نشاهده في بلادنا

أن مناهج الدراسة في بلادنا تتنوع بتنوع الوزارات ، ونظم التعليم تتغير بتغير الوزير ، والكتب المقررة تُلغى وتقرر سواها ، واللجان تشكل ، والقرارات تعدل وتنقض وتُلغى ، ونتائج الامتحانات كقياس الحرارة ، تَعْلَو وتَنْخَفِض ، بقاء وزارة وسقوط أخرى

والمنقشون والنظار والمعلمون ، ورؤساؤهم ومرؤوسوهم ، ينقلون ويرقون ، ويكافأون ويجازون ، بتكوين هيئة جديدة على أنقاض هيئة قديمة

والتقارير الضافية تؤيد فيعمل بها ، أو تنبذ فتلقى في سلال المهملات
تبعاً للأهواء السياسية

والمفتشون والنظار وسائر رجال التعليم ، تنحصر مهمتهم في السياسة
الوزارية بدلا من الأعمال الفنية .

والمدارس على اختلاف أنواعها ، تفتح أو يعدل عن فتحها ، والفصول
الجديدة تضاف أو يستغنى عنها ، تبعاً للجو الوزاري

وحيال هذه التقلبات ، يقف والدو الطلبة حيارى في أمورهم ، إلى جانب
جهلهم ، ويمزق مستقبل أبنائهم شراً ممزق . وكيف يتسنى لنا تجنب الخطأ ،
ومراعاة الصالح العام ، وأتباع الآراء الحديثة في التعليم ، ودرس نفسيات
التلاميذ ، والبحث في حاجاتهم الصحية والاجتماعية — كيف يتسنى ذلك ،
وخططنا كلها مدعوة إلى الأمام — أو الورا على الأصح — بدفة تديرها
السياسة

أن معاهد العلم ينبغي أن تشاد على أساس حاجات البلاد . ولا بد لنا
قبل تشييدها أن نجمع الأرقام الإحصائية الوثيقة ، التي عليها تبنى هذه
الحاجات . كم طبيباً يحتاجه كل ألف من السكان ؟ كم قاضياً ومحامياً ؟ كم مهندساً
وميكانيكياً وبنجاراً وتاجراً ومعلماً ؟ ما مصادر الثروة في البلاد وإلى أي مورد
منها توجه جهودنا ؟ ما نقص التعليم في بلادنا ؟ هل تنقصنا الفنون الجميلة ،
والأعمال اليدوية ، ورجال الزراعة والصناعة ؟

في ضوء هذه كلها ينبغي أن تؤسس معاهد العلم ، وفي هذا الضوء يجب

أن يكون التدخل السياسى ، إذا صح لنا أن ندعوه سياسياً . فالدولة ترسم الخطط التعليمية ، كما ترسم غيرها من الخطط ، ولكن ليس معنى هذا أن يهدم الخلف ما شيد السلف ، لمجرد اختلاف النزعة السياسية

نصدر القوانين أحياناً ، منعاً لتدخل الطلبة فى السياسة ونوقع عليهم أشد العقوبات إذا ما زجوا أنفسهم فيها فعلاً ، غير أننا نحرم عليهم ما نحمله لأنفسنا ، فتحول وزارة المعارف برمتها إلى أركان حرب سياسية ، تبعث منها العيون ، وتنشر الجنود فوق خطوط الدفاع ، ونخلق حالة حرب بغير مسوغ ، ونغرق النظر والمعلمين فى يم من المنشورات والأذارات الإدارية ، التى تشف عن نزعات وأهواء سياسية حزبية

وقد نشرنا منذ سنوات فصلاً فى هذا الموضوع فى جريدة سيارة نقطف منه ما يأتى : —

كثيراً ما كانت السياسة عقبة كأداء فى سبيل التعلم فى كل زمان ومكان تقريباً ، والتاريخ أصدق شاهد على ذلك . ولا أذهب بالقارىء الكريم إلى عصر بعيد فقد كانت المدارس فى الأمبراطورية الفرنسية فى حكم نابليون أطوع له من بنانه ، ورهن اشارته . وكان الاساتذة خداماً لنا بليون ووسطاء فى تنفيذ سياسته وتلقفها للنائشة ، كما وضعها هو من غير أن يحيدوا عنها قيد شعرة . وكان من يخالف تلك السياسة من رجال التعليم يستهدف لاشد العقوبات البدنية

وكانت الجامعة فى حكمه حامية تسرى عليها القوانين العسكرية الصارمة .

وكان الضرب لا يقتصر على الطلبة بل يتناول الاساتذة أيضاً. وكان للأساتذة زى خاص ، ولهم رتب عسكرية تختلف درجاتها باختلاف كفاءة كل منهم . وكانوا يقرعون الطبول وينفخون فى الابواق فى نهاية مواعيد الدراسة . وكانت الحكومة تتعرض لكل كبيرة وصغيرة فى التعليم ، حتى تقسيم الدروس على الأيام وبيان ما يدرس فى كل يوم

ومن أقوال قيصر روسيا..... « فيجب قبل تحديد كمية التعليم أن ينظر إلى المتعلم أولاً ثم مهنة والده . أن التعليم اذا زاد عن حده كان ضاراً بالأمة ، كما اذا كان ناقصاً . والأمة التى يتعلم أبناؤها جميعهم القراءة والكتابة مقضى عليها لا محالة . فأن الفلاح الذى يتعلم البيان مثلاً لا يفسد فقط ، بل يصبح عضواً خطراً فى حياة الأمة أيضاً . »

وبعد ذلك بعشر سنوات نشر منشوراً آخر نقطف منه ما يأتى : —
« فلتجنب تعليم الامم الغربية فى أوربا ولنزرع فى شبابنا غريزة عميقة راسخة من مبادئ الارثوذكسية الاتوقراطية القومية التى هى وحدها تنشل روسيا من الحضيض »

وأقرب مثال على ما أقول براطرة الألمان . فأن الجميع يعلمون أن سياسة البراطرة البروسيين كانت محصورة فى عبارة واحدة هى الاستبداد
المسكرى

وقد كانت هذه السياسة تدور حول تلقين (*Indoctrination*) لرجال العلم وهم ينفثونها فى عقول الناشئة ، كما تنفث السموم من أنياب الأفاعى وكانت

المدارس بمثابة ميادين قتال ، تمثل فيها معارك حرية صغيرة
وكان مبدأ تلك المدارس كره الامم الأخرى ، وسحق العدو ، وتذليل
العالم وتقوية أبدان التلاميذ ، واعداد المهلكات ، والنظام الحربي بأكمل معانيه
وقد بلغ هذا النظام أشده في عصر غليوم الثاني ، الذي كان يقول
« ... حتى تتبوأ المانيا مكانها تحت الشمس » والذي تم على يديه خراب بلاده
وذلها وبؤس العالم الأنساني

كانت المدارس في أيام أولئك الجبابرة لا تستخدم الأجراس ، بل
عندما تأذن ساعة الانصراف أو الدخول تدق الطبول وينفخ في الابواق ،
كأنهم على أهبة الاستعداد للنزول إلى حومة الوغى . ورأى العالم فساد هذه
المزاعم وبطلان هذه النظريات ، ولا سيما بعد الحرب الحاضرة ، اذ رأوا
بعيونهم كيف أن تلك السياسة الخرقاء قضت على آل رومانوف وهو هنزلرن
قضاء مبرماً

وقد بلغ التعليم في أوروبا منزلة سامية ... ويرجع الفضل في ذلك إلى
فصل التعليم عن السياسة في كثير من الولايات . ففي ولاية نيويورك مثلاً
مجلس عام للتعليم يطلق عليه اسم (Board of Regents) ينتخب أعضاؤه
بأكثرية الأصوات مجلس التشريع الأعلى والأدنى ، ويستمررون في مراكزهم
طول حياتهم وكلما توفي أحدهم انتخب سواه دواليك . وهؤلاء الاعضاء بعيدون
عن كل تأثير سياسي ولا هم لهم إلا الحصول على الأموال التي تدفعها حكومة الولاية
للتعليم الإلزامي المجاني

ولقد أسهبت في هذه المقدمة الضافية ، إشارة إلى التقلبات التي تمر على التعليم عندنا تبعا للوزارات الكثيرة التي تقبض على دفته وتسير مجرى الأعمال فيه . . ولا يفتأ كبار موظفي التعليم وعظام رجاله يتأثرون بعوامل الأحوال السياسية ونفوذ الميول الشخصية وما يتبع ذلك من تغيير حالة النشء طبقاً لتلك التغيرات وما يعترض لهم من بيئات وأجواء

فلا غرابة إذا أنصرف هم وزارة المعارف عندنا إلى المسائل الإدارية كتعديل الدرجات والتنقلات وترتيب الامتحانات العمومية ، وما شاكل ذلك . أما المسألة المهمة التي لأجلها أنشئت وزارة المعارف من ترقية التعليم ونشره وتسهيل السبيل لنيله لأكبر عدد مستطاع من أبناء الأمة فمن المسائل الثانوية

فأين التجارب العلمية ؟ وأين المباحث والمؤتمرات واللجان ؟ وأين المؤلفات التي تبحث في أحدث الآراء في التربية ؟ وأين النظم والاساليب التي تنوعت عند الغربيين ؟ وأين طرق التعلم الحديثة ؟ وأين الكتب في علم النفس وفلسفة التربية وعلم الاجتماع ؟ وأين الكتب المدرسية الحديثة لتعليم المبادئ الأساسية ؟ وأين المصانع الوطنية لصنع المقاعد والأدوات المدرسية على أحسن طراز ؟ . . وأين الأخلاق العالية والنشاط والحماسة في الطلبة والمدرسين ؟ ومتى ينصرف الطلبة قلباً وقالباً إلى الدرس والعمل ؟ أن ما نراه اليوم من هبوط مستوى التعليم في بلادنا وانصراف الطلبة عن المثابرة والدرس ، ليس هو إلا أعراض المرض وليس المرض نفسه . والوزارة

تحاول استئصال شأفة هذه الأعراض . وهي تحاول في ذلك معالجة مهمة شاقة خطيرة . غير أن الأجدربها أن تستعمل الدواء فيزول الداء ، ومن ثم تزول الأعراض . وأفضل من ذلك أن تلجأ إلى الجراحين ، فآلات الجراحة أتجمع وسيلة لقطع دابر المرض ، من عقاير الصيادلة . فقد حان الوقت وأزفت الساعة ، لأن يشتغل رجال التعليم بالعلم نفسه ، لا في بذل الجهود كلها في زخرفة الآلات التي تديره ، وصقلها

وفي وزارة المعارف اليوم من رجالها الأكفاء من يكفل نجاح التعليم في بلادنا . وطالما وجهت الأنظار إلى تثبيت قدم الهيئة المشتغلة فيه ومنعها من أن تكون ريشة في مهب الرياح السياسية والتقلبات الوزارية .

ويقول أنصار السياسة في التعليم : « أن الحكومة لا يتسنى لها غض الطرف عن التعليم ، ولا يتسنى لها فصل السياسة عنه ، طالما كان التعليم هو البوتقة التي فيها تسبك مبادئ الأمة وخططها وحركات أبناء الجيل القادم وسكناتهم وشعورهم العام حيال الحكومة ، وأن بالرغم مما يدعيه بعض المربين والمعلمين فإن فصل المدارس ومعاهد العلم على اختلاف أنواعها ودور حياتها عن السياسة أمر مستحيل . ينادى الكثيرون قائلين : فلنسقط السياسة في المدرسة ، غير أن هؤلاء مراؤون ، كذابون ، ينطقون بغير الصواب ويخالفون الواقع . لأننا إذا قلبنا صفحات الحوادث منذ فجر التاريخ لم نجد زماناً أو مكاناً كان

لهذا الفصل أثر فيهما ، بل على النقيض من ذلك ، كان التعليم العام جزءاً لا يتجزأ من السياسة العامة

« فقد كان التعليم عند قدماء اليونان ، وعلى الأخص في اسبارطا في قبضة الدولة . وكانت لها السيادة التامة في جميع الأطوار . وكانت الحالة كذلك في العصور الوسطى ، بطريقة غير مجسمة . أما الثورة الفرنسية ، فقد واجهت المسألة في صراحة تامة وبكيفية مباشرة ، وذلك أنها جعلت خطط التعليم خاضعة خضوعاً تاماً للأغراض السياسية التي جعلتها الدولة الجديدة هدفاً تصوب نحوها سهامها . وتاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا وأميركا حافل بالأدلة المؤيدة لهذا المبدأ . وروسيا البلشفية أشد مراعاة من جميع الدول في الماضي والحاضر لهذه السياسة »

وهذه الحملة الشعواء التي يحملها البلاشفة وأمثالهم ضد مبدأ فصل السياسة عن التعليم ، لا مبرر لها . وسواء أكانوا مخلصين صادقين في دعواهم ، أم مضللين ، فإن هناك خطأ جوهرياً في تعريف السياسة . فإذا كان المقصود من السياسة الدولة أو الحكومة كما يفهم من العبارات السالفة ، فأنا متفقون معهم في أن التعليم لا يمكن فصله عن أيهما ، لأن الغرض الأسمى من التعليم ، في نظر الحكومة على الأخص ، تخليد الدولة . وكيف تستطيع الدولة تخليد نفسها ، ما لم ترسم هي خطط التعليم التي بموجبها يسير أبناء الوطن ، وعلى صراطها يروحون ويحيئون ، شاعرين ومفكرين ومريدين وعاملين ؟

أما إذا قصدنا بالسياسية ما يكون عرضة للأهواء الحزبية والتقلبات المصلحية « البيروقراطية (bureaucratic) — وهو المفهوم من العبارة في بحثنا، فأننا لا نشك دقيقة في أن هذه ينبغي فصلها عن التعليم العام لأنها تجعله لعبة تتناولها يد فتخاطفها أخرى، وترسله ريشة في مهب الريح تسير إلى حيث تطوح بها الزعازع والأعاصير، على غير هدى

وقد كتب دكتور تشارلس وطسن رئيس الجامعة الأميركية بالقاهرة ما يأتي : —

فإذا ما عاجلنا هذا المشكل وجدنا له نظيراً في كل مملكة تقريباً. ولو أنه أشد وطأة في بلاد دون أخرى. ومن المفيد أن نعترف صراحة بالأضرار العظيمة التي تنجم عن تأثير السياسة في التعليم والفوائد الباهرة التي تنتج من ابتعادها عنه كما يتبين من الآتي

(١) أن التدخل السياسي يهدم سياسة المداومة في حياة الأمة التعليمية فكل بحث عميق في النظم المدرسية لا يكون له الأثر المطلوب مادام كل تغيير في تشكيل الهيئة الحكومية القائمة بالأمر يضع هذا البحث في خبر كان. نقطة التعليم الأهلى ليست نباتاً يكمل نموه في عام واحد بل تحتاج إلى سنوات عديدة أو جيل أو أجيال قبل أن تأتي بالثمر المطلوب

(٢) أن التدخل السياسي يقضى على إخلاص رجال التعليم وكفائتهم وذلك لأن عقولهم تتجه من واجب العناية بالتربية إلى واجب الجهاد السياسي

(٣) أن التدخل السياسى يقضى على النظام فى معاهد العلم . أن مظاهرات الطلبة أمر لا يوافق عليه أحد من زعماء البلاد المفكرين فى جميع الأحزاب غير أن مساوئها لا يمكن أن تنزع من صفوف الطلبة ما لم ينح التعليم تنحية تامة عن الجو السياسى . ولا بأس أن يشجع الطالب على درس علم سياسة الدول والحكومات ولكنه لا يستطيع أن يلم بأطراف هذا الموضوع ما لم تكن حياته بعيدة عن أهواء الأحزاب

وليس ثمة ما يدعو إلى الأفاضة فى هذا الموضوع فأن هناك أمثلة عديدة فى البلدان الأخرى توضح لنا هذه المسألة . ونذكر من قبيل الاستشهاد ما حدث فى شيكاغو بأميركا مما يدل على التأثير السىء الذى تحدثه السياسة فى التعليم . فهناك رفض الأستاذ ماكدروس أن يخضع خضوعاً أعمى للتدخل السياسى وهو مدير للتعليم فى تلك المدينة الكبرى ومن أكابر رجال التربية فيها . ويحسن بنا أن نذكر مثالا آخر من ولاية نيويورك التى خبرت هذه المسألة مدة مئة سنة وحكايتها تمثل لنا هذه المسألة تمثيلاً جليلاً . يبلغ عدد سكان ولاية نيويورك أكثر من ١١ مليون وعدد مدارسها ١٢ ألف وعدد معلمها ٧٠ ألف وعدد طلبتها أكثر من مليونين وتبلغ نفقات التعليم العام فيها سنوياً ٨٥٠٨٦٤٠٠٠ جنياً مصرياً . ولا شك أن عدداً كبيراً كهذا من المدارس عرضة للنفوذ السياسى ما لم يكن هناك ما يجعلها بعيدة من أن تكون آلة لهذا النفوذ . وقد عمد أولو الأمر إلى تجنب هذا النفوذ بعدة طرق . فمنها أنهم لجأوا إلى اللامركزية . أى أن كل إقليم أو وحدة فيها تدير مدارسها

بنفسها ومنها إنشاء مجلس التعليم الذي يتولى إدارة هذه المدارس ورسم السياسة التعليمية لها وسن القوانين والاشراف العام وما إلى غير ذلك. ويتكون هذا المجلس من اثني عشر نائباً ينتخبون من الدوائر القضائية بنسبة نائب واحد عن كل دائرة ويضم إلى هؤلاء ثلاثة أعضاء آخرين . وانتخابهم يكون بأغلبية الأصوات في مجلس نواب الولاية وشيوخها مجتمعين . ويبقى هؤلاء في وظائفهم اثنتي عشرة سنة ويتخلى كل سنة عن وظيفته واحد من هؤلاء حتى لا يكون هناك تغيير فجائي في أعضاء المجلس ويقوم بالأدارة رئيس وثلاثة وكلاء يعينهم المجلس ويكونون مسئولين أمامه . والنقطة التي نريد توجيه الأ نظار إليها هي أن خطة التعليم العام ينبغي أن تشمل اقتراحات منتجة تتجنب بواسطتها تأثير السياسة في التعليم »

الفصل الحادى عشر

الحكومة ومجال الأعمال

لم يبق فى مباحثناه عن مصير الشاب المصرى إلا كلمة واحدة ، نسوقها لحكومتنا الجليلة . وهو أننا إذا افترضنا بلوغ أمنيته من نظم التعليم العملية الحديثة ، والقضاء على النظم النظرية العتيقة ، وهدم الخطط التى اتضح بطلانها ، أو إصلاحها تدريجياً تبعاً لسنة الذشوء والارتقاء ، وهو ما لا نشك فى احتمال وقوعه فى المستقبل القريب ، فإن هذه الخطط الحديثة لا تجدى تفعلاً ، أو على الأقل لا تأتى بالفائدة المطلوبة كلها ، ما لم تتخذ الحكومة العدة ، لتمهيد السبل الاقتصادية إلى جيوش المتضاعفين الذين يتضاعف عددهم عاماً بعد عام ولا يتسع المقام لشرح هذه السبل الاقتصادية ، التى تفتح أبواباً للشبان ، لا تزال موصدة . فى وسع سواى أن يتخذها عنواناً للمجلد ضمنى شامل ، يجمع بين دفتيه إحصائيات دقيقة عن دخل الفرد ، ومقارنته بمثله فى بلدان الشرق والغرب ، وتوزيع الثروة ، ومصادر هذه الثروة ، والمصالح الأميرية ، والخصوصية ، من أهلية وأجنبية ، ونسبة موظفيها من أهل هذه البلاد ، وعدد المشتغلين بالزراعة والصناعة والتجارة ، وما يقابل هذا العدد فى بلدان أخرى وتحليل هذه الأرقام ، وتفسير معانيها وأرجاع نتائجها إلى أسبابها ،

تفتح الأذهان ، وتوجه الأنظار الى مسائل اقتصادية ، ومشاكل عملية ،
وتكون في الوقت عينه مقدمة لحل هذه المسائل وتلك المشاكل

يبد أن هذا لا يمنع من أن أشير بأيجاز الى بعض الوسائل ، التي أذاعنت
بها الحكومة ، فتحت للرزق أبواباً ، وسهلت للشبيبة طرق العيش . وأقول
الحكومة لأن أكثرها من وظيفة السلطة التنفيذية . غير أن مجهود الجماعات
والأفراد لا يستغف به ، وتضافر الحكومة والأهالي معاً على إيجاد هذه الوسائل ،
من أهم ما ينبغي الاشتغال به بأول فرصة ممكنة . وهذه هي الوسائل المشار
اليها بالاختصار : —

(١) تحديد الهجرة . أن بلاد الله واسعة فضاها ، والناس في طلب
أرزاقهم ، والجري وراء أقواتهم ، أحرار في تخير البلد الذي يقصدون . وبني
البشر جميعاً ، على اختلاف أجناسهم وجنسياتهم وسلالاتهم وألوانهم ،
أخوان في الانسانية . وما حدود الممالك ألا حواجز غير طبيعية ، أقامها
الإنسان في وجه أخيه الإنسان ، طمعاً وحسداً وكرهية وعدواناً . وطرق
المواصلات وسهولتها ، براً وجواً وبحراً ، أشد المعاول وأشدّها تهديماً
لهذه الحدود ، وتقويضاً لتلك الحواجز

هذا هو المبدأ النظري الصحيح . غير أن هذا المبدأ السامي ، الذي يمد
بين مبادئ الانسانية ، مثلاً أعلى ، لا يمكن تطبيقه نظرياً . وما ذلك الا أن
مثل الأئمة مثل الأفراد . فكما أن مال الفرد ومتاعه وملكه ، كله وقف

عليه وعلى المقربين اليه من أبنائه وزوجه وبناته وأخوته وأخواته، فكذلك الأمة حرة في بلادها وأملأكمها، تجارتها وزراعتها، ولها أن تمنع عنها جيرانها من الالم الأخرى. ولا شك أن ما ينطبق على ميادين الأنسانية في الأفراد ينطبق عليها في الأمم

وقد كان مبدأ الأنسانية المشار اليه سهل التطبيق ، حينما كان عدد السكان محدوداً ، وكانت الارض بكرةً ، وكان العيش سهل التناول . أما وقد ضاقت سبل الرزق واكتظ العالم بالسكان ، فإن الدول قد تيقظت ، وأخذ التشريع يوقف سيول المهاجرة ، حتى في البلاد التي يتسع نطاقها لقبول النازحين من الممالك الأجنبية

فولايات اميركا المتحدة تسع الف مليون نسمة ، مع أن عدد سكانها لا يتجاوز ١٢٠ مليون نسمة . ورغم ذلك فإن قوانين المهاجرة فيها أشد من أية قوانين أخرى في العالم ، وهي لا تقبل أكثر من نصف مليون مهاجر سنوياً ، يشترط فيهم أن يكونوا من غير سلالات سوداء (زنجية) أو صفراء أو سمرات ، وأن يخلوا من الأمراض المعدية على اختلاف أنواعها ، والأمراض العصبية ، والضعف البدني والعقلي وياض صحائفهم فيما يتعلق بالجرام وأدمان الخمر والمخدرات الخ

ورغم مساحة ولايات أميركا المتحدة هذه ، فإن الكساد المالي الأخير، وهبوط المستوى العالمي الاقتصادي ، قد ترك أكثر من ثلاثة ملايين من

السكان هناك بغير عمل. وهذه نتيجة في غاية من الغرابة ، مراعاة لثروة تلك البلاد الطائفة

حيال هذه الحقائق الواضحة يتضح أن هذا المبدأ الانساني قد خرقت حرمة اضطراراً ، وأصبح لسان الحال في كل أمة ، أنا أولاً والغريب ثانياً. وقد خلق هذا المبدأ الجديد شيئاً من الجفاء بين الأمم ، خصوصاً بعد أن استحال نزع بعض الحكومات فيه إلى منتهى الشدة ونهاية التطرف . بيد أن التجاء عدد من الدول إليه ، وأعتراف القانون الدولي به ، خفف من وطأة هذا الجفاء ، وأصبحت قوانين المهاجرة أجراءات معتادة ، كالتعريف الجمركية وجواز السفر وغيرهما

وبالرغم من هذه الحقائق ، فإن مصر لا تزال مفتوحة أبوابها ، يرد إليها صعاليك ييرية وقبرص وجزر أيجيه ، ومتشردو نابولي وبرنديزي بالمشات ، على ظهور البواخر التي ترد إلى ثغور بور سعيد والسويس والاسكندرية يومياً . بغض النظر عن صحة المهاجرين ، وجنسياتهم ، والأحكام التي وقعت عليهم ، وسلامة عقولهم وأبدانهم ، والمهن التي يحترفونها

وأغرب من ذلك كله أن الكثيرين من هؤلاء يقبض عليهم بعد دخولهم لأدماهم المخدرات والمتاجرة بها ، وارتكابهم جرائم القتل والسرقة ، وأخلالهم بالأمن العام ، أو اشتغالهم بالشيوعية أو المتاجرة في الأعراض وهتك حرمة الآداب العامة ، ثم توصل الحكومة إلى قناصلهم فتتمكن من أبعادهم خارج القطر ، غير أنه لا يمضي طويل حتى يعودوا مرة أخرى بأسماء أخرى وأزياء

أخرى وجوازات أخرى وحرف أخرى. ثم لا يلبثون طويلاً حتى يبعدون مرة أخرى وقد تمكن بعض هؤلاء من العودة بعد إبعادهم أربعين مرة، بطرق جهنمية، لا تصل إلى أفهام أولى الشأن.

عدد سكان المصريين يشب بسرعة فائقة. وتعداد السكان يظهر لنا حقائق مروعة. فأذا لم تتخذ لهذه الزيادة العدة، سدت في وجوه أبناء هذه البلاد سبل الرزق، ووقفنا في مأزق اقتصادية اجتماعية، لا حول لنا الخروج منها سالمين. كانت مصر منذ عهد قريب أشد بلدان العالم ازدحاماً بالسكان بعد بلجيكا، فأصبحت اليوم أشد ممالك العالم ازدحاماً قاطبة

وتقريباً للأفهام أقول أنه لو كانت نسبة ما يخص الميل المربع الواحد من السكان في الممالك الأخرى مثل ما يخص مصر لبلغ سكان فرنسا ٢٨٠ مليون نفس وبلغ سكان استراليا ٤٠٠٠ مليون نفس

أن بلاداً ضيقة كمصر، من أشد بلاد العالم حاجة إلى قوانين المهاجرة وإلى تضيق الخناق على أولئك الذين يقدون إليها من كل صوب، فارغى الجيوب، منحطى الأخلاق والمبادئ، فلا يكادون يحلون فيها أياماً حتى تمتلئ خزائهم بالمال، الذي يتسرب منها إلى الخارج، وحتى تخلق بواسطتهم مشاكل اجتماعية أخلاقية نحن في غنى عنها

وكيف نستطيع أن تعلم لنعيش إذا فتحنا أبواب التنافس على مصارعها

خصوصاً وأن مبادئ التجارة والصناعة في بلادنا ، يجلبها أهل البلاد ، فأذا ما تغلغلوا فيها ابتلعهم ذلك التنافس الأجنبي
أننى لا أعنى يبحث هذا أفاضل الاجانب الذين لم يفدوا الى بلادنا ألا بدوافع أنسانية محضة ، لنشر المبادئ الصحيحة ، والثقافة العامة ، وفتح الملاجىء والمستشفيات ، ولا أعنى أولئك الذين لهم في رفع المستوى الفكرى والعقلى والاجتماعى والصحة القدر المعلى . أن هؤلاء قليلا والعدد تنتفع بخدماهم اجتماعياً واقتصادياً ، وامثالهم في سائر ممالك العالم كثيرون



رأى قراء الصحف ممن يتبعون سير الحوادث في تصريح لرئيس أمانة الشرق الأدنى ، منذ عهد قريب ، أنه في خلال سبع السنوات الماضية قبلت الحكومة المصرية ثلاثة آلاف من الصبيان والبنات اليتامى الذين أرسلتهم معاهد البر الاميركية . وهؤلاء جميعهم من المنكوبين الذين حلت بهم الاقدار اخيراً في عدة اماكن في الشرق الأدنى

ان واجب الانسانية يقضى أن نخفف من ويلاتها ما استطعنا الى ذلك سبيلاً ، ولكن هل تتحمل مصر مثل هذا العدد الذى يحل محل الوطنيين في مختلف الاعمال ، حتى مسح الاجذية ؟

(٢) السياسة الاقتصادية . نريد أن تتكاتف الحكومة مع الاهالى على اتماء الثروة ، وذلك لا يتأتى الا بسن القوانين وتدخل الحكومة بعض التدخل في اتفاق الأفراد والجماعات . لا يكفي أن تقتصد الحكومة في نفقاتها

ولا يكفي أن ننصح للناس بالاقتصاد في أموالهم ، فإن هذه النصائح لا تجدى نفعاً في الوقت الحاضر على الأقل

أن الفرنسي بحكم تربيته ، والأحقاب الطويلة التي علمته مبادئ المدنية ، وبحكم مبادئ هذه التربية التي أصبحت طبيعة ثانية فيه — بحكم هذه كلها أصبح مقتصدًا ، وأصبح الشعب الفرنسي قادراً على الاقتصاد وحشد الثروة ، ومجابهة الأزمات المالية العصبية . وما يقال عن فرنسا يقال عن ألمانيا وهولندا وأميركا وإنجلترا وغيرها من الممالك الراقية

في سنة ١٩٢٤ طوّحت بي الأسفار إلى قرية صغيرة قريبة من برلين ، وجمعتني الصدف بأحد أغنياء تلك القرية ، وقد رسمت على منزله دلائل الترف والنعيم . وأشار في حديثه أنه يتوق إلى السفر وقد كف عنه سنوات عديدة . فسألته عن السبب . فأجاب أن الثروة القومية تهددها الصدمة القوية التي أصابت ألمانيا بسبب الحرب العظمى ، وقد اتفق الشعب الألماني على الاقتصاد في جميع مرافق الحياة . وقد جاءت أقواله درساً في القومية عظيماً ، فضلاً عن المبدأ الاقتصادي العام . ولا بد أن المصريين جميعهم قد لاحظوا أن الألمان والفرنسيين قد شطبت أسماؤهم من قائمة السياح عدة سنوات بعد الحرب العظمى . ويشاهد كل من اتصل بالسياح في غير مصر أن هؤلاء لم يبدأوا باستئناف سياحاتهم إلا بعد سنة ١٩٢٥ ، أي بعد الانتعاش المالي في ذينك القطرين

ونظرة واحدة إلى الألمان والفرنسيين اليوم تلقى علينا دروساً وعظات

بالغة في سياسة الاقتصاد . ومن الغريب أن الحكومة الفرنسية نشرت تقريراً عن السياح في فرنسا هذا العام (سنة ١٩٣٠) ، جاء فيه أن عدد السياح الألمان الذين زاروا فرنسا هذه السنة ، يزيد عن السياح من أية أمة أخرى بما في ذلك الأمة الاميركية

لنعد الآن إلى موضوعنا . كيف تتم السياسة الاقتصادية ؟ سأذكر بعض أمثلة واقعية من إيطاليا ، لعلنا نجد فيها حلاً لهذه المسألة : —

لاحظت منذ عدة سنوات أثناء زيارتي لأيطاليا اعلاناً جذاباً كبير الحجم ، وقد وقف أمامه جم غفير من الشعب ، يقرءونه والحماس منهم بالغ أشده . وقد وقفت على بعض ما جاء فيه ، وهو بحروفه : —

« أنا لفي زمن محتاج فيه ايطاليا إلى الثروة . وليس أمامنا سوى الاقتصاد في الكماليات بكل ما أوتينا من ضبط نفس وجلد ، لنقتصد في المهور على اختلاف أنواعها . ولا سبيل إلى الاقتصاد فيها ، ألا بمضاعفة الضرائب التي يجب فرضها عليها » وفي اليوم التالي صدر قانون بزيادة الضرائب عليها ، فقابل الناس القرار ببندائهم « ليحيى موسليني »

صدر مرة أخرى قانون آخر بتحديد المقدار الأبيض من الدقيق الذي يجب أن يحتوي عليه الخبز الإيطالي ، محافظة على الثروة العامة ، والاحتفاظ بالمواد « الفيتامينية » النافعة التي لا ينتفع بها الناس عادة ، أو التي يقدمونها طعاماً لمواشيهم .

وحدث مرة أخرى أنني شاهدت ألوفاً من الناس يهتفون في الشوارع

« يحيا موسلينى » بعد أن قرأوا على الحوائط أعلانات تلقت الأ نظار ، كالتى سبق وصفها . ومما جاء فى هذه الاعلانات : —

« أنا موسلينى ، أشغل يومياً ثلاث عشرة ساعة فى مكتبى . وأزید أن یزید العمال فى ايطاليا عدد ساعات العمل من ثمانى الى تسع ، حتى بذلك نريد من ثروتنا القومية » .

وفى اليوم التالى سار العمال الى مصانعهم ينادون مرة أخرى « يحيا الدوتشه (موسلينى) » . هذا ولا أريد أن أطيل الكلام وأذكر شيئاً عن القوانين التى سنتها ايطاليا بخصوص مهاجرة الطليان من المدن الى القرى حتى تعمر القرى وتريد فى الأراضى الزراعية .

لقد زرت ايطاليا أربعة أعوام متوالية فى الصيف ، وفى كل مرة كنت أتنقل فى كثير من أنحائها خصوصاً القرى الجبلية : ولست أبالغ اذا قلت اننى كنت أجد تلك البلاد تثب من حسن الى أحسن عاماً بعد الآخر وما يقال عن ايطاليا يقال عن فرنسا وتشيكوسلوفاكيا وتركيا

ولست أنادى بأن تقبض على ناصية الحكميد فولاذية كيد موسلينى أو يدم مصطفى كمال ، بل أود لو تكاثفت الحكومة مع الأهالى على حشد الثروة ، وأيقاف تيار الأتقاق والتبذير والأسراف فى الافراح والأحزان ، وتعمير القرى بسن قوانين الهجرة الى المدن والمحافظة على أموال الوطنيين وعقاراتهم . والنقطة الأخيرة على درجة عظيمة من الخطورة ، اذا ألقينا نظرة الى العمارات الفخمة والأراضى الزراعية التى تنزع ملكيتها وتباع الى غير المصريين ،

بعد أن تثقل كواهل ملاكها بالديون . أن قانون خمسة الافدنة لم يلجأ اليه
المرحوم لورد كتنشر ألا لحماية الفلاح من الوقوع فى فخ الديون . والمصريون
للأسف فى حاجة إلى وصاية ، ولا سبيل إلى حفظ متاعهم فى أيديهم ألا
بتشريع خاص

يقولون أن كبار أغنياء المصريين لا يقومون بإنشاء المشروعات التى
بواسطتها تفتح أبواب الرزق . وكيف يمكنهم ذلك وهم يجهلون حشد
الثروة ويلعبون بالنضار ويسيل الذهب من أيديهم كالماء

ولا تكاد هب ريح الازمة حتى تراهم يلجأون إلى المصارف والمرايين
يقترضون منهم الأموال ويجعلون اطيانهم وعقارهم رهينة قلما عادت اليهم
كاملة إذا لم تستهلك برمتها فهل يتسنى لمثل هؤلاء انشاء المشروعات ؟

(٣) تحديد عدد المشتغلين من الأجانب فى البنوك والشركات والمصانع
والمخازن التجارية الاجنبية

من بواعث الاسف أن نرى هذه المصالح مغلقة فى وجود المصريين ،
مفتوحة امام كل طارق سوام . أن عدد هذه المصالح فى القاهرة والاسكندرية
وبورت سعيد وعواصم المديرية ومراكزها تضيق لحصره هذه الصفحات
ولكن هلم معى نعد على اصابنا أولئك الذين حظوا بوظائف فيها من أهل
البلاد ، وهل يلام الناس إذا لم يجدوا غير الوظائف الحكومية ابواباً ؟

ليراجع القارئ قوانين البلدان الاوروبية . وليسافر معى يوماً إلى
فرنسا والمانيا وايطاليا وتركيا . هناك نجد الشركة الانجليزية تقبل من ٧٠ إلى

٩٠ في المائة من موظفيها من أهالى البلاد الذى فيه مركز الشركة وبين ١٠ إلى ٣٠ . على الأكثر من الانجليز

أنشئ بنك مصر ففتح أكثر من ألف باب لأبناء المصريين . فكم تكون عدد الوظائف التى يتاح للشبان الوطنيين أشغالها فيما إذا قبلت ذلك ، البنوك والشركات والمصالح الاجنبية ؟

لا نتكر على أصحاب هذه المصالح أن الأموال أموالهم ، وهى أجنبية ولها فضل يذكر فى ترقية هذه البلاد ترقية اقتصادية واجتماعية ، ولكننا ننكر عليها أن توصد أبوابها فى وجوه أهل البلاد ، ما خلا طائفة لا قيمة لها من الوظائف الحقيمة قليلة العدد . أن سيف الامتيازات الاجنبية مسلول فوق الرقاب فلا تستطيع الحكومة معالجة المسألة بطرق قانونية ، قبل إلغاء هذه الامتيازات . غير أن الحكومة تستطيع ، إذا بذل رجالها جهودهم ، أن تعالج الموضوع بطرق التسوية الودية الى أن يتاح لها إلغاء تلك الامتيازات وأغرب ما يشاهد بهذه المناسبة ما نراه من الشركات التجارية الكبرى ، التى تجنس أصحابها بالجنسية المصرية من زمن طويل ، ولكنهم لا زالون « أوريين » فعلا ، مصريين اسماً ، يشغلون الوظائف التى تخلو عندهم بغير المصريين

يدعى البعض أن تلك المصالح تفضل الأجانب ، نظراً لعدم استعداد المصريين للعمل ، ونقص تربيتهم الخ . قد يكون الشبان المصريون على غير استعداد لتقلد تلك الوظائف نظراً لنوع التربية الميكانيكية التى يتلقونها ،

وقد يكونون أقل درجة من سواهم في الوقت الحاضر . ولكن هل يمنع هذا كله من فتح الطريق امامهم ؟ أن المصريين لم يرثوا من أجدادهم « العقل التجارى » ولم تتح لهم الأيام ما يربى فيهم ملكة إدارة الاعمال ، غير أن لهم رغم ذلك حقوقاً على أصحاب الشركات ومديرى الاعمال الذين يعيشون في أراض مصرية تحت سماء مصرية . يضاف إلى هذا أن هذه الدعوى مبالغ فيها كل المبالغة ، وأن الشكوى لا بد أن تزول بعد حين إذا ما بدأ العنصر الوطنى يشغل معظم الوظائف المومأ اليها . وامامنا ممالك أوروبا تقدم لنا دروساً بليغة في هذا المبدأ الخطير الذى إذا تمادينا في تجاهله ، اصبحنا غرباء في بلادنا

(٤) تشجيع الشركات المصرية والمصالح الوطنية واتفاق الهيئات المسؤولة مع مديريها حتى يرسموا الخطة التى بها يمكن توظيف أكبر عدد ممكن فيها

(٥) الأكثار من فكرة التعاون الزراعى والصناعى

(٦) تعميم الغرف التجارية المصرية فى عواصم المديريات

(٧) اصلاح الاراضى « البور » والتى يمكن الانتفاع بها اذا وجهت غاية أولى الأمر اليها

والنقطة الاخيرة على جانب عظيم من الاهمية للاسباب الآتية : —

(اولاً) لأن اصلاح هذه الاراضى يفتح ابواب الرزق بالآلوف

وعشرات الآلوف كما يتضح من الأرقام التى سأذكرها بعد

(ثانياً) لأنها تزيد ثروة البلاد العامة

(ثالثاً) « وهو أهمها من وجهة التربية » أن وزارة المعارف تستطيع أن تستغل هذه الأراضي ، إذا أنشأت مدارس قروية على نمط المدارس التي أنشئت في بلاد الهند ، التي ذكرناها بتفصيل وافٍ في غير هذا المكان تحت عنوان « فجر القرية الهندية » . ولا يخفى أن الأقدام على مشروع خطير كهذا ليس بالأمر الهين ، لأنه يتطلب مجهوداً ومالاً وخطه وسياسة . ولكنه يعود على البلاد بفائدة توازي أضعاف الفوائد التي ننجيها من إنشاء المدارس الثانوية بغير حساب

وسنرى في الموضوع المشار إليه « فجر القرية الهندية » كيف تستطيع جماعة ، بقليل من المال والذمة والتضحية والفكر ، أن تخلق من الفقر جنة ، ومن الجوع شعباً ، ومن الجهل حكمة

ونظراً لأهمية هذا الموضوع واتصاله المتين بمسألتنا العظمى التي هي عنوان هذا الكتاب : « كيف نتعلم لنعيش » اقتبس بعض الأرقام من الكاتب القدير الاستاذ عزيز خانكي بك المحامي : —

مساحة الاراضى القابلة للزراعة في القطر المصرى ١٣٢ و ٨٠١٢٨ فداناً منها ٧٠٠ و ٢٩٧ و ٥ فدان اراضى مزروعة و ٤٣٢ و ٨٣٠ و ٢ فداناً أراضى غير مزروعة . فلاتيان المزروعة تعادل $\frac{1}{6}$ في المائة من مجموع اطيان القطر . والاراضى غير المزروعة تعادل $\frac{34}{100}$ منها . في الوجه البحرى ٦٥٥ و ٢٦٨ و ٢ فداناً بوراً وفي الوجه القبلى ٧٧٧ و ٥٦٩ فداناً

أليس من الحرام ترك هذه المساحات الواسعة من الاطيان بوراً وهي قابلة للزراعة؟ هذا ما في مصر . وأما في إيطاليا فقد ثبت من تقرير رسمي رفقه وزير الأشغال ان الحكومة الإيطالية اصاحت في عشر سنوات ٩٢٠ و ١٠٠٠ فدان كانت بوراً لا ينتفع بها . ولا سيما مع شدة احتياج الفلاح الى الاطيان ليستغلها وشدة احتياج البلاد الى الحاصلات لتموين اهلها

هذه الاراضى تنقصها المياه والايدي العاملة والمال

— أما المياه فيمكن تدبيرها وتوفيرها بعمل خزانات وقناطر في مصر وفي السودان (على مثال خزان اصوان الذى يخزن فيه في وقت الفيضان ١٣٠٠ مليون متر مكعب من المياه وعلى مثال قناطر اسنا واسيوط والقناطر الخيرية وقناطر زفتى) وبالتدقيق في توزيع مياه النيل في مصر وبضبط وخزن مياه النيل التي تضيع سدًى في البحر الابيض في زمن الفيضان وبعملية خزان اسوان وخزان اسيوط وبتعديل مجرى النيل في منطقة السدود وهو الموضوع الذى عالجها السير وليم ولكوكس والسير وليم جارستن وغيرها من رجال الري في مصر . اذ أن معدل ما يضيع منها فيه ٣٦ و ١٠٠٠٠٠٠ متر مكعب في الساعة الواحدة (والتفدان يحتاج الى ٦٥٠٠ متر مكعب في طول السنة)

— والايدي العاملة موفورة ايضاً . لان بعض المراكز اغنصت بالسكان لدرجة ضاقت عنهم الارض . فاذا رغبت الحكومة الطبقة الفقيرة منهم في الانتقال الى نواح قليلة السكان واسعة الاراضى أمكن تمييز الاطيان البور وسهل استغلالها والاستفادة منها . خذ مثلاً مركز منوف نجد كل فدانين منه يصيبهما سبعة انفس . وفي مركز زفتى كل فدانين يصيبهما ستة انفس . أما مراكز كفر الدوار وابي حمص فكل فدان فيهما يصيبه شخص واحد فقط

— يبقى المال . وهو اوفر الاركان الثلاثة وجوداً . خزانه وزارة المالية طامحة بالاموال وقد اودعت البنك الاهلى ما فاض منها . من ذلك ١٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠ جنيه لها خاصة و ٢٠٩ و ٦٠٠٠٠ جنيه من أصل ما لأرباب القضايا أمانات في خزائن المحاكم المختلطة وقد مضى على ايداع جزء عظيم منها عشرات السفين . زد على هذين القلين

الزيادة المتوالية في إيرادات الحكومة المصرية وهي لا تقل عن ١٠٠ و ٤٠٠٠ جنيه في كل سنة

فاذا انفقت الحكومة هذه الاموال كلها أو بعضها أو اقرضتها للاهالى بفائدة معتدلة استفادت أضعاف أضعاف الفوائد الضئيلة التى تتفادها من البنك الاهلى . لانه علاوة على الفائدة التى يدفعها لها الفلاح فانها تستفيد قيمة الضرائب التى تربطها على ما يستصلح من الاطيان وتستفيد سكينها الحديدية وجمار كها من نقل الحاصلات وتصديرها ومن حركة الاخذ والعطاء التى يستلزمها اصلاح ٤٣٢ و ٨٣٠ و ٣٠ فداناً . فالفائدة التى تجنيها الحكومة اذا عادت فى السنين الخمس الاولى ١٠ فى المائة فانها تكون فى الخمسة الثانية ٥٠ فى المائة وفى الخمسة الثالثة ١٠٠ فى المائة . هذا عدا ما تكسبه الامة من الرخاء . والرخاء احد أركان الأمن العام فى مصر

خذ مثلاً مديرية الشرقية فان مساحة اطيائها البور القابلة للزراعة ٩٠٠ و ٧٣٣ فدان (أى بنسبة ٥٨ ونصف فى المائة من مجموع زمامها) ومديرية البحيرة فيها ٧٠٠ و ٥١٦ فدان غير مزروعة (أى بنسبة ٤٧ فى المائة من مجموع الزمام) ومديرية الغربية فيها ٤٠٠ و ٦٥٦ فدان بور (أى بنسبة ٤١ ونصف فى المائة من مجموع مساحة المديرية) والدقهلية فيها ١٤٣ و ٠٠٠ فدان بور (أى بنسبة ٢٣ فى المائة) والفيوم فيها ١٠٠ و ١١٣ فدان بور (أى بنسبة ٢٧ ونصف فى المائة) والحيزة فيها ٤٠٠ و ٧٥ فدان بور (أى بنسبة ٣٠ فى المائة) واسيوط فيها ٤٠٠ و ٥٩ فدان بور (بنسبة ١٢ ونصف فى المائة) وهكذا . ومساحة الاطيان البور الموجودة فى القطر المصرى تزيد على ثلث مجموع اطيان القطر وهى نسبة فاحشة جداً بالنسبة الى بلاد زراعية بحثة مثل القطر المصرى وبالنسبة الى حكومة اشتهرت ماليتها بأنها من امن ومن ازهى المالىات فى العالم

قلنا أن الأهالى لا يستطيعون أنشاء المصانع ، وتأسيس الشركات ، لأن حشد الثروة وجمع الأموال ، لم تبلغاً عندنا مبلغاً عظيماً ، بدليل ما نراه من ترزعزاع الحالة الاقتصادية عن أساسها بين أغنيائنا ، كلما هبت ريح الأزمة

المالية من أوروبا وأميركا، نزعاً عن ينيء عن ضعف عام في جسم الثروة القومية . غير أنه لا يفوتنا أن نقول أن هناك قوة مالية لا يستهان بها في البلاد ، ومن المستطاع توجيهها إلى مشروعات وطنية كبيرة، صناعية وتجارية تشق للشبان المصريين المتعلمين طريقاً واسعاً

وقد وجد منذ عدة سنوات في أحد مصارف العاصمة مليون وربع مليون من الجنيهات مودعة بغير فوائد لأصحابها المصريين ، ووجد في مصرف آخر أمانات لمصريين أيضاً ، تبلغ ٦٥٠ ألف جنيه ، بغير فوائد . وفي خزائن مصارف أخرى وجد أيضاً نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات بغير فوائد . ووجد في خزائن مصر والاسكندرية مليونان ونصف مليون بفوائد ضئيلة تتراوح بين ٣ و ٤ في المائة هذه الأموال كلها لمصريين ، يجاهدون استغلالها ، ويودعونها خزائن تلك المصارف بغير فائدة تعود عليهم أو على بلادهم . فأن الاقتصاديون الذين يستطيعون تحويل هذه الأموال إلى مشاريع نافعة لذلك الجيش الجرار من الطلبة ؟ وهلا تستطيع الحكومة أن تسخر الودائع والأمانات والأموال المتجمدة في خزائن المجالس الحسبية والمحاكم المختلطة والشرعية والأهلية — وقد بلغت منذ بضع سنوات ثلاثة ملايين وربع مليون جنيه — في هذا السبيل ؟

لقد أفضنا البحث في هذا الفصل لأننا نعتقد أنه من الأهمية بمكان عظيم . أتيح لنا منذ عامين أو ثلاثة زيارة الشمسى باشا وزير المعارف السابق

وبينما كنا نتكلم عن المناهج قال الوزير بلهجة المستوثق « ليس المشكل هو المناهج ، فأمامنا الاخصائيون نستعين بهم لأصلاحها ، انما المسألة العويصة هي إيجاد العمل لجيوش المتعلمين » وقد جاء رده مفعماً وقد خطب أخيراً معالي وزير المواصلات توفيق باشا دوس خطبة ضافية في الجامعة الأميركية بالقاهرة تدلُّ على قلق كبار المصريين على المتعلمين من شباننا ، نقبس منها الفقرات التالية تصويراً للحالة :—

« كلنا نحس وبشعر تماماً بوجود أزمة كبرى في مصر اكبر تأثيراً من الازمة الاقتصادية وضائفة عظمى أبعد مدى من الضائفة المالية تلك هي أزمة حملة الشهادات العالية من جميع أنواعها . تخلو في مصالح الحكومة وظيفة أو وظيفتان بمرتب ضئيل جداً لا يتجاوز المئة جنيه سنوياً ومصرعان ما يعلن عنها حتى يقدم لها من الطلبات العشرات والمئات من حملة الشهادة الثانوية وعدد ليس بالقليل من حملة بعض الشهادات العالية . اذا سألت هؤلاء المتقدمين جميعاً وجدتهم بلا عمل يتسكعون على أبواب المصالح ودور الوزارات يبيعون ماء وجوهم رخيصاً في سبيل الحصول على مركز من تلك المراكز الخالية فاذا لم يوفقوا هذه الدفعة نكسوا على أعقابهم وقد كسرت خيبة الامل في قلوبهم وعادوا الى دورهم ينتظرون إعلاناً آخر عن وظيفة جديدة

« لما كنت قائماً بأعباء وزارة الزراعة أنشئت وظائف صغيرة هي وظائف أمناء لخازن السماد الكيماوى فى أنحاء القطر لا يزيد مرتبها على ستة جنيهات فى الشهر . فلما أعلنت الوزارة عنها وعددها يبلغ ثلاث مئة أو نحو ذلك تقدم لها أربعة آلاف طلب بينها كثير من حملة الشهادة الثانوية وعدد — وأن قل — من حملة شهادة عالية « بل وأنا الآن فى مكتبي بنذر أن يمر أسبوع ألا ويقصدنى أكثر من واحد من هؤلاء يطلب منى وساطة لان ابحث له عن وظيفة « ايا كانت » « وبأى مرتب كان » لانه ذو عائلة كبيرة ولا عمل له

فى بلاد الانكليز نسمع عن مشكلة كبرى حلها الآن هو ميدان التنافس بين

الأحزاب وعليها تقوم بينهم الحرب السياسية وهي مشكلة العمال العاطلين، أما في مصر فلا وجود بحمد الله لمثل هذه الضائقة بين العمال ولدعنا مصابون بما هو شر منها — لدينا مشكلة « المتعلمين العاطلين » أو « الأتفدية العاطلين » والفرق بين الأتفديز وبيننا هو أن أولئك حكومة وشعباً مهمتون جد الاهتمام بحل مشكلتهم بينما نحن نأركون الحبل على الغارب . بل بالعكس نحن نضيف الى عدد هؤلاء العاطلين بما نخرجه المدارس كل يوم بل نحن نضيف الى عددهم بزيادة عدد المدارس كل يوم

« أفهم جلياً سبب زيادة العمال العاطلين في العالم بنوع عام وفي أنكلترا بنوع خاص . فأن مقطوعية العالم تنقص كل يوم وبنقصها تنقص كمية العمل فينقص عدد العاملين وتزيد العطلة . ولكن لا أفهم مطلقاً أن يكون للعطلة بين المتعلمين حملة الشهادات العالية وجود

« العلم الصحيح هو أحد الأسلحة القوية في الحياة هو أحد الوسائط الفعالة للكفاح في سبيلها . فلماذا إذن نرى العمال في مصر — وما لديهم من العلم إلا القليل — ولا أثر للضائقة بين صفوفهم . حتى اذا ما تعلم بعضهم شيئاً كان يجب أن يسهل عليه العيش قام ذلك العلم حجاباً بينه وبين سبل الحياة — ذلك غير منطقي اللهم ألا اذا كان هناك عيب جوهرى في أحد الأجزاء التى تتركب منها الآلة التى تدبر هذه الحركة ويكون عندئذ واجب المصلح الاجتماعى إصلاح ذلك العيب

أضرب لكم مثليين صادفاني في حياتي . لما كنت محامياً في أسبوط كان أحد حضرات القضاة هناك يتناول مرتباً لم يبلغ بعد الثلاثين جنيهاً . وكنت في حاجة الى مساعد لي في عملي وآلمت منه الرغبة في الالتحاق بالمحاماة فعرضت عليه أن يستقيل من وظيفته في القضاء ويشغل معي وأنا أضمن له ضعف مرتبه لمدة أربع سنوات على الأقل . فكان يتردد المرة بعد المرة . لم يكن يثق في نفسه أنه اذا ترك وظيفته ومضت السنوات الأربع يجد ما يكفيه لمعاشه وفضل البقاء بذلك الراتب المحدود عن أن يكافح الحياة مستقلاً مضى على تلك الواقعة سنوات ثلاث ولسبب ما يتعلق بعمله ولا بأمانته أحالته وزارة الحقانية الى المعاش فخرج الى المحاماة مكرهاً . أرسلت له في ذلك التاريخ أهنته بتلك الحالة لما كنت أتوقعه له من مستقبل باهر في هذه الصناعة الشريفة فاستقبل

تهنئتي بما أعتقده من أنها مجرد مجاملة وبمجرد تشجيع . وهو الآن من كبار المحامين يكسب من عمله الشريف ما لا يقل عن عشرة أضعاف مرتب زملائه فوق ما يجده من اللذة في عمله الحر

« لقد كان استعداداه كبيراً جداً كما توقعته عندئذ وكما تحقق ظني فيما بعد ولكن كان في طريقة تعليمه نقص هو عدم ثقته بنفسه مع تقديره لسكفاءتها وقد بدا ذلك النقص جلياً عند ما عرضت له فرصة دخوله معترك الحياة فلم يجد نفسه متسلحاً لذلك حتى اذا ما اضطرته الظروف ووجد نفسه مكرهاً وسط المعركة حارب وانتصر

« والمثل الثاني خاص بطلابين تخرجاً من مدرسة الزراعة العليا منذ بضع سنوات وطرقاً معاً باب الوظائف زراعية بوزارة الزراعة ولما لم يكن لدى الوزارة في ذلك التاريخ وظائف خالية اخبرتهما بتأجيل تعيينهما الى وقت آخر . وكان احدهما من عائلة متوسطة الحال فظل بطرق ابواب المصالح الاخرى حتى عين ضابطاً باحدى المدارس الاميرية عبرت قدره تسعة جنبيهات في الشهر . لا تسلم عن يوم العيد حينما جاءه امر التعيين والتهاني تتساقط عليه كالصيب الهطل . اما الثاني فكان من عائلة فقيرة ولم يكن في وسعه الانتظار طويلاً حتى يجد له محلاً حكومياً فعمد الى التطواف في المزارع الواقعة حول العاصمة حتى قبض الله له من أجر له أربعة أفدنة زرعها اصناف خضراوات بالاشتراك مع مالكها اذ لم يكن لدى ذلك الطالب ما يقوم بمصاريف الزراعة وفي آخر العام كانت نتيجة الأربعة أفدنة أربع مئة جنيه ميسرى قبض الطالب نصفها فرحاً مسروراً

« الطالب الأول نالته رقية وهو يقبض الآن راتباً قدره احدى عشر جنهماً في الشهر . أما الطالب الثاني فانه يسهل عليكم ان تستنجبوا ما وصل اليه واذا زرم داره وجدتموه وقد علق على جدران قاعة استقباله اطاراً يحوى تلك الكلمة البالغة « كل من سار على الدرب وصل »

وقد وصفت الصحف أخيراً الصعوبة التي يلاقها حملة الشهادات في إيجاد وظائف في مصالح الحكومة ، وقد أصبح توظيف أصحاب الشهادة

الثانوية بقسميها مستجيلاً، وأكرهت الحاجة عدداً كبيراً منهم على الالتحاق بوظائف صغيرة جداً، وفوق ذلك أن حملة « اليسانس »، الذين كانوا يأبون العمل في الإدارة، ويرفضون الالتحاق بغير مناصب النيابة والقضاء، يراهم هؤلاء على هذه الوظائف الصغيرة. وقد سدت أسباب التوظيف في وجوه حملة « اليسانس » حتى في الأعمال الكتابية، رغم استعدادهم للخدمة حتى في اقصى الصعيد

ومن الغريب أننا نشاهد هذه الظاهرة في غير مصر من البلدان الأخرى. فأن المتعلمين يشكون من كساد الأعمال أكثر من العمال والصناع. وقد اتصل بي عند زيارتي لأثينا منذ بضعة شهور أنه يوجد في تلك المدينة نحو ثلاثين ألف شاب من حملة الشهادات بغير عمل. في حين أن الصناع والعمال يجدون باب العمل مفتوحاً. وتدل الأخبار الواردة من روسيا أن تلك البلاد في حاجة شديدة إلى الصناع والعمال والمهندسين، وأقل حاجة إلى حملة الشهادات « والأدباء » وغيرهم.

ولا يشك أحد أن مصر تشكو من العلة نفسها، وهذا دليل على أننا في حاجة إلى عمال في ميادين الزراعة والتجارة والأعمال الحرة. وسندرك أهمية هذه المدارس، العملية التي نجد وصفها في فصول تالية

ليس مصير الشاب المصري في يدي الحكومة ولا في يدي وزارة المعارف وحسب، ولا في يدي واضعي المناهج والنظم المدرسية وحسب. أن مصير الشاب المصري في يدي كل فرد من افراد الشعب المصري.

أنا لقي حاجة ألى ذمم مرعية ، وضماثر حية ، وقوات عاملة ، وجهود
واسعة . أنا لقي حاجة ألى توضيحات ذاتية ، ألى مصالح عامة ، ألى مثل أعلى :
التاجر فى متجره ، الصانع فى مصنعه ، الموظف فى مكتبه ، الوالد فى منزله
الوزير فى وظيفته السامية ، ناظر المدرسة والمعلم كل فى مدرسته ، والطالب
فى حجرة الدراسة

الفصل الثاني عشر

التربية والبيئة

يقول الأستاذ هرت ، أستاذ التربية في جامعة وسكونسن ، في مؤلف في التربية ظهر حديثاً ما يأتي : —

« ليست الأنسانية خيالا ، بل حقيقة وليس المرء حادثاً جاء عن طريق الصدفة أو رمت به الأقدار ، وليس هو أجنبياً عن الكون . والحياة البشرية مستأصلة جذورها في عالم الحقيقة . وشخصيات البشر منسوج بردها من المواد والعناصر التي تتركب منها اختياراتنا

« فإذا كان لا بد لنا أن نكون بشراً ونسلك مسلك البشر ، وجب أن تنمو في عالم بشري ، كامل البشرية . أي أن الشخصية القادرة على النمو ، لا بد لها من بيئة تزودها بعناصر النمو اللازمة للحياة . وكل بيئة تنقصها بعض هذه العناصر ، تلد أنسانية ناقصة

« نعلم أن البيئة في أزمان الفطرة في العصور الخالية ، زوّدت الأنسانية بأهم حاجياتها ، من أوضاع الأطفال ، إلى حماية الجماعات ، إلى إيجاد العمل اللازم للأفراد ، إلى نشر القدر الميسور من المعارف في ذلك الحين »

ومغزى هذه الفلسفة ما سبقت الإشارة إليه من أقوال الغازي مصطفى

كمال الذى يعلم الجمهورية التركية أنه « طامنا كئنا فى الدنيا يجب أن نعيش فى الدنيا وأن آسنا نعيش فى الآخرة فى حين أن أوروبا نعيش فى الدنيا . »

يقول بعض العلماء أن التربية تجعل صاحبها لائقاً للبيئة التى فيها يعيش ، قادراً على تكيف ذاته ، تكيفاً يلائم هذه البيئة . غير أن آخرين من جهابذة المدارس الحديثة لا يقبلون هذا القول ، لأن فى اعتقادهم أن الحيوانات العليا تستطيع أن تكيف أنفسها تبعاً للأوساط التى فيها توجد . فالتربية فى نظرهم مقدرة المرء على تعديل الوسط تعديلًا يعود عليه بالنفع والراحة والسعادة فالحيوان قليل الحيلة ، عاجز عن تعديل مظاهر الحياة الخارجية ، وتغيير أحوالها ووجوهها . أما الإنسان فواسع الكفاية بفضل التربية ، كبير المقدرة على تعديل هذه المظاهر ، وتغيير هذه الأحوال ، إلى جانب تكيف ذاته . بفضل التربية يستطيع المرء أن يطرد الحاكم الظالم من منصة الحكم ، ويولى من يأخذ على عاتقه النزول على رغبة الأمة والعمل على أسعادها . بفضل التربية يستطيع المرء أن يقضى على الأمراض والأوبئة ، ويقطع دابر المجاعات ، ويقتحم البحار ، ويقطع الصحارى والقفار ، ويسخر الأنهار ومساقط المياه ، والرياح والأمواج والتيارات ، وينقل الأخشاب من قم الجبال الشاخنة إلى بطون الوديان . بفضل التربية يستطيع المرء أن يذل مصاعب الطبيعة ، ويخضع قواها من وحوش ضارية ، وطيور كاسرة ، ودبابات مفترسة ، وطرق وعرة متشعبة ،

وأدغال كثيفة ، وأوتاد تناطح السحاب ، وثلوج تغطي الجبال ، وأنهار تشق الصخور ، وأنهار تخترق الأودية

وبقوة التربية يهجم المرء على أعداء وجوده ، وهادى كيانه ولذته ، وينكب على شاق المسائل ، وصعب المشاكل ، فيجد لها حلاً . وهذا معنى قولنا أن التربية تشمل أمرين جوهريين ، أولها تغيير في ذات صاحبها ، تغييراً يستطيع به مواجهة البيئة ، وثانيها تعديل الوسط أو تغييره تغييراً يمهده سبل الحياة ورغد العيش

ولا بد للمرء أن يبدأ مبكراً بهذه التربية ، إذا أراد أن يتخذ العدة للتعديل والتكييف المشار اليهما . وقد صدق من قال أنك إذا أردت تربية امرئ تربية صحيحة فابدأ بتربية جدته . وفي هذا القول إشارة إلى الوراثة ، وليس هنا مجال البحث في فلسفتها . غير أن ما يعيننا هنا الاهتمام بالطفولة ومطالبها . ومن المعلوم أن الطفولة في الحيوانات العليا أطول منها في السفلى وفي الانسان أطول منها في الحيوان . وكلما تقدم الانسان في معارج الحضارة والتمدن طالت فترة الطفولة ، والتكوين ، والاستعداد للرجولة ، واقتحام قوى الطبيعة ، أو تعديل البيئة

فمن الطفولة عند أفراس الطير لا تتجاوز ساعة من الزمن ، وفي بعض الأحياء لا تزيد عن بضع دقائق . ولا تتعدى ثوان عند الحشرات الصغيرة . وهكذا تتدرج من الحيوانات السفلى حتى تصبح عدة شهور أو سنوات في الحيوانات العليا

وقرة الطفولة عند المهمجين الذين يعيشون عيشة الفطرة قصيرة جداً لا تتجاوز سبع سنوات أو ثمانى سنوات . فالغلام فى مجاهل افريقيا ، الذى تبلغ سنه ثمانى سنوات ، رجل بكل معنى الكلمة من الوجهة العملية الاقتصادية فى الحياة . ألا يستطيع القنص ، والقتال ، واستعمال الرمح وجنى المواد الغذائية البسيطة التى يحتاج إليها ، وجمع الوقود اللازمة لشى الحيوانات التى يصطادها ؟ وماذا يحتاج فوق ذلك من تلك البيئة الفطرية التى يعيش فيها ؟

أما فترة الطفولة عند المتمدنين فطويلة شاقة . فالولد فى سن العشرين طفل ، يطلب العلم ويستزيد من المعرفة ، ويستعد لأن يكسب رزقه ، ويعيش . ويقول بعض العلماء أن الطفولة عند هؤلاء لا تنتهى الا بالموت ، إشارة الى أن المرء فى هذا القرن على الأخص يتعلم من المهد الى اللحد ، ولا يقف نموه ، كماهى الحال عند المهمجين .

غير أن ما يعنيننا من الفكرة ، أن فترة الطفولة هذه ، وهى طويلة بهذا المقدار ، ينبغى أن تشغلها المواد الدراسية التى تتعلم منها كيف نعيش . وعبارة « كيف نعيش » هذه ، دائرة مرنة تنطوى تحتها اشياء كثيرة . فالصحة ، وكسب الرزق ، ومعاملة الغير ، وحسن الخلق ، والاندماج فى البيئة ، وتغيير البيئة حتى تصبح ملائمة للعيش فيها — كل هذه تدخل فى حدود هذه الدائرة . فإذا قضينا الطفولة فى درس مواد ، لا تنفى بهذه الاغرض كلها ، فأنا نقتل زهرة العمر عبثاً

يتضح مما سلف أن المدرسة التى تنشأ على غير أساس البيئة ، تستهدف

للتأثير السيئ ، ولا تقوم بالفرض المطلوب . ونظام التعليم العام ، الذي لا يراعى فيه مطالب البيئة وحاجاتها ، يقوض من أساسه ، ويدفع البلاد إلى المخاطر الاجتماعية والاقتصادية ، ولئن نجح ، يكون نجاحه رمية من غير رام ، وأذا فشل ، فذلك لأنه استحق نتيجة الاستسلام للصدفة والحظ

حدث منذ سنوات قليلة ، أن بعثة أميركية رحلت إلى بلاد الهند ، حتى تنشئ مدارس عملية في إقليم زراعي ، على نمط مدارس همبتون^(١) في ولاية فرجينيا في ولايات أميركا المتحدة . غير أن مجلس أمناء هذه البعثة في أميركا رفض الموافقة على هذا الرأي ، قبل الحصول على تقرير واف عن حالة ذلك الإقليم الهندي ، الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية وغير ذلك .

ولا نكون مسرفين في صفحات كتابنا هذا ، إذا ذكرنا موجز هذا التقرير ، بعد أن درسه مندوبو تلك البعثة ، حتى يفهم القارئ جيداً معنى البيئة ، ومعنى إنشاء المعاهد العلمية الملائمة لها : —

اليكم موجز تقرير عن حالة قرية من ألوف القرى التي يتكون منها هذا الإقليم ، وهذه القرية تدل دلالة واضحة على ما عليه القرى الأخرى

الحالة الاقتصادية

(١) أجرة العامل المعتاد ١٤ ملياً يومياً

(١) اقرأ وصف هذه المدارس في كتابنا « الدنيا في أميركا » . وقد أشرنا إليها في غير هذا المكان من هذا الكتاب

- (٢) يباع سعر الأرز ، وهو طعام السكان الرئيسى (كالخبز عندنا)
سبعة غروش لكل أحد عشر رطلا
- (٣) يبلغ متوسط سعر الفائدة التى يتقاضاها المقرض من المقرض ، عن
النقود أو الغلال ، ٢٧ فى المائة
- (٤) تقبض معظم الديون بالاستيلاء على الأمتعة المرهونة
- (٥) معظم أسباب الدين عائدة إلى طرق الزراعة العقيمة ، وفداحة
القوائد التى يتقاضاها المرابون وتجزئة الأرض الزراعية بسبب الأثر ،
وتفقات الزواج والأفراح وضعف الحيلة
- (٦) توجد جمعية لتسليف الخنطة للسكان ، وقد أنشئت حديثاً ، وسكرتيرها
ناظر مدرسة القرية
- (٧) يوجد بنك تعاونى فى القرية ، وهو ملك لأحد سكانها
- (٨) يقضى الزراع فى القرية نحو ٨٥ ٪ من أوقاتهم فى الزراعة ، وبقيه
الزمن فى أعمال أخرى
- (٩) الماء وطبيعة الأرض وتربها تسهل الأكل كثير من الحداثق ويبيع
محصولها فى الأسواق القريبة من القرية بأثمان حسنة ، غير أن غراسه
الحداثق معدومة بالرة
- (١٠) صناعة الألبان لا وجود لها ، مع توافر الأبقار والأغنام ، ومع
شدة الحاجة إلى الزبدة والجبن واللبن وجميع مستخرجات الألبان
- (١١) يخص كل فرد من سكان القرية فدان وثلاثة أعشار الفدان

(١٢) الحدادة والنسيج على الطريقة العتيقة هما الصناعتان الوحيدتان التي يشتغل بهما الأهالي ، فوق الزراعة

الحالة الاجتماعية

- (١) عدد سكان القرية ٧١٤ ، وهم موزعون على ٢٩٤ أسرة
- (٢) يموت الأطفال بمعدل $\frac{2}{3}$ من كل أسرة قبل بلوغ الخامسة من أعمارهم ، ومعظم أسباب الوفاة قلة الغذاء
- (٣) يتزوج الأطفال وهم ناعموا الأظفار ولكنهم يعيشون معاً (زوجاً وزوجة) ابتداء من سن الرابعة عشرة ، أو أقل قليلاً أو أكثر قليلاً
- (٤) الطبقات الدنيا (Castes) ، معظمها من باعة الزيوت والخبز الخ
- (٥) يخص الفرد الواحد من هذه الطبقات ٣٥ قدماً مربعاً من الأرض المخصصة للسكن والأقامة . ولا توجد لمنزلهم نوافذ على الإطلاق ، وقلماء يزيد عدد أبواب المنزل عن واحد
- (٦) لا يوجد بين أسر القرية وعددها ٢٩٤ كما قلنا ، سوى ٦٣ أسرة من التي تتعدد فيها الزوجات

الحالة الدينية

- (١) فيما خلا أسرتين ، فإن سائر أسر القرية تتدين بدين هندستان

(Hindu)

- (٢) توجد عدة تماثيل للعبادة في القرية

- (٣) هناك كاهن في القرية ولكن لا يوجد هيكل للعبادة
(٤) الدين هناك غرضه اجتماعي، وبه يضمن الفرد تمتعه بالزوايا الاجتماعية،
كطقوس الزواج مثلاً .

الحالة التعليمية

- (١) يبلغ متوسط ما يقضيه الصبي في مدرسة القرية سنتين ونصف سنة،
وما يقضيه الصبية، سنة ونصف سنة
(٢) وبين سكان القرية وعددهم ٧١٤ يبلغ عدد من يلمون بالقراءة
والكتابة من الكبار ٤٦ فقط
(٣) وقد امتحن من خريجي مدرسة القرية ٩٢ صديقاً وبناتاً، ممن قضوا
أربع سنوات في تلك المدرسة ونالوا الشهادة الابتدائية، فلم « يفك الخط »
الهندي منهم سوى ثمانين
(٤) وقد امتحن عدد ممن قضوا ثلاث سنوات في مدرسة القرية، بعد
مغادرتهم المدرسة بثلاث سنوات، فوجد أن ٨٧٪ منهم أميون
(٥) توزع جريدة دورية من مدرسة القرية على كل من قضى سنتين
أو أكثر في المدرسة. حتى لا ينسى خريجو المدرسة القراءة والكتابة .
ولكن من النادر قراءتها نظراً لعدم اهتمام السكان بالقراءة، وخور غرائهم
بعد عمل اليوم الشاق، وميلهم إلى الجلوس جماعات والتحدث في مسائل
لا تجديهم نفعاً .
(٦) من الأسر التي تعلم أفرادها في مدرسة القرية، خمس منها

لا يبعثون بأولادهم إلى المدرسة بحجة أن التعليم لا يزيد من أرباحهم
وكسب أقواتهم

(٧) من مجموع تلاميذ مدرسة القرية ٤٣٪ منهم يغادرون المدرسة في
أثناء السنة الأولى الدراسية أو في نهايتها . و ١٨٪ في السنة الثانية . و ٢٨٪
في السنة الثالثة . و ١٤٪ في السنة الرابعة . أي أن ٧٪ من مجموع الطلبة
يمكنون لآخر السنة الرابعة وينالون شهادة الحكومة الابتدائية . ومن جملة
هذه الشهادة ٦١٪ . أظهروا نجاحاً تاماً في أعمالهم خلال ثمانى السنوات الماضية
(٨) ولم يواصل دروسهم في المدارس المتوسطة من حاملي الشهادة
الابتدائية في القرية ، سوى ستة أطفال ، ومن هؤلاء الستة لم يتم أحد دروسه
في المدارس التي فوق المتوسطة سوى تلميذ واحد

(٩) وبين تلاميذ مدرسة القرية وعددهم ٧٨ ، وجد أن ٩ منهم فقط
يتناولون طعام الإفطار في منازلهم ، وأن ٩٢٪ من سكان منازل القرية
لا يتناول سوى أكلة واحدة ساخنة يومياً

(١٠) توجد لغتان في القرية ، أحدها لا تستعمل إلا في المدرسة
(١١) يوجد في منهج الدراسة التي وضعتها الحكومة طرق الاختيار ،
التي بواسطتها يستطيع التلميذ أن يتعلم مادة دون الأخرى ، طبقاً لحاجته ،
ورغبة أهله ، وميله الخاص

وبعد الاطلاع على هذا التقرير الذي يرسم صورة واضحة للبيئة في ذلك

الأقليم ، أذ أن هذه القرية شبيهة بقرى كثيرة غيرها ، وضع أعضاء البعثة الأغراض التالية التي تقرر توجيه خطتهم التعليمية إليها ، وهى : —

(١) أن تنشأ مدارس هذا الأقليم بكيفية تصبح بواسطتها مركزاً لترقية الأقليم ورفع مستواه من جميع الوجوه

(٢) أن تكون مواد الدراسة وثيقة الاتصال بحياة التلاميذ ، وما يجرى خارج المدرسة

(٣) أن تنشأ مدارس للمعلمين حتى يكون معلمو مدارس القرى مامين بهذه الأغراض وبالأاليب التي تؤدي إلى تحقيقها .

وقد أدخل ضمن المنهاج الدروس الأساسية المعتادة ، كالقراءة والكتابة والحساب والجغرافيا ، الأعمال اليدوية ، والصناعات البسيطة ، وعلم الصحة ، وتدير المنزل وفلاحة البساتين ، ومبادئ التربية الوطنية ، بشرط أن يختار التلميذ من كل هذه عدداً معلوماً . وقد تقرر أن يكون التعليم على طريقة المشروع^(١) ، وأن يكون المشروع الأول بناء منازل هندية صحية

وكنا نود لو اتسع مجال هذا الكتاب إلى وصف مشروع من هذا القبيل ، قامت به بعثة أخرى أجنبية فى الهند ، فى إقليم آخر ، بعد درس البيئة فى ذلك الإقليم . ولكن لا يفوتنا أن نقول أن هذا المشروع الآخر قامت

(١) أنظر بحث هذه الطريقة فى مجلتنا التربية الحديثة

به تلك البعثة بين طلبة عدة كليات أنشئت هناك لهذا الغرض . وقد لاقى أصحاب تلك المدارس مقاومة شديدة من الطلبة وأهلهم، وقد كان الطلبة أكثر ثروة، وأكبر سناً ونالوا قسطاً وافراً من التعليم

وكانت أسباب المقاومة أن أولئك الشبان لا يريدون أن يتلقوا العلوم العالية ويكلفون بزرع مئات الأفدنة، والأعمال اليدوية والصناعات المختلفة، ظناً منهم أن التعليم لا يقوم إلا بالدرس وترقية العقل وأن التربية لا علاقة لها بالزراعة والصناعة، وأنهم لو علموا أن المدارس تعنى بمثل هذه الأشياء لبقوا في منازلهم

غير أن هذه البعثة التي أنشأت مدارسها في إقليم انكلسوار (Ankleswar) حولت تلك الناحية إلى جنة تجري من تحتها الأنهار، إذا قيسَت بما يجاورها من الأقاليم

ويا حبذا لو قامت بعثة أجنبية بمثل هذه التجارب في بلادنا المصرية، إذا كنا لا نستطيع القيام بها من تلقاء ذاتنا.

وكنتم أود أيضاً لو أتيحت لي الفرصة لكتابة وصف مسهب لمدارس من هذا القبيل، أنشئت لسد حاجة محلية في ولايات مراتها الجنوبية في الهند. ففي تلك المدارس أيضاً يرتبط العلم بالعمل ويتعلم الطالب ليعيش . هناك يبدأ العمل في الساعة السابعة صباحاً باجتماع عام، تعقبه ألعاب رياضية وتمارين بدنية . وفي الساعة الثامنة يشتغل نصف الطلبة بالدروس

النظرية المعروفة ، ويشغل النصف الآخر بالزراعة وفلاحة البساتين ومعامل الصناعة على اختلاف أنواعها . ثم تعقب هذه الدروس ظهراً فترة الغداء والراحة ، وبعدها ينعكس الترتيب فيشتغل النصف الأول بالدروس العملية والنصف الآخر بالدروس النظرية . وبعد الساعة السادسة تكون فترة العشاء والراحة وبعدها ساعة ونصف ساعة للمذاكرة

ويرى القارىء أن اليوم المدرسى طويل شاق للطالب والمعلم على السواء ، ولكنه غير ممل ، نظراً لتنوع العمل فيه بين درس ولعب وعمل منتج ، لا سيما إذا علمنا أن الطلبة يتقاضون أجوراً على الأعمال التي يأتونها، ويفترض على كل منهم أن يربح مبلغاً يعادل أجره السكن والأكل والكساء على الأقل

وتوجد في باكوار (Pakaur) في الهند مدارس من هذا القبيل للبنات فقط ، تختلف عن مدارس البنين بمقدار ما تحتاج إليه البنات في حياتهن من تدبير منزلى وتمريض وغيرهما . ويوجد مدارس أخرى للبنين والبنات معاً

في كلية انتيوك في أوهايو نظام غريب بواسطته يتلقى الطالب دروسه خمسة أسابيع ، كالمعتاد ، وخمسة أسابيع أخرى في العالم الخارجى . أى أنه يلتحق بعمل من الأعمال في خلال هذه المدة ، بشرط أن يكون هذا العمل متناسباً والمهنة التي يعد نفسه لأجلها في الحياة ، زراعية كانت أو صناعية أو تجارية أو فنية

THE UNIVERSITY OF CHICAGO
LIBRARY



ومتى كانت المدرسة خادمة الامة تستطيع أن تعين الفلاح
على تحسين النسل بين ماشيته

وفي إحدى كليات جامعة وسكونسن تعطى الفرصة لفئة من الطلبة أن يدرسوا مدنية كاملة ، لأمة ما بدلاً من تفهيم تاريخية هنا وهناك ، كمدنية الأغريق أو العرب أو المصريين

ويجب أصحاب هذه الكلية عن اعتراضات النقاد أنه من الغريب أن يخشى بعض المعلمين أن يقضى الطلبة السنين الطوال في تربية أنفسهم بهذه الكيفية ، ولا يخشون أن يضيع الطلبة كل أوقاتهم سدى إذا تعلموا بالطريقة المعروفة في المدارس المعتادة

في دانيمركه يزرع المعلمون والمعلمات حقائق للخضروات والزهور حتى تكون نموذجاً للأطفال . وفي جزائر القليلين سنة ١٩١٩ زرع طلبة المدارس الابتدائية والمتوسطة ١٠٤٠٠٠ حديقة منزلية بأنفسهم عدا ٤٠٢٣ حديقة مدرسية . ويوجد بين الطلبة ١٨ ألف عضو في أندية وجمعيات زراعية وفي قرية هندية يسجل تلاميذ المدارس عدد البيض الذي تبيضه فراخ الناحية ومعامل الفراخ ويعتنون بتربية العجول والميز والغنم ودود الحرير وفي ولاية وسكونسن في أميركا ٢١ ألف طفل يهتمون بمثل هذه الأشياء

ولا بد للقائمين بشئون التعليم أن يقفوا على حالة البيئة التي تنشأ فيها المدرسة قبل وضع مناهجها ورسم خططها ونظمها . وليس ثمة دليل أصح من الأرقام الإحصائية ، وأكفل لأرشاد أولى الأمر إلى الطريق القويم الذي يجدر بهم أتباعه ، في إنشاء المعاهد العلمية ، كما يتضح لنا من الصفحات السالفة

وقد اطلعت أخيراً على كتاب باللغة الإنجليزية عنوانه المدارس القروية في الهند، وكان أول ما وضعه المؤلف أمام القراء شيئاً عن الهند وسكانها وحالاتها الاقتصادية والاجتماعية . ولا بأس من اقتباس بعض ما جاء فيه من الأرقام، حتى تكون نموذجاً لنا في مصر متى أردنا القيام بعمل يتطلب الألمان بالبيئة التي ستكون لهذا العمل ميداناً : —

يعيش في القرى الهندية ١/٤ الجنس البشري ويوجد بين كل عشرة هنود تسعة قرويين، أكثر من ٩٢ في المائة منهم أميون، وفي حالة من البؤس الذي تزيده الأمية اشتداداً

ويوجد في الهند ٢٢ لغة رئيسية، تبلغ لهجاتها نحو ثلاثمائة لهجة . إلى هذا يعزى تدهور الهند وتأخرها، لأن التفاهم بين جماعات الأمة وعناصرها يكاد يكون معدوماً بسبب تعدد اللغات، وما تؤدي إليه من هدم كيان الوحدة، يوجد في تلك البلاد ١٣٠ مليون من الماشية و ٢٩ مليون من الماعز، ولا يوجد في أميركا (الولايات المتحدة) سوى ٦٦ مليون رأس، غير أن الهنود لا ينتفعون بها عشر ما ينتفع الأميركيون، لأن ماشية الهند هزيلة ناحلة ولا يلم أصحابها بقوانين الانتخاب (Selection) وتحسين النسل، كما لا يلمون بتحسين السلالة في القراخ وسائر الحيوانات والحجوب (١)

أما توزيع الثروة هناك فكالآتي : —

يبلغ متوسط دخل الفرد في العام ما يأتي : —

(١) وهذا عين ما نشكو منه في مصر

جنيناً مصرياً

في الهند	١٦
في اليابان	٦٠
في بريطانيا العظمى	٣٧٠
في ولايات اميركا المتحدة	٤٥٠

وقد أحصيت المواليد في عشر سنوات وأخذ المتوسط ، فكان عدد المواليد في الألف كالآتي : —

٣٥ في الألف في الهند	
» » » ٣٤ اليابان	
» » » ٢٣ ولايات امريكا المتحدة	
» » » ٢١ بريطانيا العظمى	
وبلغ متوسط الوفيات في المدة عينها ما يأتي : —	
٣٣ في الألف في الهند (الحميات والثعابين)	
» » » ٢١ اليابان (الطاعون والكوليرا والجذري)	
» » » ١٤ بريطانيا العظمى	
» » » ١٤ ولايات أمريكا المتحدة	

أما الأطفال الذين تبلغ أعمارهم أقل من سنة فتوسط الوفيات بينهم ٣٦٥ في الألف مقابل ٩٧ في إنجلترا — وذلك لجهل المولدات . أما الجنون

فيلغ ٣٣ مما هو في إنجلترا (١)

والهندي مقيد بسلاسل اجتماعية وقيود تقليدية وعادات تناقض مبادئ المدنية . وقد قال مرة برنارد شو الكاتب الانجليزى أن الهنود يستحمون في ماء نهر الكنج نهاراً وليلاً رغم أن كل « ميكروب » عنده ذرة من عزة النفس يأبى العيش فيه

No decent microb likes to live in it.

ويبلغ عدد المتزوجين في الهند من الذكور تحت سن العشرين ٩ في المائة مع أن هذه النسبة واحد في الألف في إيطاليا . وتبلغ هذه النسبة ٢٥ ٪ بين النساء في الهند و ١ ٪ في إيطاليا .

هناك يختار المنجم وعراف البخت الزوجة أو الزوج . ولا غرابة إذا كان هناك ٢٧ مليون أرملة ثلثهن أقل سناً من ١٥ سنة

ومن هذا نعلم أن معرفة البيئة ودرسها أشد لزوماً من أى شىء آخر لمن يريد وضع نظم التعليم على أسس متينة . وهناك نذكر بتفصيل معنى البيئة جواباً عن هذا السؤال وهو : —

أين تتعلم ؟

(١) من الأسرة بين أبائنا وأجدادنا وأمهاتنا وأخواتنا وعماتنا وخالاتنا

(١) من الغريب أن البلاد المتعدنة يكثر فيها الجنون والأمراض العصبية نظراً لموم الحياة وكثرة مشاغلها وسرعة الحركة فيها

(٢) من جيراننا — عوائدهم أفراحهم وأحزانهم ميولهم واجتماعاتهم وصناعاتهم وأعمالهم

(٣) من الملاعب والمسارح والملاهي

(٤) من الطبيعة — النبات والحيوان — الفصول الأربعة — الطيور والخاصات والأشجار والتربة والليل والنهار . السماء والقمر والنجوم . يتعلم الطفل أن النار تحرق والطيور تغرد والنحل يلدغ والأفعى تسمم

(٥) من الدين والعبادة في المساجد والكنائس والسجود للتمثيل والأحجار وعبادة الحيوانات وتقديس الأنهار والأحجار

(٦) النحل بكل أنواعه ودرجاته

(٧) الحياة الوطنية من سياسة وأحزاب وأعياد وطنية وحفلات ومية

ووقائع سياسية

(٨) في الشوارع والطرق

(٩) في الأسفار والسيارات وما رسمه في أذهاننا من الصور العملية الواضحة المنسقة ، والألوان الطبيعية الجميلة ، وما تضعه أمامنا من جبال ووهاد وسهول ووديان وأنهار وثلوج وبحيرات ، وقصور وأكواخ ، وسفن وطائرات ، وقطارات وعربات ، ومتاحف ومسارح وملاهي ، وأخلاق وعوائد وآداب ، وبؤس ونعيم ، وقبح وجمال ، وسياسة ، وكل ما يخرج المرء به من دائرة بلاده الضيقة المحصورة إلى فضاء العالم واسع الأطراف ممتد الحدود (١٠) من الأندية والجمعيات والتي تنتمي إليها والقهوات التي نفشاها

وكل ما يلزم شمل الأفراد ليكون منهم جماعات
(١١) من المعاملات والاختبارات التي نضيفها إلى معلوماتنا من اجتماعية
وتجارية، وأخلاقية، وصناعية

(١٢) من المرض والفقر والحوادث والآلام والفشل والبؤس
(١٣) من الثواب والعقاب والفضيلة والرذيلة والأجرام والاختراع
والكذب والحزن والصدقة والآمال والخاوف والاماني
(١٤) مطالعة الكتب والمجلات والجرائد

المدرسة تستقي خططها وسياستها من البيئة، ووظيفة المدرسة خدمة
البيئة. فأذا لم تشيد دعائم المدرسة على هذا الأساس تقوض بناؤها، وإذا
فشلت في خدمة البيئة، كان وجودها وزوالها سجيناً
لنوجه أنظارنا إلى اليابان حتى نقبس منها دليلاً واضحاً، تعزيراً لما نقول.
في بلاد اليابان طائفة عظيمة الشأن من الفتيات الرشيدات الجميلات،
اللاتي اتخذن الرقص والغناء وضروب اللهو والتسلية حرفة لهن، ولكن في
غير المسارح والملاهي ودور الرقص والتمثيل.

قضت التقاليد والعادات منذ قديم الزمان في تلك البلاد الشرقية، أن يقدم
رب الدار لضيوفه عدداً من أولئك الفتيات لتسليتهم، والمبالغة في أكرامهم،
وجلب السرور إلى أفئدتهم. وقد غالى اليابانيون في هذه العادة، وأسرفوا
في اتباعها إلى أقصى مدى، حتى أقبل الفتيات على ولوج أبواب هذه

الصناعة ، وأخذنها مهنة للارتزاق والمكسب ، وأصبح لهن جمعيات ونقابات ومكاتب أعمال .

ويطلق على أولئك الفتيات اسم « جيشا » *Getsha Gtrls* ، ويمكن أن يقال في غير مبالغة انهن متغلغلات في حياة الأمة اليابانية تغلغلا يجعل الاستغناء عنهن مستحيلا في الوقت الحاضر . وطالما كن عقبة كؤودا في سبيل الزوجة اليابانية وتحريرها ، لأنها تختفي عن الانظار كلما حل الزائرون منزل زوجها ، لجلها ضروب التسلية والغناء والرقص التي يتطلبها الذوق الياباني ، وتحتم وجودها التقاليد

غير أنه حدث أخيراً أن بنات اليابان الراقيات ، اللواتي ضربن في التعليم بسهم وافر ، ثرن في وجه هذه التقاليد وطلبن من أولى الأمر أنشاء المدارس التي تدخل في مناهجها ما يهيئ الفتاة اليابانية للقيام بما تقوم به (الجيشا) حتى تطهر منزل الزوجية من تلك الطائفة التي تنقص من قيمتها ، وتضع ستاراً كثيفاً بينها وبين زوجها ، وحائلاً بين السعادة الزوجية وأياها . وقد تم فعلاً أنشاء عدد كبير من هذه المدارس ، وأصبحت الفتاة اليابانية كفيلة بعد زواجها بالترحيب بالضيف والتوقيع أمامه على الآلات الموسيقية ، والغناء ، والحديث الجذاب الراقى ، والكياسة في التعبير ، والرقص الفنى ، وغير ذلك مما هز أسس جماعات « الجيشا » وأصبحت « الصالونات » تتلأأ أنوارها بغيرهن .

وقامت جماعات « الجيشا » تدافع عن كيائها ، وتجاهد في سبيل وجودها

فأنشأت لفتيات « الجيشا » مدارس حديثة منظمة ، يدرس فيها الغناء الحديث ، والرقص التوقيعى والغربى ، وآداب اللغة ، وآداب المحادثة ، والتدبير المنزلى والتربية البدنية ، والألعاب الرياضية ، وكل ما يعين على منافسة الزوجات « المتفرجات » والتغلب عليهن .

يبدأن نساء اليابان وطقن العزم على محاربة تلك ، الطائفة الفاتنة ، فتمكن بعض التمكن من تسليية أزواجهن وزائريهم والقضاء على كل ما ينغص الحياة الزوجية . وقد انتشرت المدارس الخاصة التى أنشئت لهذا الغرض فى كل مكان . ويقدم عليها الفتيات اليابانيات من خريجات المدارس الثانوية أقبالا شديداً ، حتى يزددن من العلوم أولاً ثم يتلقين من مبادئ التربية البدنية والألعاب الرياضية والموسيقى والغناء والرقص وآداب المحادثة ، ما يغنى أزواجهن فى المستقبل عن فتيات « الجيشا »

وتقول لايدي دراموندهاى ، الكاتبة الانجليزية المعروفة لدى المصريين ، أنها فى الفترة التى قضتها فى اليابان عرفت فتاة يابانية ، عمرها ست عشرة سنة ، كانت تسافر يومياً على دراجتها مئة ميل حتى تصل إلى مدرسة من هذا النوع ، وتستيقظ فى الساعة الرابعة صباحاً ، وتسافر بالدراجة ، ثم بالقطار ، وسيرا على الأقدام أحياناً حتى تصل الساعة الثامنة وهناك تبقى إلى الساعة الثالثة ، ثم تعود إلى منزلها وتقول الكاتبة أن هذه الفتاة لم تتعب عن المدرسة يوماً واحداً وأنها تؤمن بالتربية وألا لما كانت تسافر ست ساعات يومياً .

وما حديث « الجيشا » ألا مثل محسوس لمبدأ في التربية ، وهو أن واجب المدرسة أن تخدم الجماعة وتقوم بسد حاجاتها . فإذا كنا في حاجة إلى مهندسين أكثرنا من إنشاء مدارس الهندسة ، وإذا كنا في حاجة إلى طباعين أو نجارين أو حدادين ، أكثرنا من تعليم الطباعة والنجارة والحدادة . وإذا أكثر سطو اللصوص على منازلنا ، علمنا التلاميذ القتال والدفاع عن النفس ، وإذا كثرت حوادث السيارات في الشوارع والطرق ، علمنا أبناءنا كيف يسيرون في الشوارع بحيث لا يعرضون أنفسهم للخطر . وإذا تضاعف عدد السيارات في البلاد ، علمنا التلاميذ كيف يقودونها ويصلحونها ويركبون أجزائها . وإذا رأينا أن الاقبال على الزواج من الاجنبيات يهدد البلاد بالخطر ، أنشأنا مدارس خاصة للبنات للقضاء على الاجنبيات ، كما قضت اليابانيات على فتيات « الجيشا » وإذا وجدنا أننا في حاجة إلى تمثيل راق ورقص برىء ، أنشأنا مدرسة للتمثيل والرقص ، وإذا تبين لنا أن المخدرات تفتك بالأهالي أدخلنا مادة جديدة في مدارسنا أسمها « المخدرات »

وقد قامت وزارة المعارف بخدمة البيئة ، وسد حاجة الجماعة فأنشأت أخيراً المدارس الآتية : —

- (١) مدرسة التمثيل وما تتطلبه من دراسة اللغة والغناء والرقص التوقيعي
- (٢) مدرسة تجارية في القاهرة وأخرى في الاسكندرية للفتيات اللاتي يرغبن في التوظيف في البنوك والمصالح والشركات
- (٣) مدرسة للتراجمه الذين يدلون السياح على الأماكن الأثرية

والمصنوعات الوطنية وقد اتصل بنا أن عدد تلاميذها خمسمائة .

(٤) مدرسة للبنات من الأسر الشريفة الراقية ، تدعى كلية البنات (بالجيزة) . وقد أنشئت هذه الكلية سداً لحاجات الأسر الغنية التي تطلب تربية عالية في جو مصرى ، وثقافة لا توجد في مدارس الوزارة الأخرى .
ويا حبذا إذا أنشأت الوزارة قريباً مدرسة للخدم « والجرسونات » بشرط أن تتفق مع أصحابنا مديرى المقاهى والفنادق ، التي تملأ رحب الأرض وتسد نور الشمس من الاسكندرية وبورسعيد شمالاً الى أصوان جنوباً ، في المدن وعواصم المديريات والمراكز وبعض القرى ، حتى يتوظف فيها أبناء البلد بدلاً من الجيش الذى يرد من الخارج لهذا الغرض

ومثل هذه المدارس منتشرة في اوروبا واميركا والحاجة اليها شديدة في بلادنا ، ولا نريد أن تكون وظيفة تلك المدارس محصورة في تخرج الخدم ، بل نريد أن تمتد الى تخرج مديرى القهوات والفنادق . فهذه المهنة في مقدمة الاعمال التي تفتح ابواباً للرزق ، وتقسح مجالاً واسعاً للمكسب وكلما كنت أتوغل في أسفارى في العطلة الصيفية في أنحاء أوروبا ، قراها ومدنها ، وجبالها وأوديتها ، كنت افكر دوماً في مئات الألوف من الفتيان والشابات في المقاهى المنتشرة في جميع الأماكن حتى السحيفة منها . وكلما رأيت القهوات في البلاد المصرية يزداد عددها بسرعة مدهشة ، أقول في نفسى ، أن هذا العدد سيستمر في الزيادة حتى تصبح مصر كاوروبا . ثم أعود فأقلب نظرى في كل مكان فلا أجدها للمصرية أثراً في تلك القهوات

وأذا استثنينا القهوة « البلدى » الحفيرة ، والقهوة « النوبى » من الدرجة الثالثة ، لقلنا أن كل قهوة أخرى غير مصرية

ولست أوافق الذين ينادون بأقبال المقاهى ، لأن الاستغناء عنها محال . فالبلاد التى لا توجد بها مقاهى بالمعنى المفهوم ، كإنجلترا وأميركا وشمال أوروبا ، تستبدلها بالمطاعم والأماكن المعدة للشاى وهى لا تختلف عن القهوة المعتادة فى شىء ، ألا كونها مخفية عن أنظار المارة

وسواء أأحببنا وجودها أم أبغضنا ، فهى باقية إلى ما شاء الله . فلم لا نعمل إذاً على استغلالها ؟ من الغريب أننا لا نريد الاشتغال بفتح القهوة والمطاعم لأن فيها تباع الخمر ، ومع ذلك نسمح لغيرنا أن يفتحها ويبيع الخمر لنا ، ويضطرننا أن ندفع أثمانها مضاعفة . وهذا منطق غريب ، وليس ثمة قوة تحت الشمس ترجع هذا المنطق المعكوس إلى صوابه غير المدرسة . ولعل الساعة قد حانت ، وحل الزمن الذى فيه يربى المصرى تربية تجارية (وصناعية) ويعود التفكير التجارى ، بدلاً من التربية الزراعية المحضة والتفكير الزراعى المحض

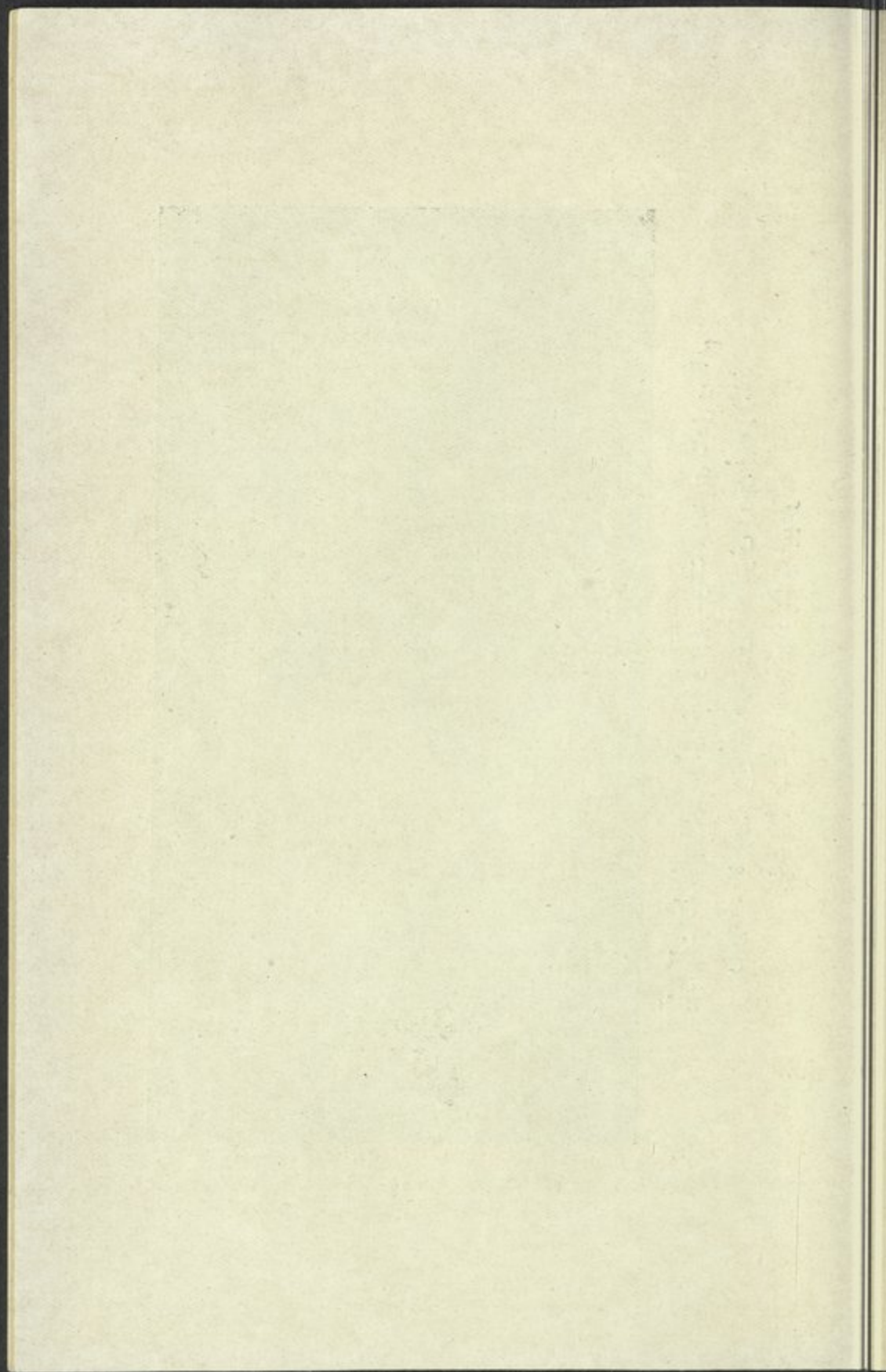
وجه نظرى أحد الأساتذة الاجانب إلى دار جميل (للسينما) فى مصر حديث البناء ، بديع الطراز ، فاخر الأثاث ، تام الاستعداد ، كملت فيه جميع الشروط الحديثة العالمية . ثم سألتنى عن سبب أحجام المصريين عن القيام بهذه المشروعات ، مادام المال متوافراً لديهم . ثم أردف ذلك بقوله أن مصر فى حاجة إلى مدارس جديدة تربي فى نفوس المتحقيقين بها من أبناء أرباب الأموال ،

ما يسمونه العقل العملى (business mind)

أما وقد تنازلنا الآن وشرعنا فى تخرج ممثلات ، وراقصات ، وموظفات فى المحال التجارية ، وتراجمه ، أفلا تتنازل أيضاً لتخرج مديري مقاه ومطاعم وفنادق ، وخدم « وجرسونات » ؟

الامير كيون مولعون « بالدندمة » الى درجة تقرب من الجنون . ولما أن رأى أصحاب الصيدليات الأقبال على هذا النوع ، أدخلوا فى صيدلياتهم فرعاً لبيع شراب الفواكه والدندمة . ولا يكاد يسير الواحد أكثر من عشرة أمتار فى مدن أميركا ألا ويجد صيدلية تبيع الدندمة . وقد اهتمت المدارس بتعليم صناعتها للبنات فى قسم التدبير المنزلى اهتماماً شديداً حتى أن مجلة علمية من أكبر المجلات فى أميركا نشرت أخيراً فى عدد من متساليين ، مقالتين ضافيتي الذيل فى « الدندمة » وقد أدهشنى ما رأيت فى هذين المقالين من أن عدد المؤلفات التى ظهرت فى موضوع « الدندمة » باللغة الانجليزية فقط يربو على الستين

هذا مانعني بقولنا أن المدرسة يلزم أن تكون مهيئة للبيئة .





وأذا رأت الائمة أنها في حاجة إلى خديم و « جرسونات » ومديري فنادق ومطاعم
 وقهورات ، فلا بأس من أنشاء المدارس لهذا الغرض ، وبين أبناء الامة
 مئات الاثرف ممن يريدون أن « يتعلموا ليعيشوا »

الفصل الثالث عشر

مدرسة بغير مناهج

في مدرسة لنكولن التابعة لكلية المعلمين بجامعة كولومبيا في نيويورك
معمل دائم للتجارب . فلا توجد هناك مناهج ولا خطة موضوعية . وللا هالي
ثقة عظيمة بهذه المدرسة ، حتى أنهم يعيشون أليها بأولادهم ويدفعون عن كل
طالب ثلاثمائة جنيه مصرى (١٥٠٠ ريال) سنوياً ، بالرغم من أنهم يستطيعون
أرسالهم إلى المدارس العامة بغير مقابل . وأساس هذه الثقة مهارة الأساتذة
الاخصائيين الذين يتولون إدارة المدرسة ، ومقدار المعلومات وكفاءة المعلمين
الذين يودع بين أيديهم النشء .

ويخيل إلى زائر هذه المدرسة الوحيدة في بابها ، أنها مثال القوضى ،
وأن تلاميذها لا يتعلمون شيئاً ، بل يتفككون ويتسلون ، ويقضون نهارهم في
لعب ولهو وهرج ومرج

ويدل تاريخ المدرسة على أنه منذ افتتاحها وتأسيسها ، عود الأطفال
تعلم المواد الدراسية من البيئة التي فيها يعيشون . فالتلميذ يشجع منذ التحاقه
بها على استحضار جميع الأشياء المادية التي لفتت نظره ، وأمكنه الحصول
عليها . فبنا صبي صنع قارباً صغيراً وحمله إلى شاطئ البحيرة حيث قضى مع
أخته وأهله فصل الصيف . وفي هذا القارب تزدهر مع أخته وأطفال جيرانه ،

وأخذ صوراً فوتوغرافية جميلة متعددة . ولما فتحت المدرسة أبوابها حضر وأخته حاملين مجموعة من هذه الصور التي تمثل تاريخ ثلاثة الشهور التي فضوها على الشاطئ . وفي خلال الأسابيع الأولى من السنة المدرسية ، كان أهم أعمال الصبي وأخته تدوين الملاحظات وسرد الحكايات التي تمثلها هذه الصور .

ويجد الزائر في الشهر الأول من السنة المكتبية ردهة مدرسية كبيرة ، قد عرض فيها طائفة من الأشياء التي عثر عليها التلاميذ في أثناء العطلة الصيفية ، مصحوبة بشروح وافية ، بأقلام أصحابها عن هذه الأشياء . فمن صور فوتوغرافية ، إلى زهور وأوراق قد جففت بطريقة علمية ، وثبتت فوق ألواح خشبية ، أو ورق سميك مقوّ ، إلى أصداف جميلة مدهشة في أحجام وألوان مختلفة ، إلى أدوات خشبية مصنوعة باليد ، إلى فراشات ذات ألوان وزخارف تنبئ عن مقدرة الخالق وجمال الطبيعة . ولا تقل عن هذه أهمية ، الحكايات الطلية والشروح البسيطة الساذجة التي تتعلق بالعشور على هذه الأشياء أو كيفية صنعها

والمعلم الحاذق يستطيع ، بعد الاطلاع على هذه كلها ، أن يستكشف الميول الكامنة في كل صبي وصبية ، والفروق الجنسية والفردية ، وكميات الذكاء ، والمستوى الذوقي وغيرها من المسائل النفسية التي تتنوع وتعدد بتعدد التلاميذ .

وحتى تكون المدرسة مرشداً لا غير ، تشير على التلاميذ قبل حلول

العطلة الصيفية ، خصوصاً الضعاف منهم ، أن يتخذوا جدولاً خاصاً لأعمالهم . ومتى عادوا إلى المدرسة قدموا صنع أيديهم أو ماعثروا عليه ، بشرط أن تدل هذه على أن أهلهم أو أقاربهم لم يقدموها اليهم ، لأن المدرسة لا تقصد أن تعد معرضاً يبهز الانظار ويدعو لأعجاب الزائرين . أن الغرض الأساسي تشجيع التلاميذ على العمل والابتكار . واللجنة التي يناط بها ترتيب المعروضات تشكل من التلاميذ أنفسهم تحت ارشاد معلم أو معلمة .

وقد تدعو هذه المعروضات أحياناً إلى درس يستغرق عدة شهور . كما حدث مرة أن استحضر طفل كان قد سافر مع والديه إلى الصين في العطلة ، بقايا حيوانات متحجرة . كانت هذه البقايا سبباً في أشغال نار الغيرة ، والبحث وحب الاطلاع . فقامت فرقة ، يقودها معلم ، بدرس هذا الموضوع ، وزيارة متحف التاريخ الطبيعي ، والاطلاع على ما كتب عن هذه المسائل في الكتب ، وتدوين كل هذه في كراسات ، مشفوعة بصور فوتوغرافية وملونة . وانهت المسألة بوضع جميع المواد التي جمعها تلاميذ الفرقة في كتاب حفظ بمكتبة المدرسة وكثيراً ما يستعير التلاميذ من والديهم مذكرات جيوبهم أو أشياء مادية حصلوا عليها أثناء سياحاتهم . فقد استحضر أطفال السنة الثالثة الابتدائية معلومات وافية من والديهم وأقاربهم عن الحياة في اليابان وعادات الناس وأعيادهم وتقاليدهم وملابسهم ، فقرروا تشييد منزل ياباني ، ولما تم لهم ذلك ، زينوه بأدوات الزينة اليابانية ، وزخرفوه وجهزوه بأثاثات يابانية ، وقرأوا الكثير من المؤلفات والمجلات عن اليابان ، ثم عاشوا في المنزل عيشة يابانية ،

وبهذا تمكنوا من درس جغرافيا اليابان وتاريخها وحياة أهلها
وهنا يتبادر إلى الأذهان هذا السؤال : وهل يقضى تلاميذ هذه المدرسة
كل أوقلتهم بهذه الكيفية ؟

الجواب كلا . فإن كل عمل من هذه الأعمال يستدعى في معظم الأحيان
دروساً خاصة في مادة من المواد . فقد يتضح للمعلم أن زخرفة المنزل الياباني
مثلاً تحتاج إلى دروس في الحساب أو الرسم أو الهندسة ، تهيئه لذلك العمل .
فلا بد إذا من الألمان بهذه الدروس قبل الشروع فيه أو أنجازه . وقد يتبين
أن تدوين الملاحظات عن التقاليد والأعياد اليابانية ، يتطلب مراجعة عامة
لتاريخ تلك الامبراطورية ، وتقويم جزرها ، ورسمها رسماً كروكياً ، فلا بد
إذا من انصراف الطلبة إلى الأخذ بنصية هذه الأشياء

وبتعبير آخر أن المواد الدراسية التي يتلقاها التلاميذ في المدارس المعتادة
جافة ، معدومة الاتصال بالحياة ، منقطعة عن عالم أولئك الأطفال ، يتعلمها
تلاميذ المدرسة الحديثة بطريق غير مباشر بمناسبات محسوسة ملموسة . ولهذا
تتخير المدرسة لتلاميذها « وحدات » من العمل يهدفها الأطفال لذة وميلاً .
ومصدر هذا الميل اشتراك التلميذ في تخيرها أولاً ، ولأنه يرى من ورئها
سداً لحاجاته ، وتلبية لمطالبه ، وأشباعاً لاختباراته الماضية . وكل « وحدة » من
العمل لا تتوافر فيها هذه الشروط ، أو لا يمكن النجاح فيها لعدم وجود المواد
الكافية لتحقيق هذا النجاح ، لا يلتفت إليها مطلقاً . والمعلم الحاذق يستطيع
ببعد نظره أن يرشد الأطفال إلى هذه الوجهة

تقترح معلمة السنة الاولى على الأطفال أن يتخذوا «الحياة في المزرعة» وحدة لأعمالهم . وسرعان ما يتحمسون للفكرة ويرتاحون لها ، لأن مجرد ذكر المزرعة تعيد ألى ذاكرة الطفل اختباره الماضية عن تربية الحيوانات والطيور الداجنة والزبدة والجبنه والألبان والمزروعات على اختلاف أنواعها . يقترح تلاميذ السنة الثالثة أن يدرسوا القواكه والخضروات ، قشند فيهم الرغبة في درس الأنواع التي تقع عليها أبصارهم في حديقة المدرسة والمزرعة الملحقة بها ، والألمام بطرق حفظها ، وتعلم طرق الطهي . وتزداد هذه الرغبة كلما جاء موعد طعام الغذاء ، ويعتمدون على انفسهم في تخير الاصناف التي يريدون أكلها

ويشترط في وحدات العمل أن تكون باعثاً على مواصلة الدرس والبحث وسبيلا ألى موضوعات مدرسية متشعبة . ففي السنة الخامسة (الابتدائية) يسرع التلاميذ في درس وسائل النقل ، فيزورون عدة شركات وأماكن ويستحضرون نماذج للقطارات العربات والسيارات والسفن الشراعية والبخارية ، ويدرسون في مكتبة المدرسة شيئاً عن تطور العجلة ، ويتنافسون في غرفة الدراسة في موضوع تطور النقل ، ومقارنة وسائله في الماضي والحاضر ويشترط في وحدات العمل ايضاً أن يستدل منها على نزعات التلميذ وكفاياته وميوله ، والفروق النفسية الفردية بينه وبين زميله . فعند درس وسائل النقل المشار اليها ، يقوم البعض بصنع زوارق وسفن من الخشب أو الخرف ، ويرسم آخرون موانى ومراسى وارصفة ، ويوزور غيرهم متاحف

تاريخية ، ويطلع سواهم على ما كتبه الكتاب فى هذا الموضوع ، ويدونون هذه المعلومات وتلك المشاهدات فى كتب وكراسات ، ويمثل غيرهم رواية فى مسرح المدرسة عن حياة البحّار . وبهذه المثابة تتاح الفرصة لكل صبي (وصية) أن يظهر مواهبه فى الناحية التى تتجه إليها كفاياته وميوله ، ويكشف المعلمون فيه عن وجوه الضعف والقوة ، ويستنتجون من هذه شيئاً عن المهنة او العمل الذى يحسن بالطفل أن يتخذ فى مستقبل حياته

يقيم الأطفال أحياناً سوقاً صغيراً ، يصنعون فيه الادوات والرسوم والنماذج التى صنعوها بأيديهم ، ويعلنون عن بيعها لمن يريد من سكان الناحية . ومن هذه الفرصة يتاح لهم التمرن على البيع وترغيب الشارى واستعمال مبادئ الحساب التى تعلموها استعمالاً عملياً

ولا بد أن تتوافر فى وحدات العمل مطالب البيئة وحاجاتها . ففى الفصول العليا ينبغى أن توجه أنظار التلاميذ إلى المستوى الراقى الذى تتطلبه البيئة ، فى العلوم الطبيعية والاجتماعية ، والفنون الجميلة ، والتاريخ ، وتقويم البلدان ، وفضل الماضى على الحاضر والقديم على الجديد ، ومما يحتمل أن تكون عليه البيئة فى المستقبل . وتبدأ هذه الوحدات بسيطة ، وكلما كبر الطفل واتقل إلى الفرق العليا ، اتسعت فى ذهنه المعانى الجغرافية ، والحوادث التاريخية ، والمحترعات العلمية ، والملاحظات الفلكية ، وأخذت مكانها فى حياته العقلية وكلما تقدم الطفل زادت مهارته فى استعمال الأدوات التى تعينه على إنجاز وحدات العمل . فالمطالعة والاطلاع على المراجع ، وتدوين المعلومات وكتابتها

بلغة سهلة متينة ، ورسم الأشياء ، وصنع النماذج ، وأنجاز العمليات الحسابية والمسائل الهندسية ، كلها أدوات ووسائل ينبغي إتقانها رويداً رويداً ، لأن في إتقانها يزداد الطفل أشباعاً لحاجاته من جهة ، ويتم الغرض الذي من أجله أنشئت المدرسة من جهة أخرى

ولا يفوتنا أن نقول أخيراً أن وحدات العمل هذه تربي في التلميذ عادات أخلاق على جانب عظيم من الأهمية في الحياة . ومن هذه العادات والأخلاق تحمل التبعات ، وقوة الابتكار ، والتعاون ، وبعد النظر ، والعزيمة ، والحزم ، وصدق الحكم ، والتميز ، والاقتصاد في الزمن وتوزيعه على وحدات العمل بنسبة هذه الوحدات من الأهمية ، وتنظيم الأعمال ووضع جداولها بشرط أن تتناول فترة طويلة مستقبلية ، والتفكير الحر ، ومعاملة الغير بالحسنى ، والشجاعة الأدبية ، والجرأة في أبداء الرأي ، والأقدام ، واللفظ ، ومشاركة الآخرين في الحزن والفرح ، والخذلان والنصر

والمعلم الذي لا يهيئ البيئة التي تلقى في تربيتها بذور هذه العادات والصفات ، حري به أن يبحث عن عمل آخر ، والمدرسة التي تعجز عن تغذية هذه التربية ، وتنمية هذه البذور ، جدير بها أن تغلق أبوابها ، والمناهج التي تقف حائلاً دون تحقيق هذه الأغراض ، خليق بها أن تمزق تمزيقاً وتحرق حرقاً .

أن المدارس العملية ، كمدارس لنكولن التي في ضوءها نكتب هذه الكلمة ، تضع كميات من المواد الخام ، تحت تصرف التلاميذ ، في حصة الاعمال اليدوية ، وتتركهم يعملون ويتكرون ويخترعون ، حتى يحولوها إلى مستخرجات وأدوات صناعية . ضع أمام تلاميذك كميات من الخشب والحديد والخزف والورق والطلاء ، وعدداً من الآلات ، واترك لهم الحرية في تحويلها إلى دمي وقطع من الأثاث وأوان وغيرها . ثم ضع أمامهم في يوم آخر كميات من مواد أخرى ، تدهش لتنوع أفكار التلاميذ واختلاف ميولهم وتبيان أذواقهم ومقدار نبوغهم وعظم دقتهم الصناعية ومهارتهم وحذقهم في الاعمال اليدوية ، ومدى الاختراع والابتكار فيهم

ان المدارس العملية تترك تلاميذها ، يختارون الموضوع أو وحدة العمل التي يريدون درسها تحت إرشاد المعلم . وقد تكون وحدة العمل موضوعاً من الموضوعات المحلية الآتية ، وكلها في مقدور التلاميذ : —

الحياة في القرية

الحياة في المزرعة

الحياة في المدن

السياحة براً وبحراً

صنع الالبان

الوقاية من الأمراض

كيف يعيش اليابانيون

كيف يعيش الصينيون

كيف يعيش الهنود الحمر

درس في الأُطعمة

أثاث المنازل

حياة النمل

سوق في مدينة

ما هذه الا أمثلة لثلاث من موضوعات يصح اتخاذها وحدات للعمل ومتى اتفقت آراء التلاميذ على الموضوع ، تأهبوا للدرس ، وعملوا على تنفيذه . وقد يستغرق عملهم هذا أسابيع أو شهور ، بين اطلاع على مرجع والقيام برحلات ، ورسم ، وصنع نماذج من الخشب والورق المقوى والخزف وبين طهي وأعداد أطعمة وحلوى ، وبين إنشاء وكتابة ومناقشة في الفرق مع المعلم أو المعلمة ، ورسم خرائط ، ودرس وقائع تاريخية ، وتمثيلها في صورة رواية مسرحية ، يعد التلاميذ ملابسها ومناظرها

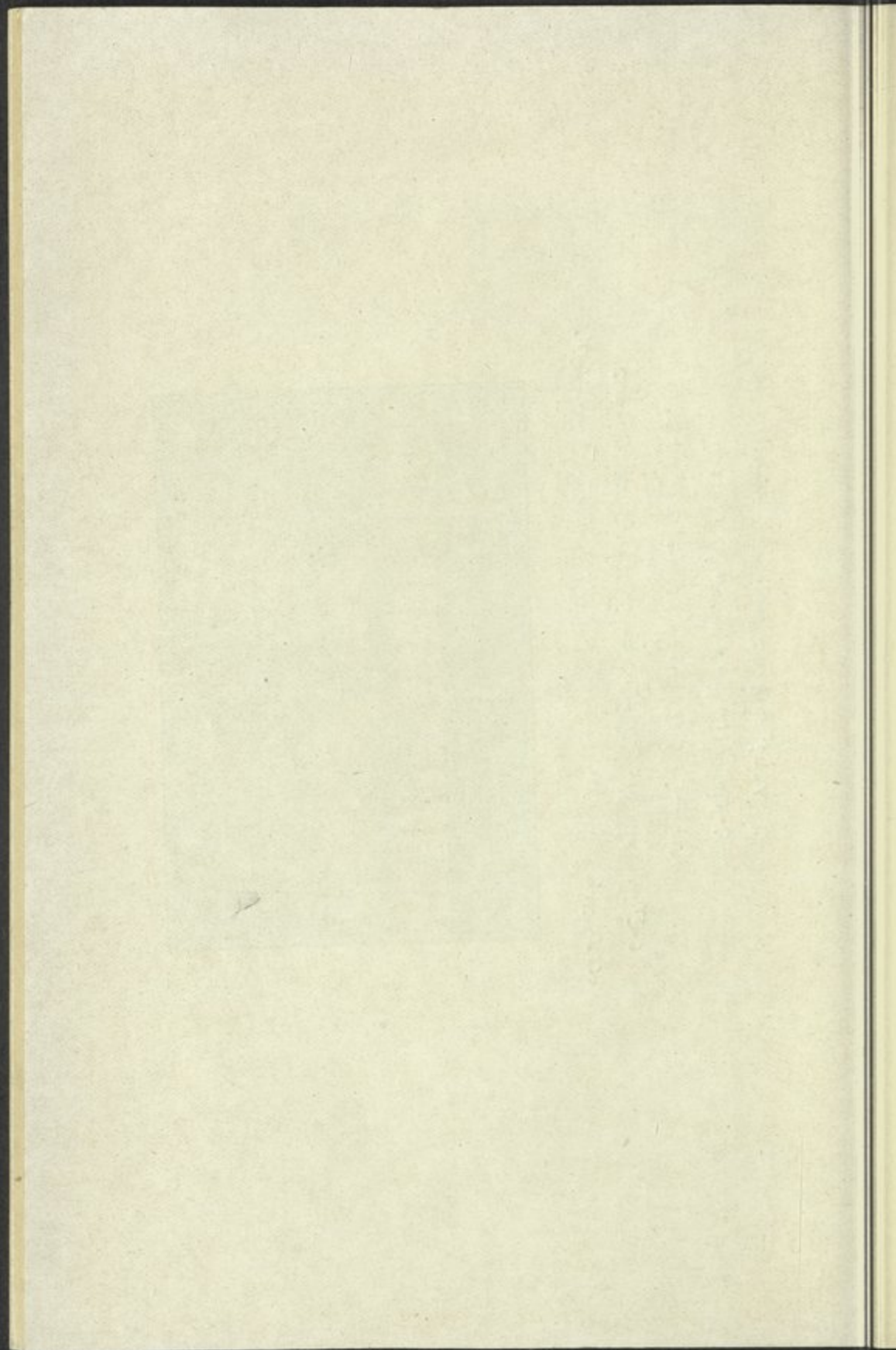
وبتعبير أقرب إلى أفهامنا ، يتعلم التلاميذ من وحدات هذه الأعمال الجغرافيا والتاريخ والحساب والرسم والخط والأنشاء وقواعد اللغة ، والأعمال اليدوية من نجارة وحدادة وطهي ، وغير ذلك من المواد الدراسية بكيفية عملية . ومن يشاهد مدرسة من هذا القبيل ، يخيل إليه أنها مزيج من المدارس الصناعية والمدارس المعتادة ، مع مدارس أخرى لا مثيل لها ، تهتم بالرحلات

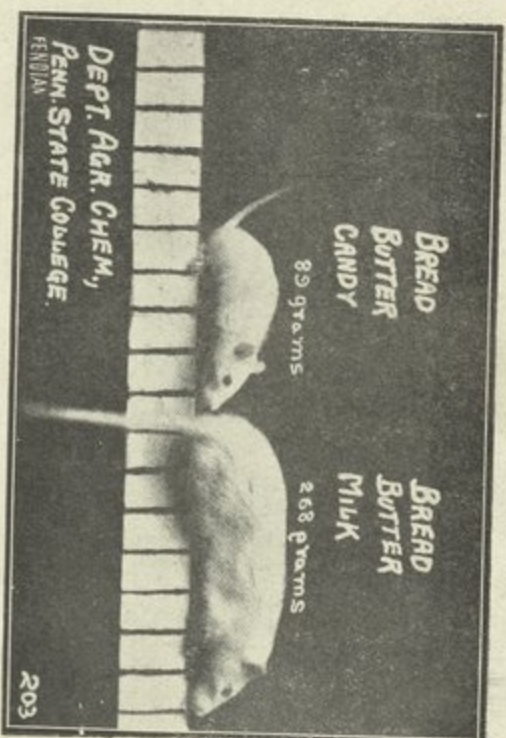
خارج المدرسة، والأكثر من البحث والتنقيب في المراجع والكتب
والمؤلفات في مكتبة المدرسة والمكاتب العامة

وحتى نلم باحاطة التلاميذ بوحدات العمل التي يدرسونها أحاطة تامة
ونقف على مقدار بحثهم ودرسهم وإطلاعهم، نذكر طائفة من الاسئلة التي
اقترحها أعضاء الفرقة في موضوع واحد، وكلف البعض الأجابة عن بعضها
وبالعوض الآخر الأجابة عما بقي منها. وليكن هذا الموضوع « صنع الالبان
وهو أحد الموضوعات التي سبقت الإشارة إليها: —

- (١) كيف يتحول البرسيم في جسم البقرة لبناً؟
- (٢) ما كمية اللبن التي تدرها البقرة يومياً؟
- (٣) ما سبب زيادة هذه الكمية في بقرة عن الأخرى؟
- (٤) أى بقريدرأ أكبر كميات من اللبن؟
- (٥) أى بقريدرأ لبناً أكثر دسامة من غيره؟
- (٦) لِمَ تحتاج البقرة إلى التمرين والهواء الطلق والمراعى النظيفة؟
- (٧) لِمَ ينبغي أن تكون حظيرة البقر كثيرة النوافذ؟
- (٨) لِمَ يفضل الأسمت على الخشب في صنع ارضية الحظيرة؟
- (٩) كيف تصنع الأرضية، بشرط أن ينحدر الماء فيها بسهولة إلى
البالوعات؟

- (١٠) لِمَ ينبغي أن تكون حوائط الحظيرة عالية وناعمة ومصقولة؟
- (١١) لِمَ ينبغي تنظيف هذه الحوائط وتبييضها بالجير بكثرة؟





دروس التغذية في المدارس الابتدائية والثانوية ضرورية لمن يريد أن يتعلم للعيش .

وحق، تكون هذه الدروس عملية ربت كلية بنسلفانيا فآرين شقيقين ، وغذت أحدهما بالخبز والزبدة ، والآخر بالشوكولاته ، والآخر بالخبز والزبدة

والأخرى . وقد بلغ وزن أحدهما بعد حين ٨٩ غراماً ووزن الثاني ٢٦٨ غراماً وأعيدت التجربة مرات عديدة

(١٢) لِمَ ينبغي أن يكون لكل بقرة أناء خاص للشرب ، أو نافورة على الأفضل ؟

(١٣) ما الوسائل التي تتبع لحفظ البقرة نظيفة دوماً ؟

(١٤) لِمَ ينبغي غسل ضرع البقرة وئديها جيداً قبل حلبها ؟

(١٥) لِمَ ينبغي على من يحلب البقرة أن يغسل يديه جيداً ويرتدى بذلة نظيفة قبل اقترابه منها ؟

(١٦) لِمَ ينبغي استعمال أناء ذي فتحة ضيقة لوضع اللبن فيه ؟

(١٧) لِمَ ينبغي تغطية الأناء حال الانتهاء من حلب البقرة ؟

(١٨) لِمَ ينبغي الاعتناء باللبن ووضعه في غرفة خاصة أو مصنع الألبان ، بدلاً من تركه مخزوناً في حظيرة البقر ؟

(١٩) لِمَ يغسل الفلاح أناء اللبن ويعقمه بالماء الغالي والبخار ؟

(٢٠) لِمَ يحفظ اللبن في صفائح مغبورة في الثلج ؟

(٢١) لِمَ يحفظ اللبن في الثلج عند حمله إلى المدن ؟

(٢٢) ما هو التعقيم sterilization على طريقة باستير (pasteurization) ؟

(٢٣) ولِمَ يعقم اللبن بهذه الطريقة ؟

(٢٤) لِمَ ينبغي غسل زجاجات اللبن وملئها بآلات مخصوصة حتى

لا تمسها الأيدي ؟

- (٢٥) ما الذى جعل اللبن أهمية كغذاء للناس، ولم يسونه ملك الطعام؟
 (٢٦) ما الحيوانات الأخرى التى يؤخذ منها اللبن فى سائر البلدان؟
 (٢٧) ماهى أصناف الطعام التى يدخل اللبن فى صنعها؟
 (٢٨) ما الذى يجعل اللبن حامضاً؟
 (٢٩) لم تطفو القشرة على سطح اللبن؟
 (٣٠) لم ينفصل الماء عن الزبدة فى اللبن، عند ما يحمض اللبن؟
 (٣١) ماهو اللبن النى (raw)؟
 (٣٢) لم لا يحتم تعقيم اللبن النى الذى تشربه؟
 (٣٣) ماعدد المرات التى ينبغى فيها الكشف على البقرة طيباً؟

هذه الاسئلة وغيرها فى موضوع واحد، نموذج من الموضوعات التى يأخذ الأطفال على عواتقهم بحثها. ونظراً لارتباطها بالحياة اليومية، يجدون فيها باعثاً على العمل، ورغبة فيه
 والأجابة عن هذه الأسئلة تستدعى فوق البحث والاطلاع على المراجع، نشاطاً واقداً على القيام بأعمال يدوية نافعة، كبناء نماذج مجسمة لحظائر البقر، ومصانع الألبان، وعربات لنقل اللبن من المزرعة الى المدن المجاورة، ومعامل للتعقيم، ودى صغيرة تمثل الناس يشترى اللبن من بائعيه
 وبعد أيام وضع الأطفال رواية قام أفراد الفرقة بتمثيلها، وكلها تدور

حول محور الألبان وحلبها وتعليمها وأعدادها للبيع . ونيط بفريق آخر أن يعد شريطاً للصور المتحركة في الموضوع عينه ، وكلف أحد الأطفال بعرض هذه الصور على تلاميذ المدرسة ، فكان لها تأثير يذكر

وطلب الأطفال من معاملة الموسيقى أن تضع لهم نشيداً عن اللبن ، فوضع النشيد ووقعه بعضهم على الآلات الموسيقية ، وأنشده البعض الآخر وقبل أن تمثل الفرقة الرواية المسرحية أمام تلاميذ المدرسة ، كان البعض من الأطفال منهمكاً في صنع المناظر ورسمها وأعدادها ، والبعض كان يعد زجاجات اللبن ويلصق عليها الأوراق اللازمة ، وبالاختصار كان هذا المشروع كافياً أن يشغل أعضاء الفرقة في القراءة والكتابة والأنشاء والحساب والرسم وصنع النماذج من الخشب والمعادن والخزف ، والتوقيع على آلات الموسيقى والأنشاد والتمثيل والرقص ، وكل ما يطلب من تلميذ في مدرسة راقية

ولم يفت هؤلاء الأطفال أن يبحثوا عن أهم أصناف الطعام التي يدخل في طهيها اللبن ، فقام فريق منهم بطهيها ، وتقديمها لبقية التلاميذ لأكلها . وبعد هذه الأعمال كلها — بما في ذلك الأكل — أصبح اللبن معنى آخر غير ذلك المعنى الغامض المبهم الذي يفهمه تلاميذ المدارس والأطفال الذين لم يدرسوا هذا المشروع

وبعد هذا كله تكونت في الأطفال عادات وأخلاق ولدت فيهم الميل
ألى التعاون ، والبحث ، والاطلاع ، والتدقيق ، وحب الأعمال اليدوية ،
واحترام آراء الغير ، وآداب المناقشة ، وغيرها من الصفات التي لا يتسنى
لهم الحصول عليها لمجرد درس مجلدات عن الدين في مدرسة معتادة ، مهما
بلغ معلموها من الخلق والنبوغ

الفصل الرابع عشر

جزر القرية الهندية

Ushagram

تجربة في التعليم وحيدة في بابها

(في بلاد الهند)

تقوم العلوم الحديثة على أسس التجارب . فالمناقشات النظرية ،
والكتابات الجدلية ، والمؤلفات التي تستند على أقوال فلسفية ومادونه السلف
وتركه للخلف ، لا تغني فتيلًا ، ولا تؤدي إلى اكتشاف ، ولا تعين على اختراع
فدهشات الكهرباء ، وغرائب الطيران ، وبدائع اللاسلكي وأشعة
أكس ، وعجائب البخار وناطحات السحاب ، والكيمياء الصناعية والطب
والهندسة ، لم تقم لها قائمة ، ولم تتغلغل في حياتنا اليومية ، في المنزل والمهنة ،
ودار التمثيل الصامت والناطق ، ومكان العبادة ، والشارع والمزرعة ، والمكتب
والمعمل والمدرسة ، بغير التجارب التي قام بها العلماء في معاملهم ، والتي بذلوا
فيها جهودهم ، وأتقوا عليها أموالهم ، وقضوا في إنجازها أعمارهم

وقد شهد القرن العشرون هذه التجارب العالمية تمتد إلى فن التربية
وطرق التعليم ، حتى أصبحت في أميركا وبعض بلدان أوروبا تضرب بها الأمثال

ويسرنا أن نرى بعض البلدان الشرقية في مقدمة الممالك التي تدخل
معامل التجارب في نظمها التعليمية ، وأحتمل بالذكر اليابان وجزائر الفلبين .
ويسرنا أن نذكر على سبيل المثال بعض هذه التجارب التي أجريت في الهند
فصادفت نجاحاً تحسدها عليه بلدان الشرق الأدنى ، وبعض بلدان أوروبا
ولعل هذه الامثلة خير ما يمكن تقديمه ، شرحاً لموضوع هذا الكتاب
« كيف تتعلم لنعيش » . ولعلها أيضاً أفضل ما يمكن تقديمه ، شرحاً لفكرة
« وضع مناهجنا ، وخططنا طبقاً لمقتضى الحال ، وسدّ الحاجات المحلية ، المباشرة
منها وغير المباشرة ، الحاضرة منها والمستقبلية »

القرية في الهند كالقرية في بلادنا المصرية ، لا يتوافر فيها من وسائل
الراحة والوسائل الصحية شيء . فالطرق والأزقة ضيقة قذرة ، تتراكم فيها
الأتربة والأوحال . والبيوت قليلة النوافذ ، معدومة الضوء والهواء ، ملوثة
بوعث البهائم ، وأوساخ الطرق ، وتجذ فيها الجراثيم مرعى خصيباً . وقد قال
برنارد شو ، الكاتب الانجليزى المعروف ، بعد أن شاهد الهندو يغتسلون
في نهر الكنج العكر القذر : « لا يمكن لمكروب ، عنده ذرة من غزاة النفس
والكرامة ، أن يعيش في نهر الكنج » كما سبق القول

وقد خطر على فئة راقية في بلاد الهند أن تطبق العلم على العمل ، وتنشئ
قرية حديثة في مساحة واسعة من الأراضى الزراعية حتى تكون نموذجاً
ينسج عليه سكان القرى . وقد روعيت في هذه القرية الحديثة جميع الاعتبارات

الصحية والزراعية والاقتصادية ووضعت المنازل جميعها تحت تصرف تلاميذ ومعالمهم ، ولم يسمح لغير هؤلاء السكنى فيها

أى أن هذه القرية الحديثة ، بكل ما فيها من منازل ومزارع ، ومشاة وطيور وحيوانات داجنة ، ومصرف ومكان عبادة ، ومستشفى وحمام ، ومصانع ومتاجر — مدرسة كبيرة عملية ، يتلقى فيها التلاميذ ، سكان القرية ، العلوم النظرية ، بجانب زراعة الأرض ، وخرن غلتها وبيع ما يزيد عن حاجتهم منها ، وتربية ماشيتها ، وتنظيف شوارع القرية وأنارتها ، وأدارة مصانعها البسيطة ، قياماً بأعمال الحدادة والسباكة والنجارة والطباعة فيها الخ الخ الخ وقد بدأ القائمون بشئون المدرسة ببناء عدد قليل من الأكواخ ، ووضعوا فى كل كوخ خمسة تلاميذ . ثم أناطوا التلاميذ ببناء بقية أكواخ القرية تدريجياً طبقاً للرسم الهندسى الصحى الموضوع ، ألى أن تم بناء جميع الأكواخ ، وتخطيط جميع الشوارع

وحتى يكون النموذج عملياً ، يستطيع القرويون الفقراء فى بلاد الهند محاكاته ، بنيت الأكواخ فى منتهى البساطة ، ولم تكلف أصحابها إلا أقل نفقات ممكنة . فالحوائط مشادة من الطين ، غير أن النوافذ متعددة والهواء والشمس يتخللان الكوخ على بساطته . أما سقف الأكواخ فمن صفائح وألواح من الحديد ، مغطاة بطبقة من الطين . وهذه الألواح سهل استجلابها من المدن المجاورة ، وهى بخسة الثمن ، وتدل على أن السقوف المغطاة بالقش ، غير الصحية ، التى يستعملها قرويو الهند ، يمكن الاستغناء عنها

وقد راعى أولو الشأن البساطة بكل معانيها في كل مرافق القرية، حتى أصبحت البساطة بعينها، وبذلك تسنى لسكان القرى أن ينسجوا على منوالها وكما أسلفنا، يسكن كل كوخ خمسة تلاميذ، ولكل كوخ رئيس. ويجتمع رؤساء الأكوخ مرة كل عام، وينتخبون من بينهم رئيس القرية أو عمدها، بأغلبية الأصوات. ورئيس القرية يختار له من التلاميذ أعواناً ومساعدين لفرض الضرائب وجبايتها. وتنفق الأموال التي تجبي في مصالح القرية العامة كالكنس والرش والأضاءة. وفوق انتخاب العمدة، فإن رؤساء الأكوخ يجتمعون في فترات دورية معلومة، للنظر في الشؤون العامة، ويسمى هؤلاء الرؤساء أعضاء مجلس القرية.

والمعلمون والناظر في هذه المدرسة القرية، أو القرية المدرسة، كما يشاء القاريء تسميتها، من سكان القرية، وعليهم تسرى قوانينها ونظمها. وما يدونه من الاقتراحات أصلاً للقرية، يكون بمثابة الاقتراحات الأخرى التي يديرها التلاميذ، سكان القرية، لاثبات أوامر تنفذ تنفيذاً. ووراء اشتراك التلاميذ اشتراكاً فعلياً، في إدارة القرية وتشيداً كواخها وأصلحها، وزرع الأرض وتربية الماشية، وجميع ما يلزمها، فلسفة عميقة أراد القائمون بالأمر اتباعها وموجز هذه الفلسفة أن مجرد مقاومة الرذيلة لا تكفي وحدها لتكوين الرجل، بل ينبغي أن يوضع في مقدمة هذه أتيان الفضيلة والعمل على أسعاد الآخرين وتوفير وسائل الراحة، والاشتراك في هذه كلها اشتراكاً فعلياً. وقد غنى بهذه الفلسفة عناية خاصة هناك، سداً لحاجة ماسة في بلاد الهند،

وأصلاً لعب خلق اجتماعي محلي . وذلك لأن عدداً كبيراً من الهنود يعتقد أن رأس التقوى ومعيار الفضيلة في الحياة تعذيب النفس ومقاومة الرذيلة . لذلك تجد سكان تلك البلاد يعذبون أجسامهم ويلبسون المسوح ، وينامون على الرماد ، ويحاربون الرذيلة ، ظناً منهم أن ذلك وحده يكفي لقيامهم بواجبهم نحو أنفسهم والأُنسانية . فلا يعملون على تحسين أحوالهم ، ولا ترقية معيشتهم ، أو الاقتباس من مدنية القرن العشرين

أراد إذا مبتكرو فكرة القرية الهندية الحديثة ، أو مدرسة القرية ، أو قرية المدرسة ، أن يبرهنوا للجمهور الهندي ، أن الفضيلة عاملة ، لا عاطلة ، وموقفها موقف الهجوم ، لا موقف الدفاع فقط ، وأن واجب الأُنسان تحسين أحواله وأحوال جيرانه وأهله ومواطنيه ، صحياً واجتماعياً وعقلياً وروحياً ، لا مجرد الامتناع عن الرذيلة ، لأن التُّرك ، أو الامتناع عن الرذيلة ، لا يفي المرء عن عمل الخير ، وأتيان الفضيلة

يتضح مما سلف أن أصحاب هذه القرية لا يرمون إلى إنشاء قرية غريبة ، حتى تكون نموذجاً للقرى الهندية الأخرى . بل بالعكس يريدون أن تكون القرية هندية في حياتها وروحها ، مضافاً إلى ذلك وسائل الراحة والصحة وما يتبع هذه الوسائل من زراعة منتجة وصناعة دقيقة وتجارة رابحة . يريدون أن يتعلم التلاميذ ليعيشوا . يريدون أن يشبوا في القرية ، فتصبح القرية وطناً لهم ، ولا يخطر ببالهم في المستقبل أن ينزحوا إلى المدن ، فيتقوض دعائم البناء الذي

شيدوه في القرية. وأخيراً تصبح هذه القرية الوحيدة شعلة تنتشر منها شموع مضيئة إلى ألوف الأماكن الهندية الأخرى ، ويوقن القرويون أن في سكنى القرى نعمة وبركة ، وأن الهجرة إلى المدن نقمة على الأمبراطورية الهندية. وربما كانت الفكرة الغربية الرئيسية في هذا المشروع العظيم ، هو ما أشرنا إليه في غير هذا المكان من الكتاب ، وهو التعلم بالعمل ، تلك الفكرة المركزية في التربية التي يسميها جون ديوى وأنصاره الكثيرون Learning by doing ولا بدع إذا علمنا أن مدارس قروية كثيرة تدعو أنجب التلاميذ في هذه المدرسة القروية ، لأدارتها (المدارس القروية) وبث الفكرة الحديثة في تلاميذ هذه المدارس. وفوق ذلك فإن القرى المجاورة أخذت تشعر بالفرق العظيم بين صناع وزراع المدرسة القرية ، وصناعها وزراعيها. فلاغربة إذا رحبوا بتلاميذ المدرسة القرية ، وطلبوا منهم أن يقبلوا العمل في قراهم حدادين ونجارين ونساجين وفلاحين ، بعد أن رأوا بعيونهم ما وصل إليه هؤلاء الصناع التلاميذ ، من الدراية والخبرة والخدمة والأمانة في العمل وأدخال الآلات البخارية بطنىء في المدرسة القرية ، لأن أولى الشأن يرغبون في الاقتصاد ما استطاعوا ، ويرغبون في الاكثار من هذه المدارس أو القرى التي لا تتطلب سوى قطعة من الأرض وقليل من المال

وأذا عدنا إلى جدول الاعمال في هذه المدرسة القرية ، قلنا أن التلميذ يقضى شطراً من الزمن في الدرس ، وشطراً آخر في عمل خاص بأصلاح

القرية وتنظيفها، وشرطاً ثالثاً في مزاولة حرفة يحترفها، وعلى هذا الشرط الأخير يتقاضى أجراً. ولا يزال التلميذ حرفة ما من الحرف، زراعة كانت أو صناعة أو تجارة، إلا إذا قضى مدة التجربة في عدة حرف متنوعة، إلى أن يتبين لرؤسائه ومعلميه أنه أليق لحرفة معلومة منه إلى سواها. ومعلمو هذه المدرسة أو القرية لا يألون جهداً في تنبيه قوى تلاميذهم العقلية واليدوية، حتى يستخدموها في أحسن وجوها.

فالتلميذ النجار يبدأ أولاً بتقليد معلمه في صنع أبسط الأشياء، مع درس أنواع الخشب، والأمكنة التي تجلب منها، والأثاث الذي يصنع منها. ثم يأتي دور الابتكار فيبتدع الأشكال والرسوم. ويشترط أن تكون كل الأدوات المصنوعة من الأشياء التي تحتاج إليها القرية، من رفوف وأبواب ونوافذ وموائد، وحظائر الماشية والدجاج، والمقاعد، والعربات الخشبية التي تجرها الحيوانات. ويشترط أن يقرن العمل اليدوي بالعمل العقلي، حتى يكون العقل معواناً لليد.

والأجور التي يتقاضاها التلاميذ تودع في « بنك » المدرسة القرية وهو كسائر البنوك يقوم بعملية التوفير والتسليف. ومديره وصرافه يعينهما رؤساء الأكواخ بالاتفاق مع ناظر المدرسة القرية. وجميع حسابات القرية من وارد ومنصرف يقوم بحفظها موظفو البنك. فالأموال التي ترد للمدرسة من بيع صغار الماشية والدجاج والبيض واللبن والزبدة والجبنه والخنطة، تحفظ ضمن حسابات القرية، أما الأموال التي ترد من الأعمال التي يزاولها التلاميذ

فتحفظ في حسابات الأفراد الخاصة . وبهذه الطريقة نعلم التلاميذ التعاون مع الغير من جهة ، وكيف يدير شؤونه الخاصة من الجهة الاخرى
وهنا أريد أن أنقل ما يقوله أصحاب هذه المدرسة القرية ، عن مزايا مشروعاتهم ، بحروفه في ما يأتي : —

« إذا كانت المدرسة أو القرية لم تؤد خدمة للمدن والقرى القريبة منها ، سوى تسمين الدجاج ، فكفى . وكفاها فخراً أن تسد حاجة محلية ، طالما كانت ماسة . وكيف لا ، وقد أصبح الدجاج ^(١) الهندي حشرة لا تكاد تبين ؟ لقد درس تلاميذ هذه المدرسة شيئاً عن الدجاج السمين في أنحاء المسكونة ، وأيقنوا أن الناس يقبلون على البيض ، ذى الحجم الكبير ، ويدفعون لاجله ثمناً غالياً ، وأن الدجاج الكبير يبيض ببيضاً كبيراً ، وأن حفظ عدد محدود من الدجاج السمين المنتخب مع ديك سمين سليم ، ينتج كتاكيت سميحة سليمة من سلالة راقية

« أن الاطفال على العموم شغوفون بكل الكائنات الحية ، مولعون بمشاهدتها تولد ثم تنمو تدريجياً ، مغرمون بتنظيف حظائر الدجاج ، وأطعم صغارها ، والمحافظة عليها من الكلاب الضالة والثعالب ، وضع أسوار من الحديد حولها . وهذه الرغبة القطرية الكامنة في نفوس التلاميذ تدفعهم إلى اقتناء الدجاج والمحافظة على ببيضه

(١) أراجع ما أشرنا اليه عن الدجاج المصرى وضعفه ، والبيض المصرى وتضاؤلها ، حتى بعض الانجليز في إنجلترا ظنه « بيض التماسيح » — في مكان آخر من الكتاب

أما الخطة التي يأكلها الدجاج في دفع ثمنها حواله من بنك المدرسة القرية إلى مخزن التعاون المنزلي الذي يديره التلاميذ^(١) أيضاً . وقد افتتح مخزن التعاون المنزلي برأس مال صغير قدره خمسون روبية (الروبية تساوى نحو سبعة غروش) ووزعت أسهمه على التلاميذ والمعلمين . وتجرد حسابات المخزن كل ثلاثة شهور وتوزع الأرباح على المساهمين بنسبة الأسهم التي اشتروها . وجميع المواد الغذائية والصناعية التي تحتاج إليها القرية من الخارج ، تشتري بالجملة بأثمان بخسة ، وتباع لمصالح القرية بأثمان أعلى منها قليلا . وقد شرع مخزن التعاون في تبادل المعاملة ، بيعاً وشراءً مع القرى المجاورة ، بدلا من جعلها مقصورة على سكان المدرسة القرية ، وبهذا سيعيد التاريخ نفسه ، فإن العالم الجديد ، بعد تكشفه بقليل ، كان يتبع هذه الخطة بعينها .

في ناحية قصية من القرية نجد الحداد في « دكانه » (والغريب أن الهنود يستعملون هذه الكلمة عينا كما هي في اللغة العربية) ولديه قضبان من الحديد ، وقطع من الفولاذ ، والمطرقة والسندان ، والفحم المتقد والكبير يتناوب على تفخه التلاميذ — هذا كل ما نشاهده هناك . غير أن هذا الحداد الماهر يشتغل بعزيمة وتؤدة ، حتى يتعلم التلاميذ صناعته . ومتى توسم في أحدهم نبوغاً في حرفته ، طلب من إدارة المدرسة القرية إرساله على تفقها إلى بنغال مثلاً

(١) وكان يمكن اختصار الطريق وعدم الشراء والبيع بين تلاميذ القرية لان الخطة لهم والدجاج لهم ولكن بهذه الكيفية دون سواها يتعلمون ليعيشوا

ليزداد معرفة حتى يعود إلى مدرسته معلماً .
وأذا تركنا مصنع الحداد وعرجنا على معمل النسيج ، ألفينا المناسج
اليديوية ، يديرها التلاميذ ، وشاهدنا الأقمشة الوطنية تصنع بدقة ، وترسل
إلى مخزن التعاون لبيعها لسكان القرية .
وأذا مررنا بسائر المصانع مرّ الكرام وأردنا مشاهدة الجهود الصحية ،
فعلينا بالسير في الشوارع والطرق لنرى بعيوننا مبلغ النظافة وطرق الإضاءة ،
وقضينا بضع دقائق في مستشفى القرية الذي تديره زوجة الناظر مؤقتاً ، ربما
يعود أحد الطلبة من بعثته في كلكتا ليتولى أدارته . ولا يفوتنا أن نشاهد
الألعاب الرياضية التي يخصص لها يومياً ساعتان لكل تلميذ . وفي ساحات
اللعب ، على بساطتها يتعلم التلاميذ ، فوق تقوية أبدانهم ، الصبر والاحتمال
والشهادة وحسن المعاملة وغيرها من الصفات التي تتوافر في الرياضيين

ولما كانت الزراعة ، في كل أمة عامة ، وفي الهند على الأخص ، من أهم
مرافق الحياة ، فقد عيّنت المدرسة القرية بها عناية عظيمة . وتوصلاً للغاية التي
يرمي إليها القائمون بأمر المدرسة ، قسمت مزارع الأرز (أهم حاصلات
تلك الجهة) إلى أقسام عدة ، حتى يختص كل تلميذ بزراعة قسم منها ، يتناسب
مع قدرته وقوته وسنه . والبذور أو التقاوى التي تستعمل ، تبعتها إليهم وزارة
الزراعة من أجود الأنواع . ولا تزل المحارث الخشبية ، « بسكتها الحديدية »
هي المعروفة هناك .

ويزرع كل تلميذ المساحة المخصصة له ، ويلاحظ نموها ويقطع الحشائش القريبة التي تنمو بين عيدانها ، ويحصد ها ، ويدرس ها . ويعد كل تلميذ طعامه يومين كل أسبوع ، أما بقية الأيام فينات أعدد الطعام فيها بالطهاة من التلاميذ ، حتى يتفرغ البقية لمزاولة حرفهم

أما حدائق الخضروات فمشاريع قائمة بذاتها : وينات بكل خمسة تلاميذ من سكان كوخ واحد ، أن يتولوا غرس حديقة واحدة وجنى خضروات ها . ويزرع في هذه الحدائق جميع أنواع الخضروات التي تنمو في تربة الهند . ومنها يقطف التلاميذ الخضروات اللازمة لأطعامهم في الأيام التي يكلفون فيها بأعداد طعامهم بأنفسهم

ولما كان تقدير الجمال والأعجاب به من المسائل التي تعنى بها القرية ، تشجع المدرسة القرية تلاميذها على زراعة الزهور والاعتناء بحدائقها ، حتى يعلموا أن في جانب المنفعة المادية ، منافع أخرى تولد في النفس ارتياحاً وجباً وسكوناً ، وتفكيراً في جمال الطبيعة

ولا يغرب عن الأذهان أن القائمين بأدارة المدرسة القرية هم في دور التجربة رغم ما بلغوه من النجاح ، وما أحرزوه من حسن النتائج . وقد طلبوا أخيراً من وزارة الزراعة أن تساعدهم على شراء آلة بخارية للرى ، حتى يتسنى للتلاميذ الانتفاع بمزارع الأرز وحدائق الخضروات ، وحدائق الزهور ، وجنى ثلاثة محاصيل كل عام ، وحتى يتمكنوا أيضاً من زراعة أشجار الفاكهة ، والأشجار التي تفرس للارتفاع بأوراقها الظليلة وأغصانها المتفرعة ، ومناظرها

الجميلة . وبعبارة أخرى تصبح مدرسة القرية مركزاً للتجارب الزراعية في تلك الناحية.

وتشرع الإدارة في إرسال تلاميذ مدرستها النابغين إلى سائر القرى الأخرى حتى يشرحوا المشاريع التي حولت قطعة من البرية إلى جنة عدن أخرى

هذا النموذج الحى الناطق لا يحتاج إلى شرح ولا تعليقاً

وليس هذا النموذج حبراً على ورق .

ولا هو نظرية فلسفية

ولا يكلف نفقات باهظة

ولا يقوم به اميركان أو انجلوساكسون.

ولا ينفق عليه أحد أصحاب الملايين .

ولا يديره أساتذة ذو مرتبات ضخمة .

ولا يخرج أطباء أو محامين أو مهندسين

ولا هو قرية أوربية تتوافر فيها جميع وسائل المدنية الحديثة وتترف القرن العشرين

ولا هو حديث خرافة ولكن له أمر واقعى

ولا يكلف الامساحة من الارض وحفنة من المال

ويقوم به هنود — شريقون

وينفق عليه جماعة متوسطون ، أن لم يكونوا فقراء ؟

ومعالموه بسطاء ، يتناولون مرتبات ضئيلة تكاد تكون حنطة ويضأولبنا

وزبدة و قليلا من الملابس

ويخرج فلاحين وحدادين وبنائين ونجارين ونساجين
وهو قرية بسيطة حسنة التهوية والأضاءة بغير ترف وزخرفة
وهو مشروع في حيز الوجود تستطيع مشاهدة والعيش فيه ، إلى جانب
القراءة عنه في السكتب . وهو حديث العهد وينمو تدريجياً .

هذه هي المدرسة القرية أو القرية الهندية الحديثة التي يسمونها
بحق Ushagram أو فجر القرية وكلمة Usha معناها فجر وكلمة gram معناها
قرية ، في اللغة الهندية

فهل نكتفي بالمدارس الثانوية التي عندنا ، وتتنازل إلى انشاء مثل
هذه المدارس ، بطريق التجربة ، حتى نتعلم لنعيش أولاً ، ونحسن القرى
المصرية عملياً ، ثانياً ؟

الفصل الخامس عشر

التربية والعمل المنتج

تصور (اديسون) العالم الطبيعي المشهور ، طالباً صغيراً . جالساً في حجرة الدراسة ، يتلقى دروساً نظرية في الكهرباء . وانظر اليه وهو يصنع إلى المعلم يؤيد أقواله ويشرحها برسوم تخطيطية على السبورة ، ويدعم حججه بماقاله وكتبه العلماء في الموضوع . ثم تصور هذا الطالب شاباً في معمل الطبيعة في مدرسته ، يطبق العلم على العمل ويشاهد التجارب يقوم بها المعلم أمامه وأمام رفاقه . ثم تصوره أخيراً كهلاً في معمله الخاص يخرج للعالم مخترعاته المدهشة وينير العالم كله بمصباحه الكهربائي الذي يخترق حجب الظلام الدامس .

نرى في حياة اديسون ثلاث مراحل تختلف الواحدة فيها عن الأخرى اختلافاً كاملاً . فالمرحلة الأولى الدروس النظرية في حجرة الدراسة ، والمرحلة الثانية الدروس العملية في معمل الطبيعة المدرسي ، والمرحلة الثالثة العمل المنتج في (المصنع) أو المعمل الخاص . ويتضح من هذا أن المعمل المدرسي وسط بين حجرة الدراسة والعمل

وهذه المراحل الثلاث ينبغي أن يجوزها الطالب في المدرسة إذا كان يريد أن يتعلم ليعيش . وهذه أحدث فكرة في التعليم العملي ، لأن المعروف

عن هذا التعليم أن الطالب يدرس الموضوع نظرياً وعملياً وكفى ، غير أن أحدث المربين آراء يقولون أن الدروس العملية يجب أن تكون منتجة ، حتى يتسنى للطالب أن (يعيش) بعد خروجه من المدرسة مباشرة . ولما كانت عبارة (العمل المنتج) تحتاج إلى إيضاح ، فأنتى أنقل هنا ما يقوله الأستاذ بنكيفتش رئيس جامعة موسكو ، في الموضوع : —

« تستطيع المدرسة الناهضة أن تدخل العمل المنتج في المدرسة . فالمطبخ مثلاً يمكن الجمع فيه بين التعليم والعمل المنتج خصوصاً إذا كانت كميات الطعام التي تهيأ فيه كثيرة ، وكان الطلبة الذين يستهلكونه كثيرين . وفضلاً عن أن العمل في المطبخ يهيئ للطلبة فرصة نادرة المثال في التربية الاجتماعية (التعاون والصبر وخدمة الغير والتواضع الخ) فإنه يعلمهم دروساً هامة في علم التغذية الذي يحتاج إليه كل فرد في الحياة . أضف إلى ذلك أنه في خلال العمل في المطبخ تثار مسائل وأبحاث في الكيمياء والطبيعة وعلمى النبات والحيوان وعلم الصحة والدروس الاجتماعية والجغرافيا الاقتصادية وغيرها مما له علاقة بذلك العمل

وعيب هذا العمل أن المطبخ لا يكفي إلا عدداً قليلاً من الطلبة في وقت واحد ، ولو أن التغلب على هذه الصعوبة ، ليس بالأمر العسير والمدرسة التي تضع تحت تصرف طلبتها قطعة من الأرض لغرس الحدائق وزرع الخضروات والقيام بالمشروعات الزراعية ، تستطيع أن تقدم للطلبة درساً عظيماً في العمل المنتج ، وتجعل للتربية مقاماً سامياً من الوجهة العملية . وبهذا

العمل يتسنى للطلاب أن يفهم معنى الحقائق والنظريات التي يتلقاها في
حجرة الدراسة»

ولكن ليست الغاية من العمل المنتج تخرج طهارة مهرة أو فلاحين أو زراعا،
أن الغاية تقريب الطالب من العمل وتشويقه إليه وتقييمه معنى قوة الإنتاج
وضروته وأيقافه على العلاقة بين العلم والعمل . وواجب المدرسة أن تسخر
كل الوسائل المادية التي بها يدرك الطالب أهمية العمل اجتماعياً واقتصادياً
ويسهل تنظيم العمل المنتج في المعامل الصناعية في المدرسة كمعامل
الحدادة والخياطة والنسيج والتجارة وصناعة الأواني الخزفية . ونحن لا نعتقد
في العمل غير المنتج ، عديم المعنى ، لأنه لا قيمة له في التربية ، فضلاً عن أنه
متعب . والعمل المنتج ضرورة اجتماعية ودليل على قوة الإنسان ونشاطه وتغلبه
على الطبيعة وسيادته عليها . غير أن كل عمل منتج لا تكون له علاقة بالتربية
والتعليم مباشرة ، لا قيمة له البتة ، وغير مرغوب فيه . فيجب أن يكون هناك
ارتباط متين بين العمل والحياة المدرسية والحاجة الاجتماعية والمنطقية لوجود
ذلك العمل في المدرسة .

وكل عمل يدوى في المدرسة لا علاقة له بعمل منتج أو لا اتصال له
بمادة دراسية علمية أو خدمة اجتماعية ، يكون ضرره أكثر من نفعه . والسبب
في ذلك أن المدرسة ليست مصنعاً وحسب ، بل هي مدرسة قبل كل شيء ،
والمصنع وسيلة من الوسائل العديدة التي تبرر وجود المدرسة وتعمل على

THE
LIBRARY OF THE
MUSEUM OF NATURAL HISTORY
AND
ZOOLOGY
OF THE
CITY OF LONDON



سمو الامير راجوتز شو
 يعلم أن بلاده، صيام، في حاجة إلى المشروعات العظيمة ولذلك
 نراه في هذه الصورة يتلقى في إنجلترا دروساً في أحدث الطرق في التلفون

تحقيق أغراضها . وربما كانت العلة في فشل معظم المصانع المدرسية في تحقيق
الغايات التي أنشئت لأجلها ، أنها مقطوعة علاقه بمواد الدراسة والحاجة
الاجتماعية

وفي اعتقادنا أن المصانع المدرسية تنحصر وظيفتها في أداء ثلاثة أمور ،
أولها خدمة الحاجات المدرسية ، كأصلاح أثاث المدرسة وأجهزتها وتركيب
نوافذها وتشديد أبسط بناياتها ، وأعداد طعامها وغسيل ملابس طلبتها ، وطلائ
حوائطها ومد أسلاكها الكهربائية وغير ذلك مما سبقت الإشارة إليه
بتفصيل عند الكلام عن معهد همتن في غير هذا المكان . وثانيها التعاون على
الأتاج العام كزراعة الخضروات وفلاحة اليسانين وإدارة المصانع . وثالثها
جعل الاعمال اليدوية وسيلة للألم بمواد الدراسة أئاماً عملياً كأدخال علوم
الطبيعة والكيمياء والصحة والجغرافيا الاقتصادية في العمل في مطبخ المدرسة
وكما أن الأعمال اليدوية لاقية لها في المدرسة ما لم تكن متصلة بالمواد
الدراسية ، فكذلك لا تكون للمواد الدراسية قيمة ما لم يكن لها اتصال بالحياة
العملية . فدروس الكيمياء التي لاعلاقة لها بالهواء الذي نستنشقه والماء الذي
نشربه والطعام الذي نأكله ، والملابس التي نرتديها ، والعقاقير التي نستعملها ،
والأصباغ والمصنوعات التي تدخل في حياتنا الاجتماعية والاقتصادية —
هذه الدروس لفائدة فيها

أن الدروس العلمية ينبغي أن تتدخل في الأعمال اليدوية بكيفية تكون
الواحدة متممة للأخرى

وأذا أردنا شرح هذه العبارة الأخيرة ، فلا بأس من ذكر مثال واحد واقعي من أمثلة عديدة يمكن سردها

أنشئت أخيراً مدرسة ثانوية في أوروبا وأنشئ معها مصنع للنسيج .
وعلاوة على الدروس المعتادة التي يتلقاها الطلبة ، يكلف كل منهم بالعمل في مصنع النسيج ساعتين في اليوم ، خمسة أيام كل أسبوع ، لمدة ستة شهور ابتداء من شهر أكتوبر . وفي خلال هذه الفترة الطويلة التي يقضيها الطلبة في المصنع يطبقون الدروس النظرية تطبيقاً عملياً ، من ملاحظة دقيقة إلى رسم إلى كتابة مذكرات ، إلى اطلاع ، إلى مراجعة . فالجغرافيا تعينهم على إيجاد المواقع العالمية التي يمكن أن تصدر منها المواد الخام . والتاريخ يعينهم على درس طرق النسيج منذ فجر التاريخ إلى اليوم . والطبيعة والكيمياء والميكانيكا يسهل تطبيقها على ما يشاهدونه في المصنع من عظمة البخار ، وتعدد الألوان والأصباغ ، وكثرة الآلات وكيفية استخدامها وتطورها . ويتخذ الطلبة الرسم في عمل الصور الرمزية والحقيقية ، للعمال وملابسهم وأنديتهم وأدواتهم . أما الاقتصاد السياسي فيجدون له في المصنع مجالاً واسعاً للدرس والتطبيق . فتقسيم العمل ، والحاجة والطلب ، ومشاكل العمال ، ورؤس الأموال والأجور ، والأطفال والنساء في المصانع ، والمرض والفقر والصحة والغذاء ومئات غيرها تدرس يومياً هناك درساً عملياً ، يجعل دراسة الاقتصاد السياسي سهلة لذيدة حية ويجد الطالب للرياضة أيضاً مرتعاً خصيباً : فهناك جداول وخطوط بيانية لوزن المواد الخام ونسبتها إلى ما تؤول إليه بعد النسيج ، وعدد العقد

فى كل بوصة مربعة ، ومسائل رياضية خاصة بعرض النحاس وسمكه وطوله ونسبة الواحد للآخر ، واحصاءات دقيقة معقدة بخطوطها البيانية الدالة على حالات العمال البدنية والعقلية والأدبية ، والأمية بينهم ، وتقسيم هذه كلها بنسبة السن والذكور والاناث

ويجد فى آداب اللغة دروساً نافعة مجسمة أمام عينيه عن حياة الأسرى والعمال ، وحياة العزوبة ، والأطفال قبل السن المدرسية ، ومدرسة العمال ، وكيف يقضى العمال أوقات فراغهم الخ الخ
هذا مثال واقعى للمدرسة العملية وكيف تنشأ ؟

ومن المسائل التى تفشل المدارس فى الانتفاع بها كعمل من الأعمال المدرسية المنتجة ، الرحلات العلمية . هذه الرحلات ينظر إليها فى كثير من الأحيان كوسيلة من وسائل التسلية والاستمتاع . والمعلم الذى يقود جماعة من الطلبة إلى أما كن حرية بالرؤية ، لمجرد اللهو ، يرتكب جريمة ضد الناشئة والأنسانية . ومما يؤسف له أن نرى الطلبة يتفرجون على المصانع ومدانها ، ودور الآثار وتحفها ، ومعاهد الفنون الجميلة وصورها الفنية وتمثيلها الفريدة فى بابها ، والكنائس والمعابد والمساجد ، وغيرها من دور العلم والآثار والصناعة والتجارة ، كأنها صور سينمائية فى رواية هزلية تمر أمام العين كالبرق الخاطف ، فتبعت فى النفوس نشوة وقتية ، لاتلبث أن يطوى عليها الليل طبقة من النسيان

ولا سبيل إلى نجاح هذه الرحلات ألا يتمكن العلاقة بينها وبين المواد الدراسية التي يتلقاها الطلبة . ولا سبيل لنجاحها جميعاً ما لم تقسم إلى موضوعات ، تنطوي تحت المواد الموماً إليها . فالرحلات الاقتصادية ، غير الميكانيكية ، والرحلات الخاصة بالفنون الجميلة ، غير المتعلقة بالعلوم الطبيعية . والرحلات التي ترمي إلى توطيد المعلومات الجغرافية ، غير التي تؤيد الوقائع التاريخية . والرحلات التي تبحث في السكان وتكوينهم الاجتماعي وغناهم وفقهم ، وجاههم وبؤسهم ، غير التي تبحث في المشروعات الزراعية والصناعية

ولا سبيل إلى نجاح هذه الرحلات ما لم تنظم بكيفية تجعل العمل فيها منتجاً . وقد اتجهت عناية المربين أخيراً إلى جعل نظام الرحلات وجدول الاعمال فيها منقسماً كما يأتي : —

أولاً — أعداد الرحلات قبل القيام بها بزمن كاف ، وتوزيعها توزيعاً يناسب مقتضى الحال فيما يتعلق بالزمن والنوع ومعلومات الطلبة

ثانياً — في أثناء القيام بالرحلات ينبغي تعويد الطلبة دقة الملاحظة وتدوين المذكرات وتوجيه الأسئلة ورسم ما يستلزم رسمه وتصوير ما يمكن تصويره والاستفادة بكل الوسائل الممكنة

ثالثاً — بعد انتهاء الرحلة تكتب التقارير والملاحظات في كراسات خاصة ويناقش المعلمون الطلبة ، كل في مادته ، ويطبقون ما يدرسون على ما شاهدوا ويتضح من هذا التقسيم أن هناك عملاً يقوم به الطلبة (١) قبل الرحلة (٢) وفي أثناءها (٣) وبعدها .

وقد وضع أحد كبار رجال التعليم الوصايا العشر الآتية للقائمين بهذه الرحلات ، وهي : —

(١) تذكر أن الرحلات شرطاً هاماً من منهاج الدراسة وليست وسيلة للتسلية واللهو أو منفذاً للخروج والنزهة

(٢) ادرس المكان الذي ترحل إليه واكتب مختصراً لما رأيت وارسم له خطة

(٣) وجه عنايتك الى الهدف الخاص الذي ترمى إليه في رحلتك ولا تدع سبيلاً الى ما يليك عنه فتخطيء المرمى

(٤) اسرد على مسامع زملائك ومعلم الفرقة ما رأيته عيناك وما لم يلاحظه سواك

(٥) تجنب التفصيل في سرد مشاهداتك

(٦) لتكن مشاهداتك مدعاة للجدل والمناقشة حتى يشترك أخوانك معك في الكلام وحتى لا يبقون في أما كنهم مستمعين لا غير

(٧) لا تصدع آذان سامعيك بأسماء ووقائع تعلم أن نصيبها النسيان المحقق

(٨) لتكن الصورة التي ترسمها كلاماً وتصويراً واضحة حتى لا يبقى من

السامعين من لا يستطيع فهمها

(٩) لا يكن وصفك مملاً حتى لا يعرض عنك السامعون

(١٠) لخّص ما شاهدته في آخر كلامك حتى تثبت وقائعته في الأذهان

يرحل الطلبة عندنا الى الأهرام وأبى الهول وعند عودتهم يكون أقصى ما تقوم به المدرسة تجاه هذه الرحلة أن يكلفهم مدرس الأبناء وصفها ، فيتناول الطالب قلمه ويكتب العبارات المألوفة المسجعة التي تصلح لكل مقال ومقام « وكان النسيم ليلاً والهواء عليلًا »

ولكن أين اتصال الأهرام بالتاريخ وما علاقة أبى الهول بالجغرافيا ؟ وما الذى أعده المعلم والطلبة قبل هذه الرحلة ؟ وما المشاهدات والملاحظات والمذكرات التي دونوها ؟ وما المناقشات والموضوعات ، المملوءة بالحقائق ، التي قاموا بإنجازها بعد عودتهم ؟

قرأت بعض هذه الموضوعات التي يكتبها طلبة مدارسنا ، وقرأت للأسف بعض « النماذج » التي وضعها المعلمون لتلاميذهم في وصف بعض هذه الرحلات ، فألفيتها جوفاء خالية من المعانى ، لم يراع فيها ألا الصناعة اللفظية والتزويق الكلامي ، ويمكن أن تكتب في أى موضوع كان ، ولولا العنوان لما فهمت أذا كانت الرحلة التي تقرأ عنها ، عن القناطر الخيرية ، أو قناة السويس ، أو قصر النيل ، أو ميناء الاسكندرية

وقد نشر أحد المعلمين مرة وصفاً لرحلة إلى شبه مستشفى ، إذا حذفت عنوانه أمكنك التنبؤ عن هذه أنها زيارة الى مقبرة أو « سلخانة » أو « مصمط » الخ

أن الرحلات العلمية في عصرنا الحاضر قد أصبحت عظيمة الأهمية إلى حد يفوق التصور والوصف . والجامعات الطافية « التي تحمل الطلبة من

اميركا سنوياً للطواف حول الارض وزيارة جميع ممالك العالم ومتاحفها وأشهر
مبانيها وتمثيلها ودرس أحوال شعوبها ، أكبر دليل على ذلك . وأذا حلت
في أية مملكة في أوروبا اليوم عجت لأفواج الطلبة القادمين من شتى الممالك
الأوروبية الأخرى للقيام بالرحلات العلمية . وتدفع الحكومات الأموال
الطائلة ، وتقدم كل التسهيلات لطلبة المدارس الأجنبية . ولو كان الغرض
من هذه الرحلات الترويج عن النفوس أو العودة منها بمعلومات تحكي خفة «النسيم
الليل والهواء البليل» لوفرت الحكومات والمدارس والطلبة والمعلمون
النفقات التي يدفعونها ، والأوقات التي يقضونها ، والجهد التي يبذلونها

الفصل السادس عشر

المدارس العملية

من الغريب أن المتوحشين من بنى الإنسان ، الذين يعيشون عيشة همجية في مجاهل افريقا ، يربون بنيتهم وبناتهم تربية عملية . وهذا دليل على أن الإنسان بفطرته ينزع إلى جعل التربية — مهما انحطت — عملية ، حتى تقوم بسد حاجات الجماعة . فابن الهمجي يتعلم الطعن بالحرا ب ، واستخدام الهراوة والدرع والفأس الحجرى ، وزراعة الارض ، وقصص الطيور ، وصيد الوحوش والأسماك وذبح الحيوانات وسلخها وشيها . وتعلم المرأة بنتها في مجاهل استراليا بناء مظلة من قشر الأشجار على جناح الرياح ، وجمع القواكه الصالحة للأكل ، وعصر القصب وصنع السلال من الخيزران بعد قطعه بالصوان ، وعمل الشباك من النبات ، والخيط والقنب وغير ذلك مما تحتاج البنت إلى تعلمه

فإذا كان هذا هو المبدأ الفطرى الذى يسير عليه المتوحشون في مجاهل العالم غير المتمدين ، أفلا يجدر بمدارس هذا العصر أن تقوم بسد حاجات هذا العصر ؟ يقول الفيلسوف المربى جون ديوى ، أن نظام المعاهد العلمية في كثير من البلدان لا يتفق مع نظام المجتمع وحاجات هذا الزمن . وذلك لأن المدرسة المعاصرة ظهرت في عالم الوجود في عصر يختلف تمام الاختلاف عن عصرنا

الحاضر . فقد كانت العلة بين العلم والأنتاج . غير موجودة ، بعكس ما نراه اليوم من تمكن هذه العلة . وقد أصبحت علاقة التعليم العام بالصناعة في أميركا عظيمة جداً بعد النهضة الصناعية . وجميع المبادئ المختصة بالثقافة أنشئت في زمن كان فيه السواد الأعظم من السكان تكثرت لديه أوقات الفراغ . ولهذا يعزى التعليم النظري الذي نراه اليوم في كثير من المدارس والذي كان يصلح لتلك الطائفة من الناس التي تكثرت لديها أوقات الفراغ

وقد أصبح نظام المدارس الحديثة اليوم مطابقاً لمقتضيات الأحوال ولا نجد شرحاً لهذه النقطة أوفى من عبارة جاءت في إحدى مؤلفات ديوى مختصرها في الآتي : —

أولاً — لم يمض على العالم فترة كاليوم ، أصبح الفرد فيها مقيداً بواجب العمل وكسب الرزق وعول نفسه وأسرته

ثانياً — لم يمض على العالم فترة كاليوم ، بات خير المجموع فيها متأثراً بالفرد

ثالثاً — يتطلب عصرنا الصناعي الوقوف على الحقائق والنواميس الطبيعية وقوانين العلوم الطبيعية والاجتماعية ، والألمام بها المأمراً أدق بكثير وأوسع نطاقاً من العصور السالفة : فسككنا الحديدية وسفننا البخارية ، ومصانعنا ومزارعنا ، وأدواتنا المنزلية (التلفون واللاسلكي والنور الكهربائي والمراوح وأدوات الكي والطهي والتسخين وآلات التنظيف والكنس

وغسل الثياب والتدفئة) كلها تحتاج الألمان بمبادئ الرياضة والكيمياء والطبيعة وعلم الأحياء وغيرها، وعلاقتها بالحياة الاجتماعية

ويستنتج من هذا أن الطالب يلزمه أن يربط العلوم والمعارف التي يتلقاها في المدرسة بالحياة وحركتها ونشاطها، وبطريقة عكسية يلزمه أيضاً أن يربط حركة الحياة ونشاطها بمبادئ هذه العلوم والمعارف التي يعتمد نجاحها على هذه الرابطة. ويجب ألا يغيب عن أذهان المعلمين أن بحث هذا الكتاب لا يقصد به أن يجعل وظيفة المدرسة المباشرة أعداد الطفل إلى مهنة محدودة خاصة، بل نرمي إلى إيقاظ الرغبة فيه، وأشغال روح الغيرة في نفسه حتى يوجه عنايته وفهمه إلى أهمية عمل معين من الوجهتين العالمية والاجتماعية. ومعنى هذا القول أعداده أعداداً غير مباشرة إلى المهنة التي يوفق لها

ويشرح جون ديوى في كتابه «مدارس الغد» التربية العملية وكيف توضع خططها في المدارس الابتدائية والثانوية. وقد أشار إليها في معظم كتبه ومقالاته. يقول أن المدارس الابتدائية ينبغي أن تخصص في خلال ثلاث السنوات الأولى (الدراسة الابتدائية ثمانى سنوات في أميركا) حصّة كل يوم للأعمال اليدوية والرسم، وفي خلال خمس السنوات التي تليها حصتين كل يوم. وقد أنشئت هذه المدارس طبقاً لآراء ديوى، في أميركا، وكثير من بلدان أوروبا. وأصبح الأطفال يشتغلون في المدرسة الابتدائية بالطباعة والحداثة والنسيج والنجارة والأواني الخزفية والآلات الحديدية والكهرباء

مبتدئين بالمشاهدة والاشياء البسيطة ، ثم يتدرجون الى ما هو أصعب منها شيئاً فشيئاً

ومن أراد الاستزادة من هذا الموضوع فليرجع الى وصف ديوى لنظام مدارس جارى فى اميركا (Gary Schools) التى يشتغل فيها الطلبة بأصلاح المقاعد والموائد المدرسية ، وتركيب الأسلاك الكهربائية ، وزرع البساتين المدرسية ، وطهى الطعام وخياطة الثياب وتشديد المباني وأصلاح السيارات وقيادتها الخ . ويجد المطلع على نظام تلك المدارس العمل المنتج ممثلاً أحسن تمثيل ، مع مراعاة صوالح الطلبة وخص ميولهم ومواهبهم بنقلهم من عمل الى عمل آخر ، الى أن تظهر براعتهم ومقدرتهم فى جهة خاصة (١) ونكرر القول هنا أن دخول ميدان العمل فى تلك المهن والحرف والصناعات المدرسية ، لا يقصد به النظر اليها كدروس قائمة بذاتها فى تلك المهن ، بل لدرس العلاقة بينها وبين المجتمع : وأدراك أهميتها الاجتماعية حتى يعلم الطالب أن المدرسة مركز للنشاط الاجتماعى ، لا مكان تحفظ فيه الدروس التى لا تربطها بالحياة أو الاجتماع روابط

(١) أشرت فى مكان آخر من هذا الكتاب الى طالب كان أضحوكة بين أخوانه فى السنة الاولى الثانوية وقد قبض الله له من أدخله مدرسة صناعية تجأت فيها مواهبه وميله الى هذا النوع من العمل فأرسلته الحكومة المصرية على نفقتها الى الخارج ، وقد عاد بعد كتابة تلك السطور وتسلم وظيفة فنية يحسده عليها الكثيرون من حملة الشهادات العالية

أن الطالب الذى تسلم إليه الحقائق والمعلومات « جاهرة » ، « مطبوخة »
تموت فيه البواعث ، وتخمد في نفسه جذوة الرغبة ، وشعلة العمل والنشاط

وربما كانت أهم المدارس العملية في العالم اليوم ، في المانيا وأميركا وروسيا .
أما روسيا فمدارسها العملية مشادة على نظامها الاجتماعى وثورتها التى قلبت
نظام الحكم والعيشة رأساً على عقب . وقد ذكرنا عن مدارسها ما لا يحتاج
الى مزيد . وكذلك قد أشرنا فى أما كن كثيرة من هذا الكتاب الى المدارس
فى أميركا وألمانيا . غير أننا نريد أن نضع أمام رجال التعليم فى بلادنا صورة
مبسطة عن المدارس الحديثة فى المانيا

المدارس الحديثة فى المانيا فريدة فى بابها كما يدل عليها اسمها . ومعظمها
مجهود فردى قام به كبار رجال التعليم بغير أعانة من حكومة ألمانيا . ولا يفهم
من هذا أن الحكومة أهملت المدارس العملية ، بل الحقيقة على النقيض من
ذلك ، لأن الحكومة الألمانية أنشأت عدداً كثيراً من المدارس العملية ،
ونظمت مدارسها بعد الحرب العظمى تنظيمًا يوافق مبادئ التربية الحديثة

لنعد الآن الى مدارس المانيا الحديثة التى هى ثمرة المجهودات الفردية .
يختار أصحاب هذا النوع من المدارس بقعة نائية فى الخلاء ، خلعت عليها
الطبيعة حلة من الجمال ، وهناك يشيدون المدرسة الحديثة ، على أسس المبادئ
الفلسفية الجديدة . فالثواب والعقاب لا يكاد يكون لهما وجود فيها . وأذا لجأ المعلم
الى المكافأة أو الثواب مرة اتجه فكره الى ترقية أسى ما فى طبيعة الإنسان

وأذا لجأ إلى العقاب اتجه غرضه إلى إخضاع شوكة ما هو غير مرغوب فيه أو أدنى ما في عواطف المرء وطبيعته

في تلك المدرسة الحديثة الألمانية تتبع طريقة الحكم الذاتي أي أن التلاميذ يحكمون انفسهم بأنفسهم ، فيسنون القوانين ويحكمون من يخالفها ، حتى يخففوا من تبعات المعلمين ، وحتى يتفرغ المعلمون لما هو أهم وأعظم (١) . والتعليم في معظم هذه المدارس مشترك بين الجنسين ، ويعنى فيها بالاشغال اليدوية والألعاب الرياضية والرحلات العلمية للأماكن المجاورة والبعيدة . والدروس النظرية قليلة وعدد حصصها محصورة . ولا يخفى أن هذه المدارس تجريبية ، وبواسطتها تدرس أهم مبادئ التربية وتمحص تمحيصاً يأتي بأبهر النتائج وحتى تكون صورة هذه المدارس واضحة نذكر جدولاً للأعمال في إحدى هذه المدارس الحديثة الألمانية ، ولتكن هذه المدرسة التي أسسها المربي الكبير جوستاف فينكن في فيكرسدورف

يكر التلاميذ في منتصف الساعة الثامنة فيبدءون بالتمارين البدنية في الهواء الطلق ، بلباس النوم — إذا كان الجو ملائماً . وفي هذه الفترة يكون التلاميذ الذكور في مكان غير الذي فيه الإناث . ويشترك معهم في هذه التمرينات وسائر الواجبات المدرسية ، المعلمون والمعلمات . وفي نهاية

(١) من الأسف أن الإدارة في مدارسنا المصرية تبذل نصف الوقت في المحافظة على النظام وفي مراقبة التأخير والغياب وآداب الطلبة وفرض العقوبات عليهم وتأديبهم

الحصة الرياضية يتوجه الجميع إلى الحمامات للاغتسال بالماء الساخن أو البارد .
ثم يتناولون طعام الإفطار الأول بعد سماع لحن موسيقى . ثم تتلو ذلك
حصتان دراسيتان ، تعقبهما فترة طويلة ، تبدأ الساعة العاشرة . وفي خلال
هذه الفترة يناط بالتلاميذ تنظيف الغرف المعدة للنوم ، وحجر الاستقبال ،
وحمامات المدرسة وفنائها . وبعد ذلك يتناولون طعام الإفطار الثاني ، ثم
يتلقون الدروس إلى أن تكون الساعة الواحدة . وبعد تناول طعام الغذاء
تطلق لهم حرية النزهة أو اللعب أو المحادثة أو المطالعة إلى الساعة الثالثة . ومن
الساعة الثالثة إلى الخامسة يشغل بعضهم بالصناعات والأعمال اليدوية ،
ويتلقى الآخرون الدروس في حجر الدراسة ، ويقوم آخرون بتنظيف الغرف
ويتدرب سواهم على الموسيقى والغناء .

وفي تمام الساعة الخامسة يتناولون القهوة ثم يذاكرون دروسهم مذاكرة
مستقلة بغير مساعدة معلمهم نحو ساعة ونصف ساعة . وفي الساعة الثامنة يتناولون
العشاء . وفي نهاية العشاء يجتمع التلاميذ في ساحة واسعة لسماع خطبة وجيزة
أو توقيع على آلات الموسيقى أو نشيد جميل . وفي الساعة الثامنة ينام الأطفال
الصغار ، وبعدهم الذين هم أكبر منهم سنًا في الساعة التاسعة ألاً ربعا ، وأخيراً
ينام الكبار في الساعة العاشرة

أن هذه المدارس الألمانية الحديثة نموذج للتربية العملية ، التي تلامس
الطبقات الراقية ، وهي مثال النظافة والأتقان ، وجمال البناء ، وحسن الموقع ،

THE UNIVERSITY OF CHICAGO
LIBRARY
540 EAST 57TH STREET
CHICAGO, ILL. 60637



الطلبة في المانيا اليوم غيرهم بالامس . لقد زالت منهم روح
العسكرية وتغلغلّت في نفوسهم الروح الرياضية وشرف العمل . وأصبحت
المانيا تعتقد بوجود الأكتار من المدارس التي تتبع نظام التعليم
المشترك بين الجنسين

معدوم النظر ، والقرب ، من الطبيعة ، والطهارة الخلقية ، والقوة البدنية ،
والهدوء والسكينة ، وصفاء الجو الأدبي

وهذه المدارس تعتقد بمبدأين في التعليم جوهريين ، قد ينازعهما فيهما
بعض المعاهد القديمة . وهذان المبدآن هما (١) التعليم المشترك بين الجنسين
و (٢) الحكم الذاتي للطلبة . يضاف إلى هذين أن هذه المدارس بوثقة
للتجارب في التعليم ، مثال بعض مدارس أميركا ، كمدارس لنكولن التي
شرحنا طريقة التعليم فيها في فصل سابق

غير أن هذه المدارس الحديثة لا تخلو من عيوب ونقائص . وأهم هذه
العيوب بُعد التلاميذ عن الحياة الحقيقية ، كما يقول بعض النقاد ، وكون البيئة
التي يعيش التلاميذ فيها صناعية أى غير طبيعية ، نظراً لعزلتها وبعدها عن
السكان . ويرد أصحاب هذه المدارس على نقادها أن الرحلات العالمية ، واسعة
النطاق ، تسد هذا النقص ، وتقرب التلاميذ من الحياة الحقيقية ، ومهما وجه
من الانتقاد نحو تلك المعاهد ، فلها بلا شك من ابداع المدارس العملية في
العالم المتمددين

الفصل السابع عشر

الشعر والخيال

والحديد والكهرباء

خطب محمد علي باشا الوزير المصري الأسبق في المجمع العلمي بدمشق خطبة ضافية تقطف منها الآتي : —

« لقد صار العلم الآن آليا لا تتفجع فيه فلسفة فياسوف ولا شعر شاعر ولا نثر نثر ولا خطابة خطيب أصبح جزءاً مما تجديده المصانع ، وتخرجه دور الكيمياء ومعامل الكهرباء وهذا ما يدعوننا إلى أن نعمل على الإقلال من عدد الشعراء والنثرين حتى يكون عددهم معدوداً وحتى تتجه جهود الأمة إلى الآلات والكيمياء والكهرباء ، فهي الوسيلة الوحيدة التي نحافظون بها على شرفكم وحريةكم ودينكم

أن العلم يتجه في كل عصر إلى ما يفيد ويدفع الاضرار ، فإذا لم تتناولوا هذا النوع من العلم الذي يذوق المتافع ويبعد المساوي ، جركم تيار المدنية الحاضرة ، وكنتم أشلاء مبعثرة ، وزالت كرامتكم ، وداسكم أقدام من غموا هذا النمو من العلم ، وتمكنوا من الإنتاج واستغلال الخبرات . وقال في مكان آخر : —
.... أن المال يأتي بالعلم ، فكيف يكون العلم أذا ؟

للعلم مناح متعددة ، ولكل فرع منه سلطان في عصر من العصور . والسلطان في هذا العصر هو الحديد والكهرباء والكيمياء وأن أفصح لغة وأبلغها الآن هي صوت مطارق المعامل وأنوال المغازل وشرر الكهرباء فاجعلوا لهذا النوع من العلم ناحية من مناحي حياتكم لانه لا قوام لسكم ولا سعادة الا بالحديد والكهرباء والكيمياء

أنا أريد العلم والمجد لسكسب المال والثراء وأن يصرف هذا المال في سبيل والوطن . فيجب السعي بكل الوسائل لاقتناء المال وليكن رائدكم وقبلة أنظاركم ،

ومحبوبكم ليلاً ونهاراً ، بشرط أن تسحقوا هذا المال بأرجلكم اذا كان ثمناً لضياح
كرامة قومية أو عزة وطنية
أحبوا المال حباً جماً وأنصح لسكم أن تسعوا لاقتنائه ليكون قوتكم وذخركم على
أننى لا أريد أن تففقوه فى غير المصلحة القومية »

هذه النزعة المادية التى يدعو اليها الوزير المصرى وليدة القرن العشرين .
أننا فى حاجة الى المال لأنه من أكبر الوسائل التى بها نعيش ، طالما كنا من
أبناء الدنيا ، لا من سكان الآخرة . ونحن أحوج إلى هذه النزعة لأننا
شرقيون ، والشرقيون موصومون بالخيال والتصوف والزهد والشعر والعيش
وراء الموت ، فى غير عالمنا الحاضر . ونزعتنا العامة ينبغى أن تتجه إلى هذه
الناحية ، ومدارسنا ينبغى أن ترمى لهذا الغرض . ولا نغنى بذلك أن نكون
ماديين لا غير ، وشرهين فى تكديس المال لا غير . أن لنا تقاليد وأخلاقاً
وآداب وشرفاً وكرامة . كل هذه حرية أن تصان ، وخليفة أن تهرق فى سبيل
المحافظة عليها ، الدماء

أن لنا فى الشعر سلاوى للحزين ، ونشوة للفرح ، وبردًا وسلاماً للحبيب
وراحة لعشاق الجمال . ولكن مناحى الحياة أكبر ، وفسح العيش أوسع ، من
أن تكون وقفاً على هؤلاء لا غير ، فليس كلنا حزاني ومحبين وعشاقا ، وليس نحن
كذلك فى كل زمان ومكان .

أن مطالب الحياة يضيق بها الشعر والخيال وحدهما

*
*
*

وقد نشرنا في مجلة الهلال مقالا في هذا الصدد ، وقد رأينا أن نعيد فقرات منه هنا : —

أقصد بالأدب أوسع ما ينطوي تحت الكلمة من المعاني ، وبعبارة وجيزة أعني كل ما ليس علماً (Science) وأذا صح لنا أن نقول أن العلم مادي ، محسوس من جهة ، ويعزّز بالتجارب (experiments) في معامل فنية (laboratories) من جهة أخرى ، جاز لنا القول أن الأدب معنوي ، روحي ، لا يستند على مقاييس مضبوطة ، ولا يدخل في دائرة المعامل التجريبية الدقيقة

وبناء على هذا التقسيم يكون الشعر أدباً ، ويكون التكلم عن الصدق والأمانة والعفة والحرية والنزاهة والأحسان ، والكذب والخيانة والفسق والاستبداد والمحاباة أدباً . ويكون الكلام عن الكهرباء والسيارات والآلات البخارية والطيران والمحراث والذكاء والفرائز والفحم الأبيض وقانون العرض والطلب وخواص المواد وأشعة أكس واللاسلكي علماً ، متى كان الكلام عن هذه كلها نتيجة بحوث وتجارب عملية لقائلها ، أو نتيجة بحوث سواء وتجاربه

وقد تخرج الموضوعات الأولى ، كلها أو بعضها عن دائرة الأدب ، وتدخل في دائرة العلم متى كان الكلام عنها مبنياً على أساس علمي ، أساس التجارب العملية . كما إذا فحصت طائفة من علماء النفس والأخلاق ألوفاً من الناس في مختلف أعمارهم في مسائل واقعية ، ودونوا لنا أرقاماً واحصاءات

عن مبلغ صدقهم وكذبهم، والأعمار التي يكثر فيها الكذب، والأعمار التي يقل فيها، والطبقات الاجتماعية التي تكون أكثر ميلاً للصدق من سواها، وتحديد الصدق تحديداً يمكن اتخاذه مقياساً عاماً، بعد استفتاء عدد كبير ممن يعول عليهم، في مسائل واقعية تحتل الصدق والكذب

وقد تخرج الموضوعات الثانية عن دائرة العلم وتدخل في دائرة الأدب - وليس سمح لي القارئ أن أطلق عليه اسم الأدب الشرقي أو المصري. مثال ذلك إذا كتب كاتب عن اللاسلكي يقول أنه معجزة القرن العشرين، وأعجوبة من عجائب الزمن، ودرة في جبين الدهر، وما إلى ذلك من الصفات والألفاظ والعبارات التي لا تحوى معنى جديداً عن اللاسلكي، ولا تحمل للقارئ شيئاً عن ماهية اللاسلكي وتاريخه أو منافعه أو نتيجة بحث علمي عملي، قام هو أو سواه به، فإن هذا الكلام لا يمكن أن يسمى علماً

أن موضوعات الأَنْشاء في مدارسنا، أماخيلية، « فلسفية » عنواناً، أو حسية عنواناً، ومعنوية موضوعاً. أعني أنها في كلتا الحالتين لا تشمل حقائق ومعارف. كذلك كتب المطالعة. كذلك طائفة كبيرة مما نكتبه يومياً في الصحف والمجلات. اقرأ عناوين الموضوعات الأَنْشائية التي تعطى للطلبة في أوروبا وأميركا: - الكيمياء في الصناعة. الكيمياء في الزراعة. كيف يولع الأطفال بالطيور الداجنة وكيف يربونها؟ تحسين النسل في الحيوان وفي الإنسان: معنى المدنية. الفنون الجميلة في أثاث المنازل. تطور فن العمار فيما يناسب وسائل الراحة الخ

وهذه كما يرى القارىء متصلة بالحياة اليومية ، وما يكتب فيها أيضاً متصل بالحياة اليومية

غير أن جوهر الموضوعات في مدارسنا تحليق في جو الخيال ، في عالم لا تعيش فيه الأمفردات لسان العرب وألفاظ محيط المحيط

أننا أحوج إلى العلم والصناعة منا إلى « الأدب » . وربما يدهش القراء إذا علموا أن الأدب الصحيح قد كثر في أوروبا وأميركا اليوم ، ورغم كونه أدباً صحيحاً في مجموعته فإن تلك الممالك الأوروبية والأميركية لا ترحب به ترحيبها بالعلم . فأساتذة الكيمياء والنبات والحيوان والطبيعة وسائر « العلوم » لا يكفون حاجة المدارس والكليات ، وذلك لأن جميع المصانع والمصالح تحتاج اليهم ، بعكس زملائهم المشتغلين بالأدب

وقد كان أحد أساتذة الكيمياء يعمل في أحد معاهد القاهرة الكبرى منذ عامين ، ولما أن عاد إلى بلاده التحق بمعمل الكيمياء في مصنع سكر بمرتب يعادل مرتب الوزير المصري . وهذا التطور العظيم ناتج عن استخدام العلم استخداماً عملياً في الحياة ، بدلا من استخدام الأدب في بلادنا لأغراض خيالية غير عملية

ولاشك أن الفاصل بين العلم والأدب ليس واضحاً وضوحاً تاماً يمكن القارىء من أن يقول هذا علم وهذا أدب ، لأن الواحد متدخل في الآخر في كثير من الأحوال . فالعلم أدب من بعض الوجوه والأدب علم من بعض الوجوه . وكما أن العلم في حاجة إلى أدب يحمل رسالته إلى القراء من جميع طبقات الناس

حتى يستطيعوا الاتفاف به في حياتهم وأعمالهم اليومية كذلك الأدب يحتاج للعلم حتى تكون عباراته مؤيدة معززة مستندة على عمد فولاذية متينة من الحقائق الواقعية ، والآراء الواقعية التي فحست فحساً ، وخرجت من بوتقة التجارب ناضجة ، ووزنت في الموازين الفنية فوجدت كاملة

بهذه المقدمة أردت أن أهد للقارىء الأسباب التي حدثت بي ألى أن أجعل العنوان السالف موضوعاً لمقالى : يسوءنى أن أعتقد واصرح أن معظم حياتنا العلمية والتفكيرية مشبعة بالأدب ، الذى أسميه الأدب الشرقى ، وأن هذا النوع من الأدب خلوفى الغالب من النزعة العلمية ، معدوم من الروح العلمى أجوف ، كثير الزهر ، عديم الثمر ، سطحى ، فقير المعنى ، منمق خارجه ، فارغ داخله .

وربما كان نوع التربية التى نشأنا عليها فى مدارسنا سبب بلائنا بهذا الضرب من الأدب : فعلم الانشاء فى معاهدنا فى عزلة عن العالم الخارجى ، بل عن المعهد الذى هو فيه . فالطالب الذى يتعلم الكهرومغناطيسية ، والتاريخ ، وعلم الصحة : والاقتصاد السياسى ، وعلم سياسة الدول ، لا يستمد منها آراء فى كتابة الأشاء . لأن معلمه فى الغالب يعد التكلم فى هذه الموضوعات خروجاً عن دائرة الأشاء ، لأن الأشاء فى نظره لا تتجاوز حدود « الأدب » وكأن هذا المعلم يريد تلاميذه أن « يفكروا فى فراغ » كما يقول الفيلسوف

ديوى

ومن الغريب أن الطلبة أيضاً لا يحاولون التعبير عن آرائهم في غير حصة
الإنشاء بلغة سليمة ، ظناً أن مثل هذه اللغة خلقت للإنشاء ، لأنهم اعتادوا
أن يشاهدوا معلم الإنشاء يعنى بزخرف اللفظ ونزويق الكلام دون المعنى .
فهم معذورون إذا نظروا إلى الكتابة نظرة مجردة عن العلم ، وقراء الصحف
والمجلات معذورون إذا كان همهم منصرفاً إلى بلاغة الكاتب ، وجلال الفاظه
وضخامة مفرداته ، وجمال عباراته ، وحلاوتها وانسجامها ، وقوافيها ، ومحسناتها
البديعة واستعاراتها ومجازاتها : بغض النظر عن آراء صاحبها ، وطريقته العلمية
في التفكير

اننى لا أعيب جمال الكتابة وبلاغة التعبير وحلاوة اللفظ ، ولكننى
أعيب انصرافنا إلى هذا النوع من الأدب ، وبقاءنا نخلق في سماء الخيال
أجيالاً طوالاً ، وبعدها عن عالم الحقيقة ، عالم الحياة والعمل . أن الشعر بديع
جميل ، كذلك الصور والتماثيل جميلة ، كذلك الموسيقى والرقص والغناء والطرب ،
كذلك التفكير في الروحيات والأبدية والعالم الآخر . ولكن ، إذا وجهنا
كل همنا إلى هذه كلها وصرفنا كل جهدنا ، وتجاهلنا الحركة العلمية والعملية
حولنا ، قضينا العمر في عالم الخيال بدلاً من عالم الحقيقة ، وعشنا في الآخرة
بعقولنا وأرواحنا ، وإن كنا في الدنيا بأجسامنا

وربما كانت أكبر الفروق بين الكتابة في الشرق والكتابة في الغرب أن
الغربيين ينظرون إلى اللغة كوسيلة توصل إلى غاية أى لغة نقل ، تحمل المعانى

على جناح الكلمات ، أما نحن الشرقيين فننظر إليها كفاية في ذاتها . الغربيون يعدون اللغة مطية تحمل اختبارات الماضي ، إلى المستقبل ، وعلوم السلف إلى الخلف ، وتنقل عجائب العلم والصناعة إلى اجسامنا ، ومنازلنا وشوارعنا ، وأنديتنا ومدارسنا ، وسائر مظاهر الحياة بيننا . أما نحن الشرقيين فتتخذ اللغة شعراً تتغنى به مدحاً وقدحاً ومداينة ومجاملة ، وترنحاً وطرباً ، وخيالا نسمو به في عوالم غير العالم الذي نعيش فيه ، ونرتق منه

ومن الغريب أن الغرب والشرق كليهما قد ابتليا بالمبالغة والتطرف في ناحية من النواحي ، فبينما نجد الغرب اليوم يعبد الآلات والصناعات ويسجد للسيارات والبخار والكهرباء ، ويقدم الذبائح والضحايا للمصانع وعوامل المادية materialism والنفعية utilitarianism ، نجد الشرق مكباً على عبادة آلهته القديمة « الادب » وما يتبعها من التعاويذ والتأمل و.....

سافر المغفور له السلطان حسين كامل على يخته إلى الصعيد في آخر عهده وعند ما أقبلت الوفود لزيارته في إحدى المديريات تقدم إليه أحدهم بقصيدة ألقاها في حضرته ، جاء في مطلع أحد أبياتها ، أنت البدر ، فما كاد يأتي على آخرها حتى نظر السلطان إلى الحاضرين قائلاً : كذب وتفاق . هؤلاء الشعراء يقولون ما يطابق الاوزان ، لا ما يطابق مقتضيات الأحوال . ولعل هذا القول أبلغ ما كان يمكن أن يقال في ذلك الظرف الخاص . ولست أنكر أن مثل هذا الكلام ينطبق على كثير من الشعر العربي أيضاً

غير أنى أريد أن أذكر القارىء مرة أخرى أن العلة ليست فى الشعر أو فى الأدب الشرقى ، إنما العلة فى الأكتاف منها ، وملء اعمدة الجرائد والمجلات والكتب بها ، مع خلوها من غزير المعنى . أو احتوائها على النزر اليسير منه

لا يكفى أن يكون التمثال جميلاً ، ولا يكفى أن يخرج أزميل المثال آية فى الحسن والاتقان ، ولا يكفى أن تخرج ريشة المصور صورة ترمى بجمال الطبيعة ومثلها الأعلى ، بل يجب فوق ذلك أن يحمل التمثال رمزاً ومعنى ، وأن تشمل الصورة مغزى ودرساً

ألم يمثل رفائيل ، ودافنتشى ، وميشيل انجلو ، وفاندايك ، فى صورهم وتمائيلهم فضائل وآراء ومبادئ تطابق مقتضى الحال فى العصور التى عاشوا فيها ؟ ألم ينفخ المثلون والفنيون فى أزمان قدماء المصريين والاعريق والرومان روح بلادهم ومعتقدات أهلها فيما تركوا من اللوحات الخالدة والأحجار الناطقة ؟ ألا يكاد تمثل مختار فى ميدان باب الحديد فى القاهرة ينطق بالغرض من نصبه ، ويفيض معنى بعنوان النهضة المصرية ؟

كذلك الشعر يجب أن تحمل ألفاظه العذبة ، ومفرداته المسبوكة ، وكلماته المنمقة ، الموساة بالذهب على أستار الحرير ، جميل المعانى ، التى تنفق مع اللفظ روعة وجلالاً

انظر إلى الفلسفة العميقة التى تتجلى فى قصيدة أبى العلاء المعرى حيث يقول :-
صاح هذى قبورنا تملأ الربح فأين القبور من عهد عاد

خفف الوطء ما أظن أديم الأر ض إلا من هذه الاجساد
 وقبيح بنا وأن قدم العهد هوان الآباء والأجداد
 سر أن اسطعت في الهواء رويداً لا اختيلاً على رفات العباد
 رب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحك من تراحم الأضداد
 قرأت وحفظت هذه القصيدة كغيرها، ولم أسمع من المعلم غير تغنييه
 بالفاظها، غير أنني لم أدرك معانيها حتى درست فلسفة سبنوزا، ذلك العالم
 الذي عاش في القرن السابع عشر (١٦٣٢ — ١٦٧٧) وجئت عند قوله إن
 الحبة تقع على الارض فتنبت عوداً، وينبت العود سنبله، وتحمل السنبله قحاً
 وهذا يحصد ويطحن ويخبز خبزاً. ثم يتحول الخبز في جسم الرجل دماً.
 والدم يستحيل نطفة منوية، وهذه تنمو في رحم المرأة جنيناً. والجنين يولد
 طفلاً، وهذا يشب غلاماً فشاباً فكهلاً فشيخاً. ثم يموت ويدفن، وتستحيل
 رفاته تراباً، يختلط بالتربة، والتربة تغذى الحبة والحبة تنبت عوداً والعود
 سنبله وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية له. فكأن الفيلسوف سبنوزا يقول إن
 الحياة تسير على نظام دائري حلقى، والا نسان من التراب وإلى التراب يعود
 كذلك يقول أبو العلاء المعري، وقد عاش قبل سبنوزا بسبعة أجيال (٩٧٣ —
 ١٠٥٨) مالا يختلف معنى عما قاله سبنوزا، الفيلسوف الهولاندى

ولست أريد بهذا أن يكون جميع الشعراء فلاسفة، ولكنى أريد أن يكون
 الشعر ذا معنى، وأن يشتغل الشعراء بموضوعات اجتماعية حيوية ولا يقتصرون
 على الوصف والمديح. أريد أيضاً أن يخفف الشرقيون من وطأة الشعر

ويوجهون ميولهم إلى ناحية أخرى من النواحي التي تنقصنا
إن كثيراً من الشعر « والأدب » الذي نقرأه ونكتبه من قبيل الشعر
الذي كان يقال في بعض العصور السالفة ، وكانت نتيجته « فأعطاه ألف
دينار »

هلم معي نقرأ عدداً من الصحف والمجلات الأوربية ، وأرني عدد
القصائد التي تنشر فيها في شهر واحد مثلاً . سل أصحاب الصحف والمجلات
الشرقية عن عدد القصائد التي ترد إليهم فيكون نصيبها سلال المهملات ،
وسلمهم عن موضوعاتها والأفكار التي يدونونها . لست أنكر أن الحالة أفضل
مما كانت منذ بضع سنوات ، حينما كنا نقرأ عدة قصائد من نظم صرافي
الخفر مدحاً في معاووفى البوليس . غير أنني لا أزال أعتقد ، ويشاركني في
الاعتقاد كثيرون ، أن شعرنا أكثر مما يجب ، وأن معانيه ضئيلة أو معدومة
ومن المتفق عليه أن اللفظ يسمو زخرفة ويزداد تنمقاً كلما تدهور
المعنى وتقلص ظل العلم Science . وقد قال الفيلسوف سيكون في مقالته عن
ملتون : « الشعر كالفانوس السحري ، لا يزهو إلا في غرفة مظلمة ، فكما
أن الصور التي يعكسها الفانوس السحري ، لا تظهر إلا في غرفة سوداء كذلك
الشعر والأدب لا ينجحان إلا في العصور المظلمة »

وأذا رجعنا إلى النهضة العربية ، وجدنا أن العرب كانوا يعنون بنقل
علوم الاغريق دون آدابهم ، وكانوا فوق ذلك يضعونها في بوتقة التجارب
فيخرجونها متقنة كاملة ، ثم ينشرونها على الملأ . ويقول كاتب انجليزى

حديث أن علوم العرب التجريبية أصل النهضة الأوروبية ، وأضاف إلى ذلك أن الأدب الأغريقى فى ذلك العصر ، كالفلسفة والمنطق كان يعمل على تدهور الحضارة الأوروبية فى الوقت الذى كانت فيه «علوم» العرب تعمل على تقدمها وقد قال بيبكون منذ أكثر من سبعة قرون أنى لو خيرت ، لألقيت المؤلفات التى وضعها أرسطو ، طعمة للنار ، لأن درسها لا يؤدى إلا إلى ضياع الوقت ولا ينتج غير الجهل

ويقول الكثيرون من علماء التربية اليوم ما يشبه هذا القول فى معظم نظريات الجبر والمهندسة والمنطق والفلسفة القديمة والفلسفة المعول عليها اليوم هى الفلسفة العملية أو pragmatic philosophy ولا أدرى ماذا يقولون عن الأدب الشرقى وقد أذى ولع الشرقيين «بالأدب» إلى قضاء قسط وافر من العمر أحياناً فى درس الألفاظ واشتقاقها والرجوع إلى أصولها ، فقد حكى لى أستاذ فاضل أن أول عهده بدرس النحو كان صدمة شديدة على نفسه ، فقد قضى ستة شهور يصغى إلى معلم كان يشرح عبارة واحدة لا تتغير ، تلخص فى أن «ذو» أصلها «ذَوَوٌ» . وقال أنه كان يغلب عليه النعاس ثم يقيق فيسمع العبارة تفرع أذنيه وهى «ذو» أصلها «ذَوَوٌ» . وهكذا مضت عليه شهور ، كان يستيقظ فى خلالها ليلاً ، مهرولاً من فراشه ، وصدى صوت معلمه يزعجه فى حلم «ذو» أصلها «ذَوَوٌ»

ومما يدل على تأثرنا «بالادب» وتسلط الادب علينا أن أحد سراتنا الافاضل ، الذى له فى كل مشروع خيرى يد بيضاء ، تبرع بأنشاء مدرسة

للبنات وأوقف لها عدداً من الفدادين ، ينفق من ريعها على هذه المدرسة ، واشترط أن تمنح جوائز مالية كبيرة للفتيات اللاتي ينبغن في الشعر بها . ومع احترامى للسرى الكبير ، كنت أودّ لو جعل شرط الوقف مقترناً بتعليم فن الطهى أو التطريز أو صناعة الفساتين أو العناية بالطفل أو فن التغذية diatetics أو الألعاب السويدية أو الكهرباء المنزلية أو غيرها من الأشياء العملية التي تحتاج إليها الفتاة المصرية ، بدلا من الشعر ، وكلنا شعراء و « أدباء » وقد ذكرتني هذه المسألة ببعض الأميركيين الذين يحجمون عن إرسال بنهم وبناتهم إلى مدارس الحكومة الابتدائية والثانوية ، والتعلم فيها بغير مصروفات ، ثم ينشئون مدارس خاصة يتعلم فيها أولادهم وأولاد على شاكلتهم ، ويكون الغرض الوحيد من إنشاء هذه المدارس إدخال الرقص الارلندى ، أو الغناء الريفى ، أو غيرها من الأشياء التي لا تدخل ضمن مناهج مدارس الحكومة

وقد وقع نظرى من عهد قريب على بطاقة كتب عليها صاحبها ما يأتى تحت الاسم :

« كاتب وشاعر وصحفى وأديب ومؤلف وطالب علم »

ولا بد أن يكون صاحب هذه البطاقة شاذاً ، غيباً ، غير أن هذه الالقباب التي استباحها أو استحلها لنفسه ، دليل على ما يدور فى ذهنه من أحلام اليقظة ، فهو يرغب فى أن يكون كذلك ، لأن هذا فى نظره نهاية النجاح فى الحياة . وهو دليل على تأثر عقليتنا بما نسميه الأدب

وقيل أنه في أول عهد معهد من المعاهد بمادة الحساب ، وزع على الطلبة مؤلف في هذه المادة الدراسية على أمل أن يقفوا على أهم عملياتها . وفي آخر العام المدرسي توجه المفتش إلى المعهد حتى يشاهد النتيجة . ولم يكديلم بالحقيقة حتى خيب المعلم والطلبة رجاءه لأنه وجد العام كله قد قضى في اعراب تعريف الحساب — الحساب هو علم الاعداد . « ال » للتعريف ، وقد تكون « ال » للجنس ، وهكذا مر العام بين اعراب الجملة المتقدمة ، ودرس مشتقاتها وأرجاع الكلمات إلى أصولها ، وضمير الشأن والمبتدأ والخبر الخ . الخ .

ولا يضحك القارئ كثيراً لهذه الاحدوثة ، فان النزعة غير العلمية ، لا تزال قائمة في مصر ، وأن ما يشاهد يومياً لا يبعد عن هذه الحكاية كثيراً ، وما موضوعات الطلبة وما رد فيها من الفقايع والألفاظ الجوفاء والبعد عن المعنى والحقيقة والواقع الملموس ، ألا ضرب من الأعراب بادى الذكر في درس مادة الحساب

ومما يؤسف له أن الفقر في التفكير العلمي ، والنزعة العلمية ، قد تناول حتى طلاب العلم ، كما يتضح من الفقرات التي سبقت . وقد سمعت من أحد كبار المربين ، وهو ناظر مدرسة عالية اليوم ، أنه كان معلماً للعلوم في إحدى المدارس . وكان الدرس الأول وكسجين . وبعد أن تعب في تحضير عدة زجاجات من الأوكسجين ، وقام بتجارب عدة لأثبت خواصه وطبيعته ، أعطى طلبته فرصة لتوجيه الأسئلة إليه . فكان أول سؤال ، ينبىء عن البعد عن الروح

العلمية والنزوع للخيال والشعر والأدب والروحيات ، فقد كان منطوق هذا السؤال كالآتي : —

الأوكسجين يا أستاذ ، طاهر أم نجس ؟

أن نوع الأدب الذي لازلنا نتمسك به قديم جداً ، ولم يدخل عليه تغيير أو تعديل أو تحسين ، ولم يتأثر بالعلوم الحديثة ، والاستكشافات والمخترعات ، ولم يتمش مع الرقي والحضارة . ولا بد أن نعلم أن أحدث المخترعين اليوم يعد قديماً ، وأحدث المشتغلين بالعلم يفوقهم سواهم في كل ساعة من ساعات الحياة . فالعالم الشهير اديسون يعد في الكهرباء ، « مودة قديمة » . في حين أن المنطق الذي وضعه الأغريق منذ ألفي سنة ، يعد حديثاً ، لانه أحدث ما وصل إلى معارفنا إلى اليوم ، ولأنه بقي جامداً لم يزد عليه حرف واحد ، وكذلك الهندسة ونظرياتها

والطريق الوحيد الذي يوصلنا إلى أن نجعل أدبنا حديثاً ، مصبوغاً بالصبغة العلمية ، مطبوعاً بالطابع العلمي ، هو أن نبدأ بأبنائنا وبناتنا في معاهدنا فنغير كتب الأنشاء وكتب المطالعة التي لا تعنى إلا بالألفاظ ، ولا تنقل إلى أذهان الطلبة إلا الحقائق والمعلومات العلمية التي تقتق أذهانهم ، وتحجبهم في العلم . أن الفريين يحبون العلم لدرجة الجنون كما نولع نحن بالأدب لدرجة الجنون . عرفت طالباً منذ أربع سنوات من هؤلاء « المجانين » كان يقضي الليالي في اميركا في الغابات يتبع طائراً درس عنه في علم الحيوان ، وأراد أن

يضع حياته شريطاً للصور المتحركة ، لأن كتب الحيوان لم تذكر عن حياته إلا النزر اليسير

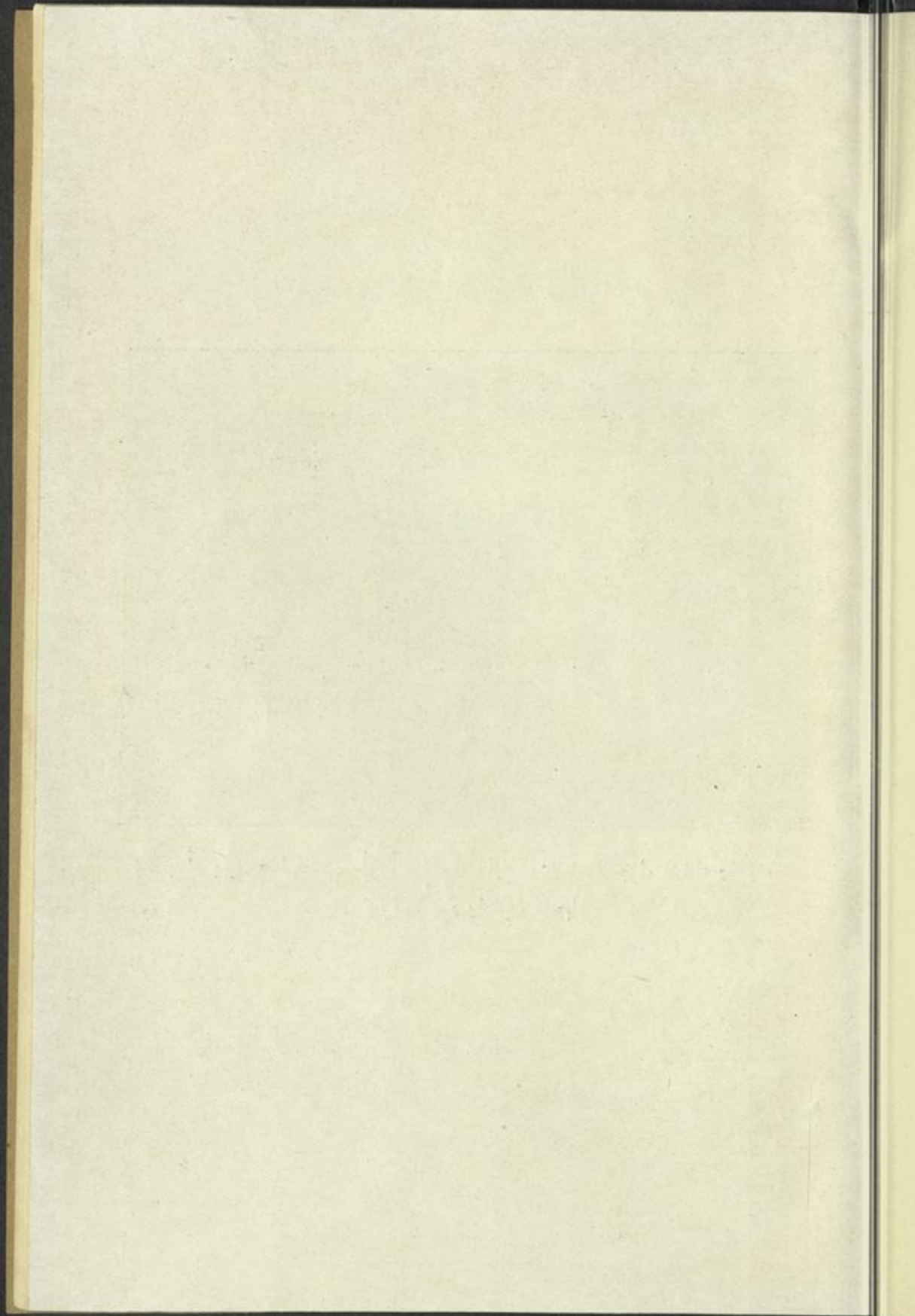
يوجد في القاهرة اليوم أحد المشتغلين بالعلم من بعثة روكفلر . ولهذا العالم حكاية واقعية طريفة . منذ عامين كان قد استكشف جرثومة لمرض معروف في بلاد الصين ، فوضع أربعاً من هذه الجراثيم في زجاجة صغيرة في سائل تعيش فيه ، وعاد إلى اميركا عن طريق سان فرانسيسكو . ولما قتشه عامل الجمر ك رفض أن يسمح له بادخال الجراثيم بغير إذن مصلحة الصحة . تخاف صاحبنا أن يترك معبوداته ، الجراثيم ، في الجمر ك ، حتى تتم الاجراءات وخطرت على باله فكرة ، عمد إلى تنفيذها في الحال ، وهي أنه شرب محتويات الزجاجة وسافر في الحال إلى جامعة جونز هوبكنز ، وهناك في كليتها الطبية استخرج من معدته ، الجراثيم ، وقد بلغ عددها بعد التوالد في معدته في فترة السفر ، نحو الستمائة

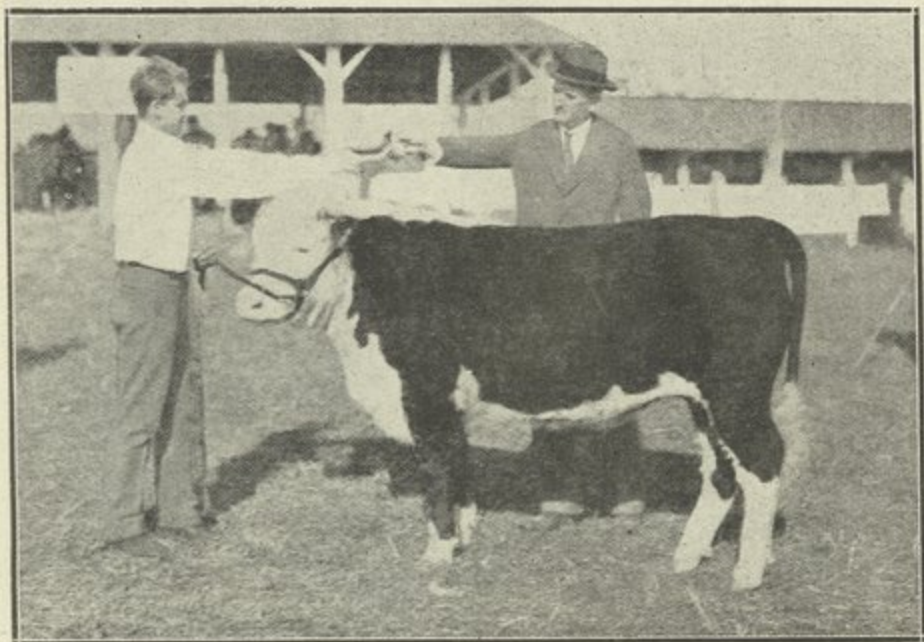
لا أريد أن يكون جميعنا علماء من هذا الطراز ، من الدرجة الأولى ، بل جل ما أريد أن نقتل من « الأدب » ونكثر من العلم ، حتى نتعلم على الأقل التفكير العاقل والمناقشة العلمية ، وحتى تكون كتاباتنا غنية في معانيها لا فقيرة فيها مزر كشة بالفاظها وعباراتها

وإنني أختم كلمتي بعبارة سمعتها مرة من مفكر شرقي كبير أذكرها هنا بهذه المناسبة ، تفكهة للقراء ، وهي :

« إنك إذا طالعت صفحة من كتاب انجليزى ، كسبت صفحة كاملة

من الآراء ، وإذا طالعت صفحة من كتاب فرنسي ، تكسب نصف صفحة
من الآراء ، وإذا طالعت صفحة من كتاب عربي ، لم تكسب شيئاً ،
من المعقول أن هذا القول مبالغ فيه ، وأنه من العبث أن نقبله على
علاته ، ولكن يؤلنا جميعاً أن نعتز بالواقع ، وهو أن في هذه العبارة
جزءاً من الحقيقة كبيراً ...





ولا بد أن يكون هذا الطالب خجولاً بوسام الجدارة الذي منح له جزاء نشاطه وقدرته
على تربية الأبقار وتحسين نتائجها

الفصل الثامن عشر

المدرسة خادمة الأمة

المدرسة التي فيها « تتعلم لنعيش » خادمة الأمة ، أو المجتمع ، أو على الأقل الأقليم الذي تنشأ فيه . وسبب ذلك أن الطلبة لا يستطيعون أن يتعلموا ليعيشوا ، ما لم يؤدوا شطراً من الأعمال المنتجة التي تحتاج إليها الأمة أو الجماعة أو الأقليم . ومن هذا نعلم أن فائدة المدرسة من هذه الوجهة مزدوجة . فهي تعلمنا كيف نعيش ، أولاً ، ونخدم الأمة خدمة مباشرة ، بالأعمال المنتجة التي تؤديها ، ثانياً

وليتصور القارئ تلك القوة الهائلة ، الكامنة في جيوش الأطفال في المدارس والطلبة في معاهد العلم ، وما تقوم به من الأعمال النافعة ، إذا ما اتجهت تلك القوة إلى عمل منتج ، تستفيد منه الجماعة ، ويستفيد منه الطلبة في آن واحد

ولنضع أمام عيوننا أمثلة لهذه الأعمال التي يؤديها الطلبة في كثير من مدارس أوروبا وأميركا ، وبعض مدارس آسيا الحديثة في الهند واليابان وجزائر القليلين . وهذه الأعمال بمثابة منهاج موضوع مقسم إلى أقسام شتى ، شأن منهاج النظرى في تلك المدارس : —

أعمال اقتصادية

زراعة الأرض ، استعمال الآلات الزراعية البسيطة ، تحسين حالة الماشية ونسلها ، تربية الطيور ، العناية بالغابات ، إبادة الأعشاب الضارة ، تنقية الحنطة ، انتخاب أجود أنواع الحنطة وخزنها وبيعها للمزارعين ، غرس الأشجار ، وزرع الخضر وبيعها للسكان ، محاربة الوحوش التي تقتك بالماشية ، والحشرات التي تضر بالمزروعات ، ككهربة القرى وإعانة فقراء السكان على إدخال النور الكهربائي في منازلهم ، وتشجيعهم على استخدام الكهرباء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا

أعمال اجتماعية عامة

وضع الإعلانات الجذابة ، والرسوم والصور الرمزية ، والمناشير الدورية وغير الدورية ، والمقالات المؤثرة ، لمحاربة الخرافات السائدة ، والقضاء على الأباطيل والخزعبلات والتعصب والتحيز ، والعناية بالأطفال الذين لا مأوى لهم ، ومقاتلة الأمية^(١) من بين الصغار والكبار على السواء ، مساعدة الجمعيات الخيرية في توزيع إعلاناتها ، ونشر دعايتها ، وتعليم الفقراء ما هم في حاجة إليه ، في منازلهم كالقراءة ومبادئ الصحة والعناية بالطفل ، وتشجيع العمال

(١) راجع ما كتبناه عن التربية والاخلاق وعن التجربة التي قام بها بعض الطلبة في مصر في الحصص المقررة للاخلاق وهي تعليم الخدم النوبيين والمصريين القراءة والكتابة

والصناع والقراء على التمرينات البدنية كعقد مسابقات رياضية لهم وتعليمهم لعب كرة القدم وكرة السلة الخ ، وتوزيع الكتب على السكان لمطالعتها وردّها ، وإعداد ضروب التسلية في الأعياد العامة ، لمن لا تمكنهم حالتهم المالية من حضور الملاهي العامة ، وقطع شذرات وأعمدة من الجرائد وإصاقها على حائط في مكان معروف في القرية ، حتى يطلع الفقراء على أهم ما يرد بها من الاخبار

أعمال صميمة

نشر الدعاية الصحية ، بتوزيع المنشير والكتب الخاصة بالعناية بالصحة ، واتقاء شر الأمراض كثيرة الانتشار ، كالحصبة والرمد والملاريا وسائر الحميات ، وإبادة الحشرات التي تعيش في الفراش والأثاث ، وقتل الطفيليات وزيارة المنازل وتعليم سكانها ، وإرشادهم إلى المستشفيات والمستوصفات والعيادات المجانية وإبادة الذباب والبعوض والصراصير ومساعدة أولى الأمر على المحافظة على نظافة الشوارع وجمع الحشائش النافعة لاستخراج العقاقير منها ، ومنع المغالاة في تعاطي المسكرات

أعمال خاصة بالمشروعات العامة

حماية الحدائق العامة وأماكن النزهة والقناطر والجسور وطرق المواصلات والشوارع والطرق من كل ما يعطل الغاية التي أوجدت لأجلها . والمحافظة على نظافة العيون المائية والآبار ، وحماية عمد التلفون والتلفون الخ .

مساعدة القائمين باحصاء المرافق الصناعية والاقتصادية والاجتماعية ، وتعداد السكان

مساعرات فردية

إيصال المعلومات النافعة إلى الأفراد ، وإسداء النصيحة إليهم ، وقراءة الخطابات وكتابتها للأمين ، وكتابة العرائض ، وإعانة الأرامل والأيتام بكل وسيلة مستطاعة

ولعل أول انتقاد يوجه إلى تحويل المدرسة إلى مركز قيادة اجتماعية ، أن الطلبة لا حول لهم ولا قوة على النزول في ميادين هذه الأعمال ، وأن تشجيعهم على هذه المسائل ، يقضى على أوقاتهم الثمينة ، ويضيع عليهم فرص الدراسة والتعليم . وهذا الاعتراض وجيه في نفسه لأن تحقيق المبادئ آتفة الذكر ليس بالامر الهين

غير أن المسألة أهون مما يظن المطلع على هذه الأعمال لأول وهلة ، لأن خدمة الوطن تتطلب جزءاً يسيراً من أوقاتنا ، فإذا بدأنا في تلقين الصغار منذ نعومة أظفارهم مبادئ الخدمة العامة ، وواجباتنا نحو بلادنا ونحو الآخرين ، نشأوا على هذه الفضيلة ، وشبوا رجالاً نافعين . ومن المفروض على كل طالب توضيحية بضع دقائق يومياً ، لهذا العمل . وفي بلاد كاميركا يبلغ عدد طلبتها

ثلاثين مليوناً، تبلغ الخدم التي تؤدي بوساطة هذا الجيش العرمرم ما لا يخطر ببال أحد.

يضرب العمال في إنجلترا فيقوم طلبة الجامعات هناك بقيادة قطرات الترام والسكك الحديدية. ويضرب رجال الشرطة في أميركا فيؤدي الطلبة أعمالهم إلى أن يستأنف رجال الشرطة القيام بوظائفهم. وفي كثير من الممالك يقوم طلبة المعاهد بالمحافظة على نظافة الشوارع فيرشدون رجال الحفظ إلى من يلقى جريدة أو ورقة أو غير ذلك. ونحن في مدارسنا المصرية لا نستطيع أن ننظم من تلاميذنا جماعة تحافظ على نظافة المدرسة التي ينتمون إليها وتمنع من يحاول ألقاء الأوراق وقشور البرتقال والفول السوداني والأوراق المفضضة التي تحفظ فيها الشكولاته والملمن. ولا أعرف لهذه العيوب استثناء في مدارسنا إلا في مدرسة رياض الأطفال التي تديرها وزارة المعارف في حي قصر الدبارة بالقاهرة.

ولما أن أقدمت ولايات أميركا المتحدة على تحريم الخمر وسن قانون منع المسكرات ، استعانت بطلبة المدارس بطريقتين ، إحداها نظرية والأخرى عملية . أما الأولى فتتخصص في إدخال الموضوع ضمن مناهجها فلم تترك فرصة في دروس الطبيعة ، والكيمياء ، والتربية الوطنية ، وعلم وظائف أعضاء الإنسان ، والصحة ، والتاريخ الطبيعي والأخلاق ، إلا استخدمت في النقر على أوتار الموضوع

أما الثانية فتتخصص في توجيه قوة الطلبة إلى نشر الدعاية وبث الدعوى

وإعانة القامنين بالأمر على تنفيذ القانون الذى نحن فى صددده . وإذا كان هناك بين سكان اميركا من لا يعتقدون بصحة مبدأ التحريم ، فان الطبقة الحديثة من طلاب المدارس من أكبر أنصاره وأقوى أعوانه

وفى بلادنا المصرية أماننا مشاكل اجتماعية واقتصادية كبيرة ولا تتيقظ لها ، ولا يخطر ببالنا أن نعالجها العلاج الذى لجأت إليه اميركا فى تحريم الخمر أماننا احصاءات سنوية عن المخدرات وعدد ضحاياها وتوزيعهم بنسبة صناعاتهم وأعمارهم . أماننا ضحايا البلهارسيا والانكلستوما . أماننا ضحايا الرمد ، والمدرسة من أكبر العوامل التى تستطيع أن تستأصل شأفة هذه الأمراض ، أو تخفف وطأتها على الأقل : تدل احصائية مصلحة الصحة العمومية لسنة ١٩٢٩ على أن نسبة العمى فى مصر أكبر نسبة فى العالم أى أن بلادنا فى الصف الأمامى من بلاد العالم فى هذه المحنة القومية . أفلا نستطيع أن نبث الدعوة ضدها ونشهر عليها حرباً شعواء لحلها بوساطة جيوش الطلبة ؟

أماننا الماشية والطيور الداجنة يقل عددها تدريجياً ويضعف نسلها ويهبط مستوى تاجها ، أفلا نستطيع أن نستعين بتلاميذ المدارس الالزامية فى القرى ؟ إن مشكل المعلمين يعترض سيرنا ، لأن معلمى تلك المدارس الآن لا تمكنهم حالتهم من التعاون مع الحكومة فى هذا الأمر . غير أن البدء فى كل مشروع أمر واجب ، وأن خبطنا فيه خبط عشواء ، وسرنا فى إنجازة على غير هدى

فى مدارس اميركا القروية يقوم التلاميذ باعانة القرى وحل مشاكلها

وقد نتج من ذلك أن الماشية بلغت عندهم حالة جديرة بالاعجاب . وهنا أذكر
عنها الأرقام الآتية : —

يؤخذ من إحصاء سنة ١٩٢٤ في ولايات اميركا المتحدة أن كمية اللبن
التي انتفعت بها تلك البلاد في ذلك العام بلغت ١١٥ ألف مليون رطل أو ٧٥
مليون ونصف مليون طن . وقد استخرجت هذه الكمية الهائلة من ٢٦
مليون وربع مليون بقرة ، أي أن البقرة الواحدة تدر سنوياً ٣٨٠ رطلا
من اللبن أو أكثر من ١٢ رطلاً يومياً . ويقدر ثمن هذه الأبقار بثلاثة عشر
ألف مليون ريال ، ويقدر ثمن اللبن المستخرج منها سنوياً بمقدار $٢\frac{٢}{٣}$ ألف
مليون ريال ، أي أن ما يخص الواحد من جميع السكان من هذا المبلغ ٢٤
ريالاً أو خمسة جنيهات مصرية تقريباً . وبلغ متوسط ما استهلكه الفرد
الواحد من الكمية المعروضة للبيع في السوق ٤٧٠ رطلاً سنوياً أو رطلاً
وثلاثاً يومياً

ويتبين من الإحصاء أيضاً أن عدد الأبقار في تلك البلاد ارتفع من
عشرة ملايين سنة ١٨٧٠ إلى أكثر من ٢٦ مليون الآن . ولا يتسع المجال
لشرح مستخرجات الألبان من قشدة وزبدة وجبن
وإذا زار أحد القراء عدداً كافياً من المدارس (غير الزراعية) الابتدائية
والثانوية والمتوسطة ، خصوصاً القروية منها ، تمثلت أمامه القوة العظيمة التي
تعمل هناك على نشر الطرق الحديثة التي تعلم التلاميذ « كيف يتعلمون
ليعيشوا » وكيف يجعلون المدرسة خادمة الأمة

وفي بلادنا المصرية أخذ التعليم الأُلزامي ينتشر في القرى والأرياف
فاذا وجهنا أنظار المعلمين إلى حاجات القرى وإلى سائر وجوه الإصلاح أو
بعضها، وتخرج الطلبة من مدارس المعلمين الأولية مسلحين بالعدد التي بها
يستطيعون معالجة المسائل وسد هذه الحاجات، أمكننا بعد سنوات أن نبلغ
نتيجة مزدوجة الفائدة : من جهة الطلبة أولاً، ومن ناحية القرى ثانياً، أو
بعبارة أخرى نصلح المدرسة والبيئة معاً. وبمناسبة ما ذكرناه عن الأبقار
والألبان في أميركا، نقول إن المجال واسِع أمام مدارسنا لأن نحذو حذو
أميركا في هذا السبيل وتدلنا الأحصاءات على أن الأبقار في مصر لا تبشر
بمستقبل حسن، من حيث العدد والنوع والأنتاج. فعددها ذكوراً وأنثاءً
٧٥٧ ر ٧٩١، وعدد الجاموس ذكوراً وأنثاءً ٤٩١ ر ٧٨٨. والبقرة الحلوب
في مصر لا تدر أكثر من ٣١٥٠ رطلاً. وليس لدى النسبة العمومية، ولا
بدونها منخفضة جداً إذا قيست بنسبة البلدان الراقية، أما عن حاجتها للتغذية
والنظافة والسمن، فقد سبقت الإشارة إلى هذه كلها

وقد أبانت وزارة الزراعة أخيراً أن مقدار الشهد الذي ينتفع به في
مصر لا يبلغ ٢٥٪. مما يمكن الانتفاع به. ودرس خلايا النحل وكل ما يتعلق
بالموضوع مسألة سهلة لذيدة مشوقة للطلبة في جميع أنواع المعاهد، ومن
المستطاع توجيه أنظار المدارس إليها كي تعنى بها وتنشرها في القرى حتى
يجد الفلاحون مصدراً جديداً للغذاء المفيد الذي لا يكلفهم شيئاً. أن القرى
الأوربية ملأى بخلايا النحل، ولا يكاد منزل قروي يخلو منها. وقرويو مصر

أحوج إلى الشهد من سواهم لأن المواد الغذائية التي في متناولهم قليلة جداً،
ومما نقبض به أن هناك مجلة للنحل ومؤلفاً نافعاً يجدر الاطلاع عليهما، وينبغي
عناية المدارس بدرسهما

وإذا نظرنا إلى منازل القرويين وحاجتها إلى النوافذ والتهوئة، وتأملنا
في الوسائل غير الصحية التي يلجأ إليها صغار الفلاحين والامراض التي تنتابهم
وبعد السكان عن المدينة — إذا تأملنا في هذه كلها، تصورنا مقدار التبعة
الملقاة على عاتق التعليم في معالجة مسائلنا الاجتماعية

ذكر خطيب هندي مكث في أميركا عدة سنوات وزار مصر في العام
الفات، أن رجلاً أميركياً كان يتلقى معه العلم في إحدى جامعات أميركا،
عاد بعد نيله الدرجة النهائية إلى القرية التي هو (الأميركي) منها، وتسلم إدارة
أطيان والده، وبعد أربع سنوات زاره صديقه الهندي فوجد أن صديقه
الأميركي حول تلك القرية إلى بلدة جميلة تتوافر فيها جميع وسائل الراحة
والنظام والأندية والجماعات والهيئات الرياضية والأندية.

ولم لا تستحيل معاهدنا جميعها إلى مراكز عامة تنتشر منها جنود
الاصلاح قتملاً رحاب القرى والأرياف؟ ولم لا تكون المدرسة خادمة
الأمّة؟ منذ عدة أعوام أخذ قسم الخدمة العامة بالجامعة الأميركية بمصر يبت
هذه الروح في الطلبة المصريين ويمنحهم الجوائز المالية، إذا ما نجحوا في

نشر الدعاية الصحية في قراهم بين صغار الفلاحين الذين عدموا الوسائل التي
تعينهم على إصلاح حالتهم الاجتماعية

وقد نجح المشروع نجاحاً يدل على اتساع المجال لتسليط مالدينا من
جيوش الطلبة ، وتسخيرهم في عمل الخير وإسدائه إلى إخواننا في الانسانية ،
لولا أن بعض الحكام المحليين أخطأوا مرمى هذه الدعاية في بعض الأحيان
وظنوا أن وراءها أغراضاً سياسية أو غايات دينية

وربما كانت مدارس روسيا أكثر تحمساً لهذه الدعاية التي يقوم بها
الطلبة من أية مدارس أخرى في العالم . وما أخرج بلادنا المصرية إلى جعل
المدرسة خادمة الأمة ، من أى بلد آخر في اوربا وأميركا ، وكم يكون
مستقبلنا عظيماً إذا ما اقتبسنا هذه النظم في مدارسنا ، خصوصاً وأن عدد
الطلبة في وادي النيل يتزايد بنسبة كبيرة كل عام ، وتوجيه هذه القوة
الكبيرة إلى معالجة شؤون البلاد الصحية والاجتماعية ، يوفر علينا جهداً
ومالاً وزمناً

كلمة ختامية

من المبادئ الحديثة المعروفة أن التعريف لا يدرك معناه إلا في نهاية الموضوع . فإذا تكلمنا عن الذكاء أو الوراثة أو غيرها من المسائل ، فإننا ندلى بآراء متطاحنة في ميدان البحث ، ونأتى بالأدلة والشواهد ، ونذكر الأمثلة ونرسم الصور الرمزية والخطوط البيانية ، مدعمة بالأرقام الاحصائية ، والحقائق العلمية ، ثم نختم البحث بالتعريف الذي نكون قد انتهينا إليه . والمشاهد في معظم الكتب والمقالات والأبحاث أن المؤلف يبدأ كلامه بالتعريف ، وهذا خطأ في معظم الأحيان ، غير أن الحقيقة أنه سواء أذكر التعريف أولاً أم أخيراً ، فإن معناه لا يستوعب إلا في النهاية

وهنا نحيل القارئ إلى فصول الكتاب قبل أن نطالبه بفهم ما نرمى إليه من موضوعه ، « كيف تعلم لنعيش »

ونريد أن نقرر في ختام هذا المؤلف الصغير معنى « نعيش » ومدلولاتها الواسعة ، حتى لا تنصرف إلى معناها الضيق وهو مجرد كسب الرزق يشمل « العيش » كل ما يعيننا على الشعور أننا لسنا غرباء في العالم ، أو عالة على سوانا ، أو جاهلين بالمبادئ والنظم والقوانين العامة التي تتغلغل في حياتنا ، من صحية وغذائية وعلمية واجتماعية ، أو عاجزين عن معاملة الغير والتعاون مع سوانا

فالحفاظة على الصحة ، والعمل والارتزاق ، والالمام بمبادئ التغذية ،

والتحلى بالأخلاق الحميدة ، وتكييف النفس تكييفاً يلائم البيئة ، وتسخير العلم تسخيراً يجعله خادماً للوسط ، والالتم بأهم المبادئ الحديثة ، التي على أساسها شيدت مدينة القرن العشرين ، ومنشأ المحترعات والمستكشفات ، والمرافق الاجتماعية ، وحياة الأسرة الحديثة — كلها مسائل لا بد لنا من الوقوف عليها والتدرب عليها ، إذا أردنا أن « نعيش »

ونريد أن نشير هنا بنوع خاص إلى أنه من أكبر واجبات المدرسة الحديثة أن تعلمنا كيف نقضى أوقات الفراغ . ومن أقوال مستر رمزي مكدونالد رئيس الوزارة البريطانية الحاضرة . أن أكبر محك للمرء المتعلم ، وأقوى دليل على تربيته الحقة ، هو أن يستطيع الجلوس بجانب الموقد وحده ساعتين أو أكثر ، مفكراً أو قارئاً ، ثم ينهض بعد هذه الوحدة ، وفؤاده يفيض غبطة ، ونفسه تشعر بسعادة الخلوة والتفكير والمطالعة وعشرة النفس للنفس

إننا نعلق أهمية عظمى على الشهادات المدرسية ، والدبلومات ، والدرجات النهائية ، ولا نقدر رجلاً عاملاً ، نشيطاً منتجاً ، لمجرد عمله ونشاطه وإنتاجه وكفايته ، ما دام لا يحمل تلك الشهادة أو الدرجة العلمية التي كثيراً ما تكون القاضية على إنتاجه وابتكاره . فكم رأينا من الشبان المصريين الأذكياء ، من نال الدرجات العليا ثم عاد إلى بلاده يتوقد حماسة ونشاطاً ، ثم ما لبث أن تقلد منصباً في الحكومة ، حتى خبا نوره ، وانطفأ سراج ذكائه ، وخمدت

نار الحماسة فيه ، ودفن حياً ، فلم نعد نسمع عنه الا زيادة مرتبه وترقيته تلك الترقية الآلية الدورية المعتادة ، الفينة بعد الفينة

لنراجع سير عطاء المخترعين والمنتجين والمستكشفين . وأمامنا أديسون ملك الكهرباء ، وبرنك العالم النبأى العظيم ، ورايت وأخوته أصحاب الأيادى البيضاء على فن الطيران ، وكبلنج ، وبرناردشو ، اللذان هما أشهر من نار على علم فى الأدب والاجتماع ، وجالزورثى ، ومارى بيكر أدى ، ورزنولد ، وركفلر ، وفورد ، وغيرهم وغيرهم . هؤلاء لا يحملون شهادات عالية ، ولا يعدون أساتذة وعلماء بالمعنى المتداول ، ولكنهم ابتكروا واخترعوا وأنتجوا وأثمروا أثماراً يانعة

من لا يعرف دارون والثورة التى كان بطلها فى عالم الطبيعيات والاجتماعيات ؟ ألم يهرب دارون من الجامعة رغم محاولة أهله ، حمله على الاستمرار ؟ ألم يقل إن د.وسها نظرية ، مملة متعبة ، عديمة الفائدة ؟ ألم يدخل ميدان العمل ويخرج للعالم ما لم تكن تحلم به الجامعة التى هرب منها ؟ ألم يغادر جون موير الكلية ، لأن جوها العلمى كان مضطرباً ، عديم النفع ؟ وما رأى القارىء فى ذلك المستكشف الكبير الذى خدم الانسانية خدمة لا مثيل لها ، وأعنى به باستور ؟ وما رأى القارىء فى لستر ؟ أن هذين المستكشفين العظيمين لا يعدان من « العلماء » ولكنهما ، فى نظر العالم بأسره ، من أكبر أعوان الانسانية

إن « العلماء » وحملة الشهادات ، يفيدون العالم بعض الفائدة ، ولكن

من المشاهد أنهم لا يأتون أعمالاً منتجة ، تتناسب مع معلوماتهم . وقد تساءل أحد أساتذة التربية قائلاً : لمَ لا نرى عدداً يذكر من حملة الشهادات يقومون بأعمال منتجة ؟ ولمَ لا نرى كثيرين من أساتذة الكليات والجامعات من معلمي الأدب والأشياء ، يؤلفون الروايات ويكتبون القصص القصيرة ذات المغزى ، والمقالات التي تفيد المجتمع فائدة عملية ؟ ولمَ تخرج الصحف والمجلات كتاباً أكثر وأقدر مما تخرج المدارس والجامعات ؟

ويقول هؤلاء أن الإنتاج شروطاً يحتم توافرها . ومعظم الكتب التي يصنفها الأساتذة مجموعة حقائق ومعلومات جمعوها من كتب أخرى ، ثم ألقوها على طلبتهم في صورة أخرى ، ثم عادوا فوضعوها في كتب جديدة قالوا إنها من مؤلفاتهم . ولا شك أن الذين يأتون أعمالاً منتجة في العالم ، من اختراع واستكشاف ، يرجعون إلى هذه المؤلفات في الغالب . ومن هذه الوجهة نجد هذه الكتب نافعة . غير أن الكتب المقطوفة من كتب أخرى ، لا توازي الكتب التي يدخل فيها عناصر الاختبارات والتجارب ، لأن هذه الأخيرة من الأعمال المنتجة

إن الإنتاج يحتاج إلى شجاعة ، والشجاعة تقف وجهاً لوجه أمام الخطر والسخرية ، وتبسط الهمم . والرغبة والشغف وقوة الإرادة تدفع صاحبها إلى تحمل الآلام والاضطهادات وكل شيء آخر في سبيل النجاح وبلوغ المرمى . ولا مشاحة أن هذه الصفات تتوقف على الصحة والسن وطبيعة الإنسان ونوع تربيته . وهذه الصفات تخلق الإيمان الذي يجعل المرء يعتقد بأهمية عمله

وهذه العقيدة تدفع صاحبها الى حب العمل . وحب العمل مصدره الرغبة .
وقد يكون حب العمل منشؤه حب الزوجة ، أو الشهرة ، أو الثروة ، أو ميل
طبيعى لحل المسائل ، أو اسداء الخير للجنس البشرى

بأزاء هذه الآراء التى أدلينا بها فى كتابنا ، خليك بنا أن نضع خطة
جديدة لمدارسنا المصرية ، تخول لنا أن « نتعلم لتعيش »

الشكر واجب

الاعتراف بالجميل فرض واجب، والشكر حق على أداؤه لمن هو جدير به . وقد استمددت الآراء التي أودعتها دفتي كتابي هذا من طائفة من أساتذة أفاضل ، سواء أكان بتلقى العلم عنهم ، أم بقراءة مؤلفاتهم ونتيجة أبحاثهم واستوحيت الطرق التي أشرت إليها من مدارس وكليات عدة ، أوروبية وأميركية، زرتها أو اطلعت على نظمها ، مستعيناً بمديرها والقائمين بأمرها

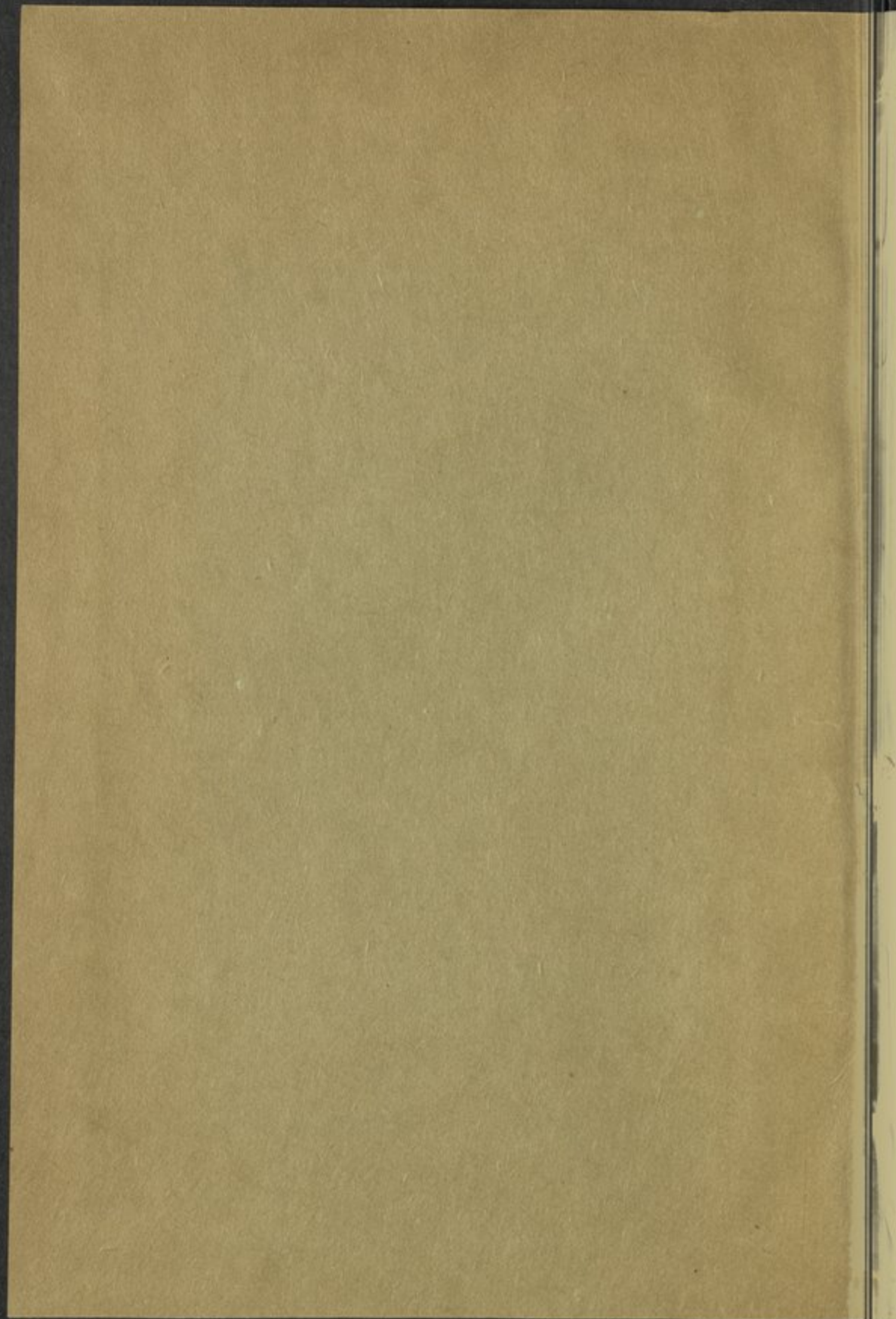
وقد رجوت الاستاذ اسماعيل حسين استاذ الأدب العربي بالكلية الأميركية للآداب والعلوم بالقاهرة ، أن يتصفح مسوداته وهي ماثلة للطبع فكلف نفسه عناء القراءة والتصحيح ، وطلبت من جرجس افندى وهبه بقسم الترتيب بالجامعة الأميركية أن يباشر الطبع وإعداد المسودات والصور ، فقام بذلك خير قيام

فلهؤلاء جميعاً أقدم خالص شكرى وعظيم تقديرى
المؤلف

فهرس الكتاب

صفحة	
٣	(١) إهداء الكتاب
٥	(٢) إلى قراء هذا الكتاب (الثقافة العاملة والثقافة العاطلة)
١٠	(٣) مدخل الكتاب
٢٠	(٤) الفصل الاول تحول (تطور) المناهج في المدارس الحديثة
٢٨	(٥) الفصل الثاني فلسفة المناهج (معنى التعليم)
٤٧	(٦) الفصل الثالث مصير الشاب المصرى ونظم التعليم الحاضرة
٥٣	(٧) الفصل الرابع التعليم النظرى
٦٤	(٨) الفصل الخامس حاجتنا الاقتصادية والاجتماعية
١٢٧	(٩) الفصل السادس التربية البدنية
١٢٩	(١٠) الفصل السابع التربية والتعاون
١٣٥	(١١) الفصل الثامن المدارس والأخلاق
١٥٤	(١٢) الفصل التاسع التنوع
١٦٧	(١٣) الفصل العاشر التعليم والسياسة
١٨٧	(١٤) الفصل الحادى عشر الحكومة ومجال الأعمال
١٩٩	(١٥) الفصل الثانى عشر التربية والبيئة
٢٢٣	(١٦) الفصل الثالث عشر مدرسة بغير منهاج

٢٣٧	Ushagram	فجر القرية الهندية	(١٧) الفصل الرابع عشر
		(تجربة في التعليم وحيدة في بابها)	
٢٥٠		التربية والعمل المنتج	(١٨) الفصل الخامس عشر
٢٦٠		المدارس العملية	(١٩) الفصل السادس عشر
٢٦٨		الشعر والخيال	(٢٠) الفصل السابع عشر
٢٨٥		المدرسة خادمة الامة	(٢١) الفصل الثامن عشر
٢٩٥			(٢٢) خاتمة الكتاب
٣٠٠			(٢٣) كلمة شكر



up to 68

135

370.1:B93kA:c.1

بقطر، امير

كيف نتعلم للتعليم

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01021261

American University of Beirut



370.1

B93kA

General Library

